

تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى

تأليف

دكتور محمود محمد الحويري
أستاذ تاريخ العصور الوسطى

الكتاب: تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى

تأليف: دكتور/ محمود محمد الحويرى

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٥٨٤

الترقيم الدولى: ISBN

977-5841-57-7

تاريخ النشر

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة - نشر - تصدير كتب)

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة للمكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

الإدارة: ٥ ش مصطفى طلحوم - النيل - القاهرة

تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧

تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى

تأليف

دكتور محمود محمد الخويرى
أستاذ تاريخ العصر الوسطى

الكتاب: تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى

تأليف: دكتور/ محمود محمد الحورى

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٥٨

الترقيم الدولى: ISBN

977--5841-57-7

تاريخ النشر

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة - نشر - تصدير كتب)
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة للمكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

الإدارة: ٥ ش مصطفى طمرم - المنيل - القاهرة

تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧

مقدمة

الترك أحد الشعوب الرحوية التي عاشت فى أواسط قارة آسيا، ولعبوا دوراً بارزاً فى التاريخ، وأول ما سمعه عنهم هو أنهم أقاموا لأنفسهم فى القرن السادس الميلادى دولة امتدت من حدود الصين شرقاً إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غرباً. وقد عرفت الدولة البيزنطية فى فترة سابقة عدداً من القبائل التى تنتمى إلى الجنس التركى كالكزر والقفجاق والبلغار والماجيار وغيرهم.

وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، ظهرت على مسرح الأحداث الميامية قوة الأتراك السلاجقة. وكانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى التى وقعت فى طريقهم. وبعد الإحياء الملحوظ الذى شهدته تلك الدولة فى القرن العاشر الميلادى، سارت أوضاعها السياسية فى طريق التدهور والانحطاط، ويبدو ذلك واضحاً منذ وفاة الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى صفاح البلغار سنة ١٠٢٥م، فقد انهارت قواتها الدفاعية، وانتابها أزمات اقتصادية حادة منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادى عشر، أدت إلى سيطرة التجار الأتراك السلاجقة على تجارة آسيا الصغرى، الأمر الذى حرم الدولة البيزنطية من أغنى ولاياتها ومصدرها الرئيسى للدخل من الضرائب.

على أنه حدث فى يناير سنة ١٠٦٧م أن اعتلى عرش الدولة البيزنطية إمبراطور نشيط قدير هو رومانوس الرابع، فخرج فى عام ١٠٧١م ليضع حداً لتقدم السلاجقة فى أراضيهم، وعسكر بجيش فى مانزكرت (ملازكرد) شمالى بحيرة فان، فى انتظار اللقاء بخصمه السلطان الملجوقى ألب أرسلان. وفى هذا الموقع حلت الهزيمة ساحقة بالبيزنطيين، وتمزق جيشهم، ووقع الإمبراطور نفسه أسيراً.

وقد جاءت معركة مانزكرت دليلاً دامناً على ضعف الدولة البيزنطية، ونهاية دورها فى الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، وترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الدولة البيزنطية، وساعدت على القضاء على الدولة نفسها على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد سنة ١٤٥٣م.

على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسير فى طريق التدهور والانحيار بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢م، فقد ترتب على وفاته نشوب النزاع بين أبنائه، ثم بينهم

وزين أعمامهم، فأدى ذلك إلى تفتت الدولة إلى دويلات صغيرة، وانتشار الفوضى، ونسب الإدارة، واغتصاب الحكم، وحاول كل أمير سلجوقي أن يضم إلى صفه حلفاء يمنحهم الأموال والإقطاعات، الأمر الذى أضعف نفوذه وقوته.

ويمثل القرن الثالث عشر الميلادى حقبة هامة فى تاريخ الشرق الأدنى، وخاصة فى آسيا الصغرى، إذ شهد أقول وتفسخ سلطنة سلاجقة الروم، وتوغل المغول فى أملاكها. وما أن حلت أوائل القرن الرابع عشر، حتى كانت تلك السلطنة قد فقدت غربى الأناضول الذى توزع على عدد من إمارات الغزاة الأتراك، وأهمها إمارة عثمان.

وتقول الرواية التاريخية أن أرطغرل (١٢٣١ - ١٢٨١) أبو عثمان الذى نسبت إليه الدولة العثمانية كان يقود جماعة صغيرة، وحدث أن ساعد علاء الدين سلطان سلاجقة الروم فى حروبه، فرد السلطان على هذه المساعدة بمنح العثمانيين حبة سحبة من الأراضى فى آسيا الصغرى فى المنطقة الواقعة على الحدود البيزنطية.

ولما توفى أرطغرل انتقلت زعامة العثمانيين إلى أكبر أبنائه عثمان (١٢٨١ - ١٣٢٦)، الذى انحصرت اهتماماته فى تأسيس قواعد الدولة العثمانية وبداية توسعها بالتدريج على حساب البيزنطيين، مستغلا الفوضى التى سيطرت على الأراضى البيزنطية بالأناضول، ومتجنباً الدخول فى نزاع مع جيرانه التركمان على الأقوى منه، حتى يأتى الوقت الذى تقوى فيه دولته بصورة كافية تمكّنه من مواجهتهم.

وأخذ العثمانيون يتوسمون فى سرعة تسترعى الانتباه، فاستولوا سنة ١٣٢٦ على بروس، واتخذوها عاصمة لدولتهم، ودفن بها عثمان مؤسس الدولة التى نمت إليه. والواقع أن استيلاء العثمانيين على بروسه كان خطوة هامة دفعتهم إلى الأمام، فقد تحولت ممتلكاتهم من إمارة حدود يمكنها رعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود وشعب مستقر.

وفى سنة ١٣٥٤م استولت جيوش السلطان العثمانى أورخان على مدينة غاليلولى، لتكون أول قاعدة عثمانية ثابتة فى أوروبا، راحت تنطلق منها الحملات العثمانية لغزو أوروبا ومنطقة البلقان فى السنوات التالية. ويرجع الفضل إلى أورخان فى أنه أرسى دعائم حضارة عثمانية، امتدت عناصرها من التراث السلجوقي وحضارة السلاجقة.

وعندما توفي أورخان، واستقرت الأمور لخليفته السلطان مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩)، وجه جهوده إلى الجانب الأوربي، حتى استولى على مدينة أدرنة (أدرينابول) عاصمة لراقيا البيزنطية، واخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى سقوط القسطنطينية في أيديهم في القرن التالي. ونتيجة لذلك أصبحت القسطنطينية معزولة عن باقي أجزاء الدولة البيزنطية، قابضة خلف أسوارها، وبانت تنتظر الضربة الكبرى الأخيرة، التي كان لامفر من وقوعها.

وفي تلك الأثناء لم يجد الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس وسيلة لحماية دولته سوى الاستجداء بالغرب الأوربي. ولهذا الغرض رأى أن يسافر إلى أوروبا ليستعطف المساعدة من ملوكها وحكامها ضد العثمانيين. فتوجه إلى روما سنة ١٣٦٩م، حيث قابل البابا وأعلن اعتناقه للعقيدة الكاثوليكية كما كتب له اعترافا بقبول وجهة نظر الكنيسة الغربية في جميع نواحي الخلاف بينها وبين الكنيسة الشرقية. ويديهي أن اعتناق يوحنا الخامس للكاثوليكية قد أثار ضجة عنيفة بين رعاياه الأرثوذكس، في الوقت الذي لم تقدم له البابوية شيئا، إذ كانت عند منتصف القرن الرابع عشر الميلادي أضعف من أن تحيى الحماسة الهلية بعد أن خدمت أنفاسها.

وفي سنة ١٣٨٧م، تكون حلفا صليبيا من صربيا والبوسنة ووالاشيا وكرواتيا وبلغاريا والمجر، ضد العثمانيين. غير أن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة فادحة بجيوش هذا الحلف في كوسوفا سنة ١٣٨٩م، ولقى ملك الصرب مصرعه في هذه المعركة، وقتل مراد نفسه بيد أحد نبلاء الصرب.

وعقب مقتل السلطان مراد كان من بين أبنائه الموجودين على قيد الحياة بايزيد ومعقوب، وكان الأخير الإبن الأكبر. غير أن بايزيد استطاع الوصول إلى العرش بعد أن قام بقتل أخيه معقوب خشية أن ينازعه الملك. واعتلاء بايزيد العرش، بدأ التقليد الدموي العثماني القاضى بقتل الإخوة إبقاء لمنازعتهم، وهو التقليد الذي برره الفقهاء، وما لبث أن أصبح بمثابة قانون في عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١). ورغم أن هذا التقليد يتم عن القسوة الشديدة، فإنه حقق الهدف المرجو منه، بدليل أن الدولة العثمانية لم تتأثر بالصراعات الأسرية لمدة خمسة قرون.

وفى عهد بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) جاء التهديد المباشر للعثمانيين فى أوربا من قبل دولة المجر. فقد طلب ملكها سيجسموند المعونة من الغرب الأوروبى عام ١٣٩٥ للوقوف فى وجه العثمانيين. وكان رد الفعل سريعاً، فقد أتى الحلفاء والألمان والإنجليز وبعض الأمراء الفرنسيين ومقدم منظمة التيوتون ومقدم منظمة فرسان القديس يوحنا برودرس، وجماعات أخرى. ولكن بايزيد الأول استطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦. ونتيجة لذلك استولى العثمانيون على شبه جزيرة البلقان، باستثناء القسطنطينية وما حولها.

وبعد الانتصار الرائع الذى حققه بايزيد الأول على قوى الحلف الصليبي فى نيقوبوليس، قام بفرض الحصار على مدينة القسطنطينية. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد اجتاحت تيمور لNK على رأس جموع ضخمة من المغول الجزء الأكبر من آسيا الصغرى، الأمر الذى اضطر بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والعودة سريعاً إلى آسيا الصغرى للدفاع عنها، حيث أنزل به تيمور لNK هزيمة منكرة فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢م، ومات بايزيد الأول فى الأسر فى العام التالى.

وعلى الرغم من أن تيمور لNK قد قضى على القوة العسكرية للدولة العثمانية، إلا أنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها. فما لبثت هذه الدولة أن نهضت من كبوتها، واستعادت قواها، واستأنفت سيرها إلى الأمام فى نبات وقوة كمهدما من قبل.

ففى خلال فترة الشغور - أو الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد الثانى - ظلت حدود الدولة العثمانية على ما هى عليه تقريباً، فيما عدا الأراضى التى استولى عليها تيمور لNK. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن أعداء العثمانيين فى أوروبا وآسيا الصغرى، لم يحاولوا إتهاز فرصة تمزق البيت العثمانى، والقيام بأى مجهود للقضاء على وجوده.

وعلى أبة حال، استطاع محمد أصغر أبناء بايزيد الأول أن يتغلب على إخوته الواحد بعد الآخر، ويصبح السلطان الوحيد للدولة العثمانية، واشتهر فى التاريخ باسم السلطان محمد جلبى الغازى (١٤١٣ - ١٤٢١). وعندما توفى محمد الأول خلفه ابنه مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١)، الذى يعتبر واحد من أعظم السلاطين العثمانيين. فهو صاحب الفضل فى تأسيس القوة العثمانية فى أوروبا وآسيا. ففى أوروبا انصرفت معظم

جهوده ضد الصرب والبلغار ووالاشيا والبوسنة وألبانيا، وخاصة المجر التي استطاعت فى أول الأمر الثبات أمام الجيوش العثمانية وأحرزت بعض النجاح عليها فى سنة ١٤٤٣ م. ولكن السلطان مراد الثانى لم يلبث أن أنزل هزيمة قاسية بالجيش المجرى عند فارنا سنة ١٤٤٤. ومعتبر تلك الهزيمة علامة هامة فى تاريخ العلاقات التركية الأوروبية، فقد حطمت اعتقاد المسيحيين فى أنهم قادرون على طرد العثمانيين إلى آسيا، وهى آخر محاولة يقوم بها الغرب الأوروبى لإنقاذ الدولة البيزنطية، وهو المصير الذى سيتحدد بعد تسع سنوات.

وبمجل عهد السلطان مراد الثانى نهاية الثقافة العثمانية القديمة، فقد واصلت الحياة الدينية فى عهده دورانها فى فلك الصوفية التى فرضت طابعها على الحياة الفكرية. وفتح أبواب بلاطه للعلماء والشعراء والموسيقين، وأخذت اللغة التركية محل لغتى الأدب الرفيع: العربية والفارسية. واهتم مراد الثانى اهتماما بالغاً بالبناء والتشييد، وسارع على نهج أبيه فى كونه محباً للعدالة، وراعياً نشيطاً للفنون، ومحباً للحياة.

بعد وفاة السلطان مراد الثانى ورث إبنه محمد الثانى أو الفاتح إمبراطورية واسعة. ومن أجل الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية من الناحيتين السياسية والاستراتيجية، كان لابد من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية باعتبارها قلعة مسيحية وسط أراضي السلطان، ومصدر تهديد لأمن السلطنة فى الداخل والخارج.

وما يجدر ذكره أن الغزاة والفاحين قد أدركوا منذ وقت بعيد أهمية مدينة القسطنطينية وخطورة موقعها، فحاصروها مرات كثيرة، وحاولوا الاستيلاء عليها، غير أن المدينة استطاعت بفضل موقعها وقوة حصونها ومناعة أسوارها أن تبعد عنها معظم الغزاة والفاحين.

وفى عهد محمد الثانى أو الفاتح كانت الظروف مهيئة تماماً لفتح القسطنطينية، فقد صارت حطاما متهاككة، ويمثل ذلك فى قول المؤرخ ديل Diehl «أصبحت القسطنطينية جسماً مريضاً برأس ضخمة، وتحيط بها دولاً إما مستقلة أو عدية، حتى أطلق على الإمبراطورية البيزنطية رجل المصمر الوسطى المريض».

وفى تلك الأثناء أحس الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩ - ١٤٥٣) بخطر الاستعدادات الحربية التى قام بها العثمانيون للاستيلاء على مدينته. فحاول

أن يستجدي معونة الغرب الأوربي، ولكن دون جدوى. وفي ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ دخل
العثمانيون بقيادة محمد الفاتح مدينة القسطنطينية كالسيل الجارف، وحلوا محل الأباطرة
البيزنطيين. وكان فتحها حادثاً جلالاً اهتزت له أوروبا المسيحية من أقصاها إلى أقصاها. وفي
الشرق الإسلامي عم الفرح والابتهاج في أرجاء آسيا وأفريقية، وأصبحت القسطنطينية
عاصمة للإمبراطورية العثمانية، وأطلق عليها اسم إستانبول أو إسلامبول أو الآستانة،
وإستانبول كلمة تركية معناها دار الإسلام.

وكان فتح القسطنطينية بداية لسلسلة من الانتصارات العثمانية الرائعة أحرزها
العثمانيون في البر والبحر، فلم تأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع العثمانيون أن
يسيطروا نفوذهم على مناطق شاسعة في أوروبا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوب بولونيا
وأجزاء من شرق النمسا. وزحف العثمانيون على مدينة فيينا وحاصروها لأول مرة في سنة
١٥٢٩، ثم حاصروها للمرة الثانية في سنة ١٦٨٣. وبالرغم من فشل العثمانيين في
هذين الحصارين الشهيرين، فإن مجرد وصول فتوحاتهم إلى قلب أوروبا المسيحية على هذا
النحر أثار الرعب والفرع في أرجائها.

وهنا نلاحظ أن السلطان سليم الأول المشهور بلقب «يارز» (١٥١٢ - ١٥٢٠)، قد
خرج عن السياسة الأوروبية التي سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين، فتوقف عن
الزحف غرباً والتوسع في أوروبا على حساب دول القوى المسيحية المجاورة، واتجه بنزواته ناحية
الشرق على حساب الدول الإسلامية المجاورة. وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الظاهرة،
فيرى البعض أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشعب في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن
الخامس عشر الميلادي، وأنه كان عليها في أوائل القرن التالي البحث عن ميادين جديدة
للتوسع، في حين يرى البعض الآخر أن الأحداث التي دارت داخل الشرق الإسلامي أو
حولها في أوائل القرن السادس عشر هي التي جذبت الدولة العثمانية إلى الشرق الإسلامي
لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة، والمقصود هنا بأحداث الشرق
الإسلامي هو الزحف البرتغالي على حدود الشرق العربي ومنافذه البحرية، وأن خروج
العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامي من الخطر
البرتغالي. وبعبارة أخرى، فقد أعلن العثمانيون أن هدفهم من التحرك صوب الدولة
الملوكية، هو حماية الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامي من
هجمات البرتغال الصليبية، الأمر الذي عجز عن تحقيقه سلاطين المماليك، وبذلك يكون

تحرك نيين ناحية الشرق بهدف الجهاد لحماية العالم الإسلامى.

وفى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨، بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور، تمكن فاسكو دى جاما من الطواف حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى أهم موانئ ساحل ملبار الهندى. وبذلك حقق البرتغاليون تحولا بارزا فى تاريخ التجارة الشرقية، إذ كانت حاصلات الشرق تصل إلى أوروبا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار فى مصر المملوكية، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى البنادقة، بأسعار مرتفعة، وقد عادت تلك التجارة فى تلك الحاصلات على مصر والبندقية بأرباح طائلة. وهكذا ذهبت حصيلة الضرائب التى كان سلاطين المماليك يحصلون عليها، وأدت إلى ثرائهم وقوتهم.

وعبثا حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين فى الهند، فدخلت فى حرب معهم كان نصيبهم فيها الهزيمة الساحقة، وتحطيم أسطولها فى معركة ديو البحرية فى ٣ فبراير سنة ١٥٠٩، فلم تقم للتجارة المملوكية فى الهند. بعد ذلك قائمة، ولم تعد سوقا عالميا للتجار بين الشرق والغرب. وانحصر نمط على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة فى أيدي العثمانيين سنة ١٥١٧.

وخلال القرن السادس عشر الميلادى (العاصر الهجرى) كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى ذروة قوتها وأوج ازدهارها. فمدت جناحيها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ودقت أبوابها، فبينا، وسطت نفوذها على ما يعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا. كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من القوقاز شمالا حتى الصحراء الإفريقية جنوبا وحدود المغرب الأقصى غربا. كما أنها مدت جناحها الشرقى حتى بلاد فارس وجمال كردستان، فكانت أقوى دولة فى العالم شهدتها العصور الوسطى.

وبوفاة السلطان سليمان القانونى عام ١٥٦٦ انتهى العصر الأول من تاريخ الدولة العثمانية وهو عصرها الذهبى، بلغت فيه الأوج من النفوذ الدولى والقوة الحرية والتوسع الإقليمى المطرد كما سبق أن ذكرنا. وبدأ العصر الثانى، وقد تولى الحكم فيه عدد من السلاطين الضعاف انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم، وانغمسوا فى حياة المجون والترف،

وأخذت الدولة تفقد رويداً رويداً ممتلكاتها فى القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقية.

ولاشك أن الدولة العثمانية تركت بصماتها واضحة فى تاريخ العصور الوسطى. ففى خلال فتوحاتها لم نسمح إلى تحويل رعاياها المسيحيين واليهود إلى اعتناق الإسلام، ولم تنتهج سياسة شاملة تتجه نحو التريك. ونسب سياسة التسامح الدينى التى سارت عليها الدولة العثمانية، نجحت الحضارة العثمانية فى فرض نفسها، وفى تشكيل بعض جوانب الحياة فى البلقان، بحيث يمكن القول بأن الأتراك هم الذين أرسوا اللبنة الأولى لحضارة مدنية حديثة. فقد ونمت سيطرة العثمانيين حداً للفوضى التى كانت سائدة فى الأناضول والبلقان، ووفرت عامل الاستقرار السياسى، وأمنت النشاط الاقتصادى.

ومن المعروف أنه قبل فتح القسطنطينية على يدي السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ كان الإقطاع منتشرًا فى أوروبا، وبفضل هذا السلطان تداعى النظام الإقطاعى أمام قذائف مدافع العثمانيين، وبذلك صاغت الدولة العثمانية فى تشكيل أوروبا الحديثة.

وهذا الكتاب ليس دراسة مفصلة شاملة لأحداث الدولة العثمانية السياسية والحضارية فى العصور الوسطى، وإنما هو دراسة موجزة متواضعة لأحوال تلك الدولة فى تلك العصور، توخيت انتفاع أبنائى الطلاب وقراء العربية الكرام بها. وفى الحديث الشريف: «من اجتهد وأصاب له أجران، ومن اجتهد وأخطأ له أجر».

المؤلف

ثكنات المعادى - يناير ٢٠٠١م

شوال ١٤٢١هـ

الفصل الأول

ظهور الأتراك العثمانيين وقيام دولتهم

- الأتراك.
- الأتراك السلاجقة.
- السلاجقة والبيزنطيون.
- ضعف نفوذ السلاجقة.
- أصل الأتراك العثمانيين.
- قيام الدولة العثمانية.

الأثرak:

تحتل دراسة تاريخ الترك وضماً خاصاً، وذلك أن المصادر الأولى لهذا التاريخ لم تكتب بلغة الترك، وإذا أردنا أن نعرف تاريخ الترك زمن بداوتهم - أى زمان جهلهم الكتابة - فنحن مضطرون إلى أن نقرأ حكايات جيرانهم، أما إذا أردنا دراسة تاريخهم بعد أن فتحوا الممالك المتحضرة، ونجد أن تحولوا هم أنفسهم من البداوة إلى الحضارة، إذا أردنا هذا واجهتنا صعوبة أخرى وهى أن الترك فى هذا الدور من تاريخهم تأثروا حضارياً بالعناصر المخلوبة لهم، وتأثروا أيضاً باللغات الأدبية لهذه العناصر. يمكن القول أن أحوال الترك المقيمين فى شرق آسيا وخاصة فى منغوليا إنما تعرف من المصادر الصينية، أما الترك الذين هاجروا إلى الجزء الغربى من آسيا الوسطى وتأثروا بالحضارة الإسلامية، فإن أحوالهم إنما تعرف من المصادر العربية، ومن المصادر الفارسية بوجه خاص^(١). ومن أهم المصادر التى تهم صاحب الدراسات التركية آثار أورخون التى اكتشفت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وتحتوى هذه الآثار كتابات عن الأصول الأولى للغة الترك، فضلاً عن بعض جوانب من تاريخهم الذى يشير إلى أنهم ظهرت فى القرن السادس الميلادى. وتؤيد الكتابات الصينية والبيزنطية ما جاء فى نقوش أورخون، فقد وردت فى المصادر الصينية كلمة Tu-Kite (تو - كه - ته) بمعنى «الترك»، وفى المصادر البيزنطية وردت كلمة توركو Turkoï، التى قبلت على أنها بمعنى الترك بلا خلاف. والواقع أنه ليس بين الدول التركية جميعها ما يمكن أن تستمد تاريخه من مصادر محرة بالتركية إلا الدولة العثمانية، ولكن لغة المؤرخين المشعنين تحتوى من الكلمات العربية والفارسية أكثر مما تتضمن من الكلمات التركية، وهى لذلك غير مفهومة لكثير من الأثرak^(٢).

ولاشك أن الترك الذين يتكلمون ما نسميه اليوم اللغة التركية كانوا موجودين منذ أقدم العصور، ولكن من العبث أن نفرض أن كلمة ترك كانت موجودة قبل القرن السادس الميلادى، وقد لاحظ العرب أن أقواماً كثيرة من حاربوها فى القرنين السابع والثامن

(١) بارولك (و): تاريخ الأثرak فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السيد سليمان (القاهرة ١٩٩٦)، ص

١٥ - ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦ - ١٧.

للميلاد كانت تتكلم نفس اللغة التى يتكلمها الأتراك، فأطلقوا عليهم كلمة ترك. ويرى الباحث الدانمركى طومسن Thomsen أن كلمة «ترك» إسم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح إسم لأسرة حاكمة، ويحمل أن يكون المعنى الأول للكلمة «ترك» هو البأس والقوة والإحكام^(١).

وقد أطلق على بلاد الترك إسم «تركستان»، وهى كلمة فارسية تعنى «بلاد الترك». وأول ما سمعه فى التاريخ عن الترك هو أنهم أقاموا لأنفسهم فى القرن السادس الميلادى دولة امتدت من حدود الصين شرقا إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غربا. وقد انقسم الوطن التركى عندئذ إلى قسمين: قسم يقع شرقى إقليم ما وراء النهر - وهو الإقليم الواقع بين نهري جيحون وسيحون - ويمتد حتى حدود الصين شرقا، وسهوب روميا شمالا، وقد يسيطر ليشمل بلاد القوقاز وحوض نهر الفولجا، وقسم غربى يشمل المناطق الزراعية الخصبة بين نهري جيحون وسيحون، أى يشمل بلاد ما وراء النهر^(٢).

وتحوى كتابات الجغرافيين العرب التى ترجع إلى القرن العاشر الميلادى وصفا مفصلا للعالم الإسلامى، وفيها كذلك معلومات قليلة عن الأماكن الآهلة بالترك والواقعة على الطريق الذى يربط العالم الإسلامى بالصين. ويوجد طبقا لما تصوره هذه المؤلفات ثلاثة أقوام من الترك فى الأرض الممتدة من بحر الخزر إلى حدود الصين، وهؤلاء هم^(٣).

١ - الغز ويتشرون فى الأراضى الممتدة فى بحر الخزر إلى أواسط مجرى نهر ميرداريا (سيحون).

٢ - القارلوق ويتشرون فى الأراضى التى تمتد إلى مسيرة عشرين يوما شرق قرغانة.

٣ - التفرغز أو طوقوز - أوغوز ويكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حتى الصين.

(١) المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٦.

(٢) سعيد عاشور، «العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٩١)، ج ١ ص ٢٤.

(٣) هارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ٦٦ - ٦٧.

وفي القرن السادس الميلادي نجح خانات الترك في توحيد آسيا الوسطى بأجمعها تحت سيطرتهم، وصار الأمل يحدوهم في القضاء على القوة التي اعترضت سبيل توسعهم غربا، وهي دولة الساسانيين (٢٢٦ - ٦٣٧م)، ولذلك سعوا للدخول في حلف مع البيزنطيين ضد العدو المشترك ممثلا في الدولة الساسانية، ولكن ضعف الدولة البيزنطية عندئذ حال دون تنفيذ هذا المخطط^(١).

وكانت الديانة الغالبة على الترك حتى ذلك الوقت هي الديانة البوذية السائدة في شرق القارة الآسيوية، ولكن احتكاكهم بالفرس أدى إلى تأثرهم بجوانب من الحضارة الفارسية، ففسرت إليها العقيدة الزرادشتية^(٢)، وإن ظلت هذه العقيدة محدودة الانتشار بين الترك لعدم اهتمام أهلها بأمر الدعوة لها^(٣)، هذا بالإضافة إلى بعض الديانات الأخرى التي وجدت منفذا لنفسها بين الترك، ومن هذه الديانات المسيحية والمناوية^(٤)، وقد استهدفت الديانة

(١) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) تب الزرادشتية إلى مؤسها زرادشت، وتاريخ ظهوره غير معروف بالضبط، فيعتقد علماء الزرادشتية أنه عاش حوالي عام ١٠٠٠ ق.م، وإن كان بعض رجال الغرب يحددون ذلك في تاريخ متأخر هو القرن السابع قبل الميلاد. وتقوم تعاليم الزرادشتية على فكرة «الله»، والإسم الذي يطلق عليه فيها وهو «أهورامزدا»، الذي يوصف بأنه الكامل والأبدى وخالق الحياة وإله الخير. والشروع المتشرة في حياة البشر من أشد ما يشغل زرادشت، فهو يحرض الناس على إشعال حرب لا تنتهي على تلك الشرور. وتشير الزرادشتية إلى الشر بأنه المدو أو الفرد الشر أهرمان. وقد أدى استخدام الزرادشتية لإسم علم يطلقونه على الشر وهو أهرمان إلى نشوب الكثير من الجدل فيما إذا كانت الزرادشتية تؤمن بتثاية مطلقة، تجمع بين أهورامزنا المتصف بالحكمة وبين أهرمان متصف بالشر، أنظر وندجري (البيان - ج): التاريخ وكيف يفسرونه (القاهرة ١٩٩٦)، ج ١ ص ١٣٧ - ١٤١.

(٣) سعيد عاشور: «العلاقات، المرية التركية»، ص ٢٥.

(٤) تب المناوية إلى صاحبها ماني (٢١٦ - ٢٧٧م)، ولد في ماردن بالقرب من بابل، وأعلن عقيدته في من الخامسة والأربعين خلال عهد الملك الساساني سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م). والعالم عند المناوية قائم على أصلين هما الخير والشر أو النور والظلمة. ويرى ماني أن الخير والشر متزجان معا في الإنسان، وأن المرأة هي السبب في إلقاء الرجل في الذنوب، فإذا امتنع عنها، وعاش عيشة الزهد، وصام عن الطعام بعض الوقت، فإن ما فيه من عناصر الخير يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة. وقد رفض ماني الثروة تماما وقبل الإنجيل فقط، ويرى أنه رسول الحق وخليفة بوذا وزرادشت والمسيح. ويتضح من ديانة ماني أنها ديانة مركبة، أي اقتبس معتقداته من ديانات أخرى وألف بينها، وظل ماني ينشر دعوته حتى صلب سنة ٢٧٢م، وحشي جلده بالقش.

المائوية التوفيق بين الزرادشتية والمسيحية والبوذية، مما جعلها تصادف قبولاً واسع الانتشار بين الترك في تلك المرحلة السابقة على وصول الإسلام إليهم، وقد شجع ذلك بعض المائويين على الفرار بعقيدتهم من فارس إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توافر لهم قدر من حرية العبادة، فعمشوا جنباً إلى جنب مع البوذيين والمسيحيين النساطرة، هذا وإن ظلت الزرادشتية ديانة الطبقة الحاكمة في تلك الأصقاع حتى وصول الإسلام إليها^(١).

وكان أن ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، واستطاع الرسول ﷺ أن يضع نواة الدولة العربية الإسلامية، ويوحد القبائل العربية بعد أن كانت متفرقة متنازعة، ويجمع من العرب قوة هائلة. وبعد وفاة الرسول الكريم خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم لنشر الإسلام في أنحاء العالم المعروف وقتذاك، وضربوا أروع الأمثلة في الفضائل والقدوة الحسنة، وحملوا راية التوحيد شعارها ولا إله إلا الله، محمد رسول الله، ومعهم دستور إلهي محكم وهو القرآن الكريم. ولا شك أن نجاح حركة الفتوح الإسلامية العربية على حساب القوى الكبرى المعاصرة وبخاصة دولتي الفرس والروم (البيزنطيين)، وانتشار القبائل العربية تبعاً لذلك شرقاً وغرباً، وما ترتب على ذلك من نتائج سياسية وحضارية، كل ذلك كان له أثره في تغيير خريطة العالم.

وعلى أية حال، بدأت الفتوحات العربية في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، باندفاع العرب إلى أراضي الدولة البيزنطية والدولة الفارسية في وقت واحد. وبهنا هنا أن العرب ما كادوا يوطدون نفوذهم في فارس حتى اتخذوا من خراسان في عام ٢٢هـ (٦٤٣م) ثغراً إسلامياً يناوئ الأتراك ويحاربهم ويشيع الفرقة بينهم، لا يعطى الإمارات التركية المتنازعة فرصة التجمع في جبهة تركية موحدة^(٢). والواقع أن الأتراك كانوا على العكس من الفرس، فقد نبشوا ولم تستطع قوات العرب المسلمون أن تفتح بلادهم، وقد كان العرب

= وقد انتشرت المائوية أول الأمر في بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سوريا وفلسطين ومصر، ومنها انتقلت إلى طرابلس وقرطاجنة، في الوقت الذي انتشرت فيه في الغال (فرنسا) وبريطانيا. انظر حسن ييرنيا: تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٦٣ - ٦٤.

(١) سيد عاشور: المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٦، حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتح العربي والتركى (القاهرة ١٩٦٨)، ص ١١٤.

(٢) حسن محمود: المرجع السابق، ص ١١٥.

يلتزمون سياسة الدفاع طوال القرن الثامن، وذلك بعد أن تم لهم فتح الأماكن المتحضرة في أحواض جيحون وزوفشان وسيحون، واتبع العرب أيضا سياسة من سبقهم، فبشوا الأسوار وحفروا الخنادق، ليحافظوا على البلاد المتحضرة^(١).

ويتخذ بعض الباحثين من سنة ٨٦هـ (٧٠٥م) بداية الفتح الحقيقي لبلاد الترك. وكانت الدولة الأموية عندئذ قد خلصت من مشاكلها الداخلية - وأهمها ثورة عبد الله الزبير - مما جعل الدولة تتألف حركة الفتح على مقياس واسع، شرقا وغربا. ويقترن فتح تركستان عادة باسم قتيبة بن مسلم الذي ولاه الحجاج بن يوسف الثقفي خراسان سنة ٨٦هـ، فنجح في استعادة طخارستان، كما استولى على الطالقان وبلغ في نفس العام، ثم اجتاحت إقليم بخارى، وسقطت بخارى ثم سمرقند في أيدي العرب سنة ٩٣هـ (٧١٢م). وجاءت هذه الحركة التوسعية مصحوبة بانتشار الإسلام، إذ يذكر المؤرخون أن المسلمين عندما دخلوا سمرقند أحرقوا ما بها من أصنام وبنوا فيها مسجداً أقيمت فيه الصلاة والخطبة^(٢).

أخذ الإسلام يتشرب بين الترك حين سطت الدولة السامانية الفارسية (٨٧٤ - ٩٩٩م) نفوذها في أواسط آسيا، ففي القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ إلى ١٠٠٠ تقريبا) كانت المناطق المتحضرة بتركستان الروسية الحالية في قبضتهم، وتسمى الولايات الواقعة بالجانب الآخر من نهر أموداريا (جيحون) بلاد ما وراء النهر، وكان سكانها يسمون أحيانا في أثناء الفتوحات الإسلامية بالأتراك^(٣).

وتدل الوثائق على أن المدارس التي كانت بخراسان وبما وراء النهر في القرن العاشر الميلادي، لعبت الدور الأهم في نشر الإسلام، وكانت هذه المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها. وفي ذلك القرن كانت الدعوة للإسلام خارج حدود الخلافة العباسية أكثر نجاحاً في آسيا الوسطى منها في أي مكان آخر، وذلك بفضل هذه المدارس^(٤).

(١) هارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٥٠.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) هارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٧٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦.

وهنا نلاحظ أن السامانيين عدلوا عن خطة الدفاع التي كان يجمعها أمراء خراسان وما وراء النهر المعينون من قبل الخليفة، ونفضوا أيديهم من بناء الأسوار التي كانت تقام لحماية الأقاليم للتحضرة من غارات قبائل البدو الرحل، وبدأ السامانيون يغيرون على مناطق الرعى فيما وراء الحدود، وكانت غزواتهم تنتهى أحيانا بفتح بعض المدن، ففي سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣) فتحوا مدينة طراز أوطالاس، وحولوا الكيسة الكبيرة بالمدينة إلى مسجد، مما يدل على أن المسيحية كانت قد مبرت الإسلام إلى هناك^(١).

وقد صحب هذا التوسع في انتشار الإسلام بين الترك نشاط تيار كبير هو النشاط التجارى لحرص المسلمين فى تلك المستوطنات التى أقاموها فى بلاد الترك على مباشرة التجارة بين غرب القارة الآسيوية وشرقها عبر طرق التجارة المألوفة بين الشرق والغرب. ومن المعروف أن قوافل التجار فى تلك العصور كانت تحمل الأفكار والأخبار والتيارات الفكرية والعقائدية والروحية، إلى جانب البضائع، بمعنى أن نشاط المسلمين التجارى فى بلاد الترك، حمل بين ثناياه تيار الإسلام وأركانها ومبادئه^(٢).

الأتراك السلاجقة:

وفى خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أخذ فرع آخر من الترك، وهم السلاجقة، يتحركون صوب الأقاليم الإسلامية^(٣). والأتراك السلاجقة هم مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا بالأوغوز Oghuz أو الغز Ghuzz، وعرفهم المؤرخون البيزنطيون باسم أوزوى Ouzoi، ويشير الجغرافى الفارسى مؤلف كتاب «حدود العالم» فى القرن العاشر الميلادى إلى أن قبائل الأوغوز أو الغز كانوا يعيشون مع قبائل القرغيز التركية فى منطقة السهوب الواقعة شمالى بحيرة بلكاش^(٤)، وهى المنطقة المعروفة باسم منطقة

(١) المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧ - ٣٨.

(٣) للوقوف على مزيد من التفاصيل، أنظر للباحث: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين (القاهرة ١٩٩٢)، ص ١٦ - ٢٦.

(4) Grousset (R.), L'Empire des Steppes (Paris, 1948), p. 203, The Empire of of Steppes. Trans -- From the Franch by Naomi Waiford 'new Jersey, 1970) p. 148.

التركستان. وفي النصف الأول من القرن الحادى عشر، نرى الغز مجموعة من القبائل لايربطها إلا رباط مفكك تماماً، وتحارب بعضها بعضاً، وفي الربع الثانى من هذا القرن هاجرت قبائل الغز إلى الغرب بحثاً عن أماكن أفضل، فالتجّمت جماعات منها إلى روسيا الجنوبية وإيران، ويشير المؤرخون الروس إليهم لأول مرة حوالى سنة ١٠٥٤م، ذلك أن قبائل رعوية تركية أخرى دفعتهم إلى التحرك، فانتشروا بعيداً حتى الدانوب الأدنى وعبروه، واجتاحوا البلقان، حيث لقوا فى النهاية هزيمة ساحقة على أيدي القوات البيزنطية فى سنة ١٠٦٥م، أما الجماعات الأخرى أو الفرع الآخر من الغز وهم السلاجقة، فقد اتجهوا ابتجّاهاً آخر، وكان حظهم وافراً، فقد غزوا فارس وآسيا الصغرى^(١). ومن العجيب أن هؤلاء الغز الذين لم يستطيعوا فى أى وقت الوصول إلى الوحدة، قد نجحوا فى تأسيس أقوى الدول التركية وأطولها عمراً، ومن بينها تركيا الحالية^(٢).

ونسب السلاجقة إلى جدهم ملجوق (ومعناها القوس الحديدى) بن دقاق، وهو الذى مع قبيلة القنق الغزية Kinik tribe of the Oghiez تحت زعامته، وكان لايرف لها إسم خاص قبل توليه زعامتها، فسبب إليه وخضعت لحكمه، وقبل سنة ٩٨٥م كان ملجوق قد انفصل مع جماعته من قبائل الغز الضخمة، وعسكر على الضفة اليمنى لنهر سيرداريا الأدنى (سيحون) فى مدينة جند بالقرب من يرويسك الحالية Perowask، بذلك أصبح السلاجقة يجاورون أملاك السامانيين، وأدى ذلك إلى تخليهم عن البوذية واعتناقهم الإسلام^(٣) على المذهب السنى. وقد أثرت بدواة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له على المذهب السنى، وتحملوا له حماسة الحديث العهد بالدين، مما أثر فى تصرفات السلاجقة، فجعلهم يحترمون أئمة الدين احتراماً شديداً، ويميلون إلى المتصوفة، فانتشر التصوف فى عصرهم، وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام^(٤).

(1) Grousset, L'Empire des Sippes, p. 203, English translation, p. 148.

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ١١٩.

(3) Grousset, L'Empire des Steppes, p. 204; Cahen, "The Turkish Invasion: The-Selchukids", in Hist. of the Crusades. Vol. I (Philadelphia, 1955), pp. 139-140.

(٤) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراض، ص ٢١، دولة السلاجقة ص ٢١.

والواقع أنه كان لاعتناق السلاجقة الإسلام وتمسكهم بتعاليمه بالغ الأثر في اكتساب ود السامانيين الذين كانوا يقيمون في إقليم ما وراء النهر، ويدافعون بصلابة عن أراضيهم من غارات الترك القرخانيين، فوقف السلاجقة إلى جانب السامانيين، كما أعانواهم في صد غارات الترك الوثنيين^(١)، فأخذت قواتهم تتزايد، في الوقت الذي أخذوا هم يشنون الغارات من حين لآخر على الترك الوثنيين، الأمر الذي أكسبهم احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم^(٢).

وبعد انهيار الدولة السامانية في عام ٣٨٩هـ (٩٩٩) تنازع القرخانيون والغزنويون على أرضها، فاستولى القرخانيون على إقليم ما وراء النهر، واستولى الغزنويون على خراسان، وهنا عمل السلاجقة على الاستفادة من الفوضى التي صاحبت الوضع الجديد، فاستقروا في قلب بلاد ما وراء النهر، في الجزء الشمالي الشرقي من بخارى. ولما توفي سلجوق خلفه في زعامة السلاجقة ابنه الأكبر إسرائيل، الذي دخل في خدمة ملك القرخانيين على تكن في عام ١٠٢٥ م، وتحالف معه ضد السلطان محمود الغزنوي مؤسس الدولة الغزنوية، فما كان من الأخير إلا أن عول على القضاء على إسرائيل، ولتحقيق ذلك لجأ إلى استمالته بالحيلة، ثم قبض عليه وألقى به سجيناً في أحد قلاع بالهند، حتى أدركته الوفاة سنة ١٠٣٠ م^(٣).

ولاشك أن هذا التصرف الغادر قد أغضب السلاجقة، وجعلهم يقدون العزم على الأخذ بالثأر لإسرائيل، فاختاروا أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم، فما لبث أن فكر في الانتقال بهم إلى خراسان، بهدف تثبيت أقدام قومه في هذا الإقليم، فم الانقضاض على الغزنويين والأخذ بالثأر منهم، كما أنه استهدف تكوين دولة قوية تحل محل الغزنويين في خراسان وما وراء النهر. وكان أن كتب السلاجقة إلى السلطان محمود الغزنوي يطلبون منه أن يأذن لهم بميمور دياره والإقامة بين «نساء» و«بارود»، فوافق محمود ننا أن القضاء على إسرائيل زعيمهم السابق قد كسر شوكتهم. على أنه لم يكد يستقر السلاجقة في خراسان،

(1) Grousset, op. cit., p. 204.

(٢) محمد محمود إيسى: تاريخ العراق والشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٦٣ - ٦٤.

(3) Grousset, op. cit., p. 204.

حتى أخذوا يدهمون قواتهم، ويشترون في الأرجاء المجاورة لهم، ويحنيون الفرس للقضاء على الدولة الفزنوية، واقتلاع جذورها من خراسان وما وراء النهر^(١).

لما توفي السلطان محمود آخزنوى فى عام ١٠٣٠م، وخلفه ابنه مسعود فى حكم الفزنويين، رأى السلاجقة أن الوقت قد حان للقضاء على الفزنويين، فوجدوا قيادتهم فى يد طغرليك (١٠٣٧ - ١٠٦٣)، الذى أسرع إلى نيسابور حاضرة خراسان واحتلها فى عام ١٠٣٧، ثم جلس على عرش مسعود فى نيسابور، فأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة والمؤسس الحقيقى لدولتهم^(٢). على أن السلطان مسعود الفزنوى قرر الانتقام لنفسه من طغرليك، فدارت بين السلاجقة والفزنويين معركة عنيفة عند دنداندقان بالقرب من مرو عام ١٠٣٩م، إنتهت بهزيمة الفزنويين هزيمة ساحقة أنزلت بهم أفدح كارثة قضت على نفوذهم فى فارس وما وراء النهر، وصارت خراسان كلها للسلاجقة^(٣). وفى العام التالى (١٠٤٠) كتب طغرليك إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله، طالبا منه أن يعترف بسلطة السلاجقة وشرعية حكمه، ومع أن الخلافة العباسية كانت آنذاك فى غاية الضعف، إلا أن الحصول على اعترافها يعطى الدولة السلجوقية صفة شرعية يرضى عنها الناس، وقد اهتم الخليفة العباسى بطغرليك، واعترف بسلطته^(٤).

واصل السلطان طغرليك توسيع رقعة دولته، فاستولى على خوارزم عام ١٠٤٢م، والرى وقزوين وأبهر رزنجان عام ١٠٤٥م، وفى عام ١٠٥٠م حاصر طغرليك مدينة

(١) عبد النعيم حسين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢٦، دولة السلاجقة ص ٢٤ - ٢٦، محمد إدرى: المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١، أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة (الكويت ١٩٧٥)، ص ٢٣ - ٢٥.

(٢) عبد النعيم حسين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢٨، أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) الفارقى: تاريخه، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف هوش (بيروت ١٩٧٤)، ص ٥، نامارا تالبوت رابى: السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الدسوقي، مراجعة عبد الحميد العلوجى (بغداد ١٩٦٨)، ص ٢٥.

Grousset, op. cit., pp. 204-205; Cahen, op. cit., pp. 141-142.

(٤) عبد النعيم حسين: المرجع السابق، ص ٢٩ - ٣٥، دولة السلاجقة، ص ٢٢٨، أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٦.

أصفهان فسقطت في يده بعد صعوبات جمة، في الوقت الذي استطاع السيطرة على بلاد فارس والقضاء على دولة البويهيين قضاء تاماً، وفي عام ١٠٥٤م توجه طغرل بك إلى إقليم أذربيجان، واستطاع أن يمسك نفوذه على جميع أنحائه، وفي العام التالي (٤٤٧ - ١٠٥٥م) دخل بغداد بناءً على دعوة الخليفة العباسي ليحل محل البويهيين الشيعة في الهمنة على العراق^(١).

السلاجقة والبيزنطيون:

وكانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى لقوة السلاجقة. فبعد الإحياء الملحوظ الذي شهدته تلك الدولة في القرن العاشر الميلادي، سارت أوضاعها السياسية في حق التدهور والانحطاط. فمعد وفاة الإمبراطور باسيل الثاني صفاح البلغار سنة ١٠٢٥م، انهضت قواها الدفاعية، وانتابها أزمات اقتصادية حادة منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادي عشر، أدت إلى سيطرة التجار الإيطاليين على تجارة الإمبراطورية، وجاء الخطر الداهم في اجتياح الأتراك السلاجقة أراضي آسيا الصغرى، الأمر الذي حرم الإمبراطورية من أغنى ولاياتها ومصدرها الرئيسي للدخل من الضرائب^(٢).

والواقع أن الغزو السلجوقي لأراضي الإمبراطورية البيزنطية لم تشد وطأته إلا منذ عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ - ١٠٥٥). ففي سنة ١٠٤٨م إنذرع إبراهيم إينال - أخو طغرل بك من أمه - في إغارات ناجحة على الأراضي البيزنطية، وانتصر على البيزنطيين في إقليم أيريا (الأبخاز) وطرايزون وأرضروم القريبة من أعالي الفرات والتي أحرقها وسواها بالأرض وقتل معظم سكانها^(٣). وفي عام ١٠٥٤م قاد السلطان طغرل بك نفسه السلاجقة إلى الأراضي البيزنطية، ففزا أرمنيّة، ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما

(1) Grousset, op. cit., pp. 205-206.

أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٨.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453 (New York 1958), pp. 29-31.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٨، رابى: السلاجقة، ص ١٢٧،

Charanis (P-), "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", pp. 189-190; Cahen, op. cit., p. 144.

بين بحيرة فان وأرضروم، وفرض الحصار على مانزكورت (ملازكرد)، ولكن الجيوش البيزنطية لم تتمكن من الاستيلاء عليها، فانسحب إلى الري^(١).

وهنا نلاحظ أن الغارات التي وجهها السلاجقة إلى جميع أنحاء إرمينية، لم تنجح في احتلال مركز قوى يثبتون فيه. على أن الموقف قد تغير عندما اشتدت غارات السلاجقة على أراضي الإمبراطورية البيزنطية بين سنتي ١٠٥٧ و ١٠٨١م، فاجتاحوا قبادوقيا ونهبوا ملطية سنة ١٠٥٧، وفي سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة لأول مرة إلى جوف أملاك الإمبراطورية شرقى آسيا الصغرى، حتى بلغوا سيواس، فاقتموها وأجروا بها مذبحة مرعبة، ثم بعد أن أشعلوا فيها النيران، هادوا محملين بالأسلاب والغنائم^(٢). ويمكن القول بأن غارات السلاجقة حتى وفاة طغرلبيك سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣) استهدفت غالباً النهب والسلب، دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل الإمبراطورية البيزنطية.

ولما تولى ألب أرسلان الحكم بعد وفاة عمه طغرلبيك، نهج السلاجقة نهجاً جديداً تجاه الإمبراطورية البيزنطية، إذ استهدفوا الاستيلاء على أراضي تلك الإمبراطورية وامتلاكها، بدلاً من القيام بغارات محدودة للسلب والنهب. ففي سنة ١٠٦٥ إستولى ألب أرسلان على أنى حاضرة إقليم أرمينية وهي مدينة حصينة ذات موقع استراتيجي هام، وباستيلاء السلاجقة على هذه المدينة أضحوا يسيطرون على هضبة أرمينية التي كانت بمثابة الدرع الواقى للإمبراطورية البيزنطية من الشرق لأهمية موقعها وصعوبة مسالكها^(٣)، وبات الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للتوغل في داخل الأناضول. حدث ذلك دون أن يحاول الإمبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر دوкас (١٠٥٩ - ١٠٦٧) التحرك لإنقاذ الإمبراطورية من الوضع الخطير الذى تردت فيه. والواقع أن هذا الإمبراطور أثبت فشله في الحكم، إذ كان لايهتم بشيء أكثر من اهتمامه بشئون المال، فأهمل جميع إدارات الحكومة الأخرى لكي

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦٧.

Charanis, op. cit, p. 190; Cahen, op. cit., p. 144.

(2) Runciman (S.), A Hist. of the Crusades (Cambridge, 1951), Vol. I. p. 60.

(٣) الكامل، ج ٨ ص ٩٨ - ١٠٠.

Otrugorsky (G.), Hist. of the Byzantine State (New Jersey, 1968), p. 303; Cahen, op. cit., p. 148.

يحاول تدعيم خزانة الإمبراطورية ثانية، بعد أن استنزفت مواردها، ولكي يقتصد في الأموال سرح جزءاً ضخماً من الجيش وأنقص مرتبات الباقين، وكان هذا عملاً جنونياً أدى إلى عدم كفاءة القوات المحاربة بصورة خاصة، في الوقت الذي كان يهدد فيه الإمبراطورية أخطر حربي شوهد منذ أربعة قرون، وهو خطر الأتراك السلاجقة^(١).

على أنه حدث في يناير سنة ١٠٦٧ أن اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية جندي نشيط هو رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diognes. فأعاد تنظيم الجيش وإن كان معظمه تألف من المرتزقة النورمان والخزر والروس والفرنسيين والبلغاريين واليونانيين والعقالية والترك. وبهذا الجيش الذي يفتقر إلى روح التجانس وتألف من قوميات مختلفة خرج رومانوس في عام ١٠٧١ م ليسترد أرمينية ويضع حداً لتقدم السلاجقة. وعسكر بجيشه الذي قدرته المراجع بحوالي مائتي ألف مقاتل في مانزكورت (ملازكرد) شمالي بحيرة فان بالقرب من مدينة خلاط في انتظار اللقاء بخصمه السلطان ألب أرسلان. وأحس السلطان أنه أمام خطر داهم، فأسرع بالهجوم على مقدمة الجيش البيزنطي في سرعة خاطفة وشجاعة نادرة واستطاع أن يحرز نصراً، ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه من الصعب على جيشه أن يواجه جيشاً ضخماً كجيش البيزنطيين، ورأى أن الحكمة تقتضيه أن يسمي في طلب الصلح إلى أن يستمد الاستعداد المناسب لملاقاة خصمه في معركة حاسمة، غير أن الإمبراطور رفض الصلح في غطرمة وكبرياء، ورد على ألب أرسلان بأن الصلح بينهما لن يتم إلا في الري عاصمة السلاجقة^(٢). وعندئذ لم ير السلطان بداً من خوض المعركة، فدعا جنده إلى الاستماتة في القتال دفاعاً عن الإسلام، واختار يوم الجمعة وهو وقت الدعاء على جميع المناهل لجيوش المسلمين مرعداً للاشتباك مع البيزنطيين، فصلى بجنده وبكى خشوعاً وتأثراً وبكى الناس معه، ثم امتطى فرسه ولبس البياض وتحنط يستعدداً للموت، وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره. والتقى في ٢٠ ذي القعدة ٤٦٣هـ (١٩ أغسطس ١٠٧١) في معركة عنيفة اشتدت فيها حماسة

(١) أومان (تشارلز): الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر (القاهرة ١٩٥٣)، ص ٩٦،
رئيس: السلاجقة، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) الكامل، ج ٨، ص ١٠٩، رئيس: السلاجقة، ص ٣٧ - ٣٨، محمد عبد الله حنان: مرافق
حاسة في تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢)، ص ١٠٩، عبد النعيم حسني: سلاجقة إيران،
ص ٥٧.

السلاجقة، واستماتوا فى القتال، ولم يستطع الجيش البيزنطى الوقوف أمام الفرسان السلاجقة الذين انقضوا على البيزنطيين بحركاتهم السريعة المفاجئة، وقتلوا منهم جموعاً عظيمة، وقع الإمبراطور نفسه أسيراً فى أيدي ألب أرسلان^(١)، الأمر الذى لم يحدث يوماً قبل ذلك فى تاريخ بيزنطة. ومن العوامل التى أسهمت فى إلحاق الهزيمة بالجيش البيزنطى، أنه لما احتدمت المعركة استجاب المرتزقة الأتراك فى جيش رومانوس لرابطة الدم والعصبة التى تربطهم بالأتراك السلاجقة. ومن أسباب الهزيمة أيضاً أن أحد فرسان النورمان انسحب من المعركة دون أن يمد يد المساعدة إلى رومانوس؛ كما أن القائد أندرونيقوس دو كاس وهو أحد الطامعين فى العرش البيزنطى، وضع مصالحه الخاصة فوق مصالح وطنه فانسحب بقواته إلى القسطنطينية^(٢)، مما أدى إلى حدوث اضطراب فى الجيش البيزنطى كله.

ولاجتدال فى أن موقعة ملازكرد كانت هزة عنيفة أصابت كيان الإمبراطورية البيزنطية إصابة لم تستطع النهوض منها، وكان من الممكن أن تؤدى إلى نتائج أسوأ مما أدت إليه لو أن ألب أرسلان اكتفى منها بانتصاره الساحق، ولم يتابع ما هيأته له الظروف من إمكان السيطرة التامة على مقاليد الإمبراطورية أو على الأقل إضعافها أكثر مما حدث^(٣). وعلى أية حال، فإن تلك المعركة جاءت دليلاً على ضعف الإمبراطورية البيزنطية ونهاية دورها فى الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، بل إنها ساعدت على القضاء على الإمبراطورية نفسها على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد سنة ١٤٥٣ م.

بعد كارثة ملازكرد المروعة، واصل الأتراك السلاجقة تقدمهم على حساب البيزنطيين بعد أن انفتح الطريق أمامهم فى آسيا الصغرى، واجتاحوا معظمها، وبات من العسير على

(١) ابن القلاسى: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣) ص ١٦٧ - ١٦٨، الكامل، ج ٨ ص ١٠٩ - ١١٠، الفاروقى: تاريخه، ص ١٨٩ - ١٩٠؛

Levchenko (M.V.), Byzance des Origines à 1453. (Paris, 1949), p. 220; Grousset, L'Empire des Steppes, p. 207, Wittek (Paul), The Rise of the Ottoman Empire (New York, 1971), p. 16.

(2) Charanis, op. cit., pp. 192-193;

حسن حسنى: الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨)، ص ٣٣، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦)، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) حسن حسنى: المرجع السابق، ص ٣٥.

الإمبراطورية البيزنطية استرداد الأقاليم التي فقدتها هناك، الأمر الذي أدى إلى فقدان بيزنطة مركزاً حرياً ممتازاً، ومصدراً هاماً للحبوب والغلل، ومورداً رئيسياً لتزويدها بالجند، واستلزم الحال زيادة الاعتماد يوماً بعد يوم على الجند المرتزقة الأجانب^(١). وقد حدث ذلك دون أن تلقى الجموع السلوقية مقاومة تقريباً، إذ لم يعد ثمة من يحل محل الإمبراطور رومانوس الرابع، في الوقت الذي كانت السنوات العشرة التالية في داخل الإمبراطورية فترة فوضى وكوارث، لم يستخدم حطام الجيش البيزنطي في خلالها لمقاومة السلاجقة وإيقاف ترغلهم غرباً، بل في القيام بسلسلة يائسة من الحروب الأهلية^(٢). يضاف إلى ذلك ازدياد حدة النزاع بين الطبقة الأرستقراطية المدنية وطبقة القادة العسكريين في الولايات بصفة خاصة في آسيا الصغرى، وما وقع من مكائد ونزوات وفتن لانتهى، قد أصاب الحياة السياسية البيزنطية بالشلل التام، ودمر القوات البيزنطية في آسيا الصغرى، وجعل بيزنطة تستعين بالترك كقوات مرتزقة، كل ذلك هياً للأتراك السلاجقة فرصة التوغل في آسيا الصغرى .

وبما يجدر ذكره أن الإمبراطورية البيزنطية بعد أربعة قرون من الغزوات العربية الإسلامية عبر جبال طوروس، قد اتخذت استراتيجية فعالة للدفاع عن حدودها، وكانت قادرة على مقاومة الغزوات في داخل أراضيها، تلك الغزوات التي كانت في بعض الفترات تتكرر سنوياً (الصوائف والشوائف). ولكن الغزو التركي يقلم لنا صورة مختلفة تماماً، فالغزوات العربية الإسلامية كانت تقوم من المراكز العربية المتقدمة في قيليقية شمال الشام، وقامت بها جماعات من الفرسان كانت مستعدة للاسحاب بعد كل حملة موسمية، على حين

(١) ستيفن رنيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جابري، مراجعة زكى على (القاهرة ١٩٦١)، ص ٥٢، جوزيف لسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٤٦.

(٢) أومان: المرجع السابق، ص ١٩٩.

Brice (W.C.), "The Colonization of Anatolia", in Bulletin of the John Rylands library, Vol. 38 (1955-1956), p. 18.

(3) Vryonis (Speros), The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the eleventh through the fifteenth Century (London, 1971), p. 103.

أن الأتراك السلاجقة جاءوا للاستقرار، وأحضروا صحة جيوشهم كل قبائلهم وعائلاتهم ومواشيهم، بحثا عن مراعى ومناطق جديدة^(١).

وقد أبرز لنا المؤرخ كلود كاسن المراحل الرئيسية للغزو السلجوقي فى الأناضول، فيرى أن هزيمة مانزكرت كانت، أوضح حلقة فى عملية التسلل الطويلة التى قام بها السلاجقة فى آسيا الصغرى. فقبل سنة ١٠٧١ م كانت القبائل أو الجماعات التركمانية تتحرك غربا قادمة من فارس، وكان الأتراك يجرى تجنيدهم - من خلال زعمائهم - كقوات مرتزقة فى الجيوش المسيحية والإسلامية، وفيما بين سنتى ١٠٧١ و١٠٨٧ إنهارت مقاومة الإمبراطورية البيزنطية، وقامت إمارات تركمانية صغيرة مستقلة تحت حكم زعامات محلية فى أنحاء كثيرة من الأناضول والشام، وضعفت هذه الإمارات بسبب المنافسات والحروب، التى نشبت بينها، وأخيرا أصبح الأتراك فى آسيا الصغرى متحدنين تحت سيطرة دولة سلجوقية عاصمتها قونية^(٢).

وبزوال النفوذ البيزنطى من الأناضول، كان على المجتمع المسيحى أن يكيف نفسه مع الأتراك السلاجقة المسلمين وحضارتهم الإسلامية، وقد تسببت الظروف التاريخية المختلفة فى العالم الإسلامى فى هجرة مستمرة قام بها العلماء المسلمون والدرابيش للاستقرار فى الأناضول، ولذلك صادر السلاطين السلاجقة معظم أراضي الميحيين والمباني والإيرادات ومنحوها لأنبأعهم العلماء المسلمين والدعبيين من المسلمين، ونتيجة لذلك انتشرت المساجد والمدارس والثكايا والمستشفيات عبر الأناضول^(٣). وإذا كان الغزو التركى للأناضول قد أنزل بالإمبراطورية البيزنطية كارثة لم تفق منها، فيمكن القول إن تلك الكارثة قد أصابت الكنيسة اليونانية، فقد فقدت تلك الكنيسة جزءاً من رعاياها الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية، وشاهدت تلك الكنيسة تقلص مؤسستها وأسقفياتها، واختفت المراكز الديرية العظيمة، وصارت الكنيسة فقيرة إلى حد كبير، بعد أن فقدت معظم إيراداتها وأملاكها على أيدى الأتراك^(٤).

(1) Brice, op. cit., p. 20.

(2) Brice, op. cit., pp. 20-21.

(3) Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor. p. 402.

(4) Ibid., p. 406.

ومهما يكن من أمر، فقد ركز العزاة الأتراك السلاجقة جهودهم فى آسيا الصغرى، وثبتوا فتوحاتهم، ثم بعد ذلك طردوا النفوذ الإغريقى من المناطق الساحلية. وفى نفس الوقت تزايدت أعداد الأتراك باطراد فى آسيا الصغرى، وتجهلوا فى أنحائها حتى استقروا على الحدود. وقد ازداد عدد السكان المسلمين بهجرات العرب والفرس والأتراك القادمين من الشرق الأوسط، مما أدى إلى تصاعد التيار الإسلامى وقيام الكثير باعتناق الإسلام. والحقيقة أنه بعد أن فقدت الإمبراطورية أقاليمها الغنية فى آسيا الصغرى، هبطت قوتها إلى درجة متدنية، وانتزع الأتراك السلاجقة المنايع الرئيسية لقوتها البشرية، وفى عهد الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨ - ١٠٨١) حرمت القسطنطينية من الضرائب التى كانت تدرها الولايات الأناضولية الغنية^(١).

ومن المعروف أن السلاجقة كانوا رعاة فى عاداتهم وتنظيماتهم مثل معظم القبائل التركية فى آسيا الوسطى. ولكن البناء الاجتماعى للوافدين الجدد منهم إلى آسيا الصغرى، تميز باستقرار جماعات ضخمة منهم فى شتى أنحائها، ومنذ وقت بعيد كان سكان القرى الزراعية فى هضبة الأناضول جيرانا لجماعات رعوية، وكانت القرى الزراعية تقع فى منحدرات السفوح أو فى الأراضى وافرة الخصوبة والوديان النهرية. وقد أتاح الظروف السكانية الخاصة بآسيا الصغرى لأعداد ضخمة من الأتراك أن يتسللوا إليها منذ عقود بعيدة، وأحضروا معهم عنف ونشاط البدو، فضلا عن رغبتهم فى الخضوع للنظام. وبالتدريج خضع الأتراك للحياة الزراعية، وعاشوا فى قرى جنباً إلى جنب مع السكان الأصليين، وحدث اندماج بين الفريقين، وشيئا فشيئا أصبحت المدن خاضعة للإسلام. ونتيجة لذلك اختفت اللغة اليونانية والثقافة اليونانية من داخل آسيا الصغرى، تحولت بلادها إلى العقيدة والحضارة الإسلامية^(٢).

وقد أشار الجغرافى الإدريسى إلى أن بلاد آسيا الصغرى فى سنة ١١١٧م كانت لا تزال تستخدم الأسماء الجديدة، على حين أن الرحالة ابن بطوطة الذى عبر بلاد آسيا الصغرى

(1) Ibid., p.405.

(2) Langer (W.L.) and Blake (R.P.), "The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background", in American Historical Review, 37 (1931-1932) pp. 479-481.

سنة ١٣٣٠ يرى أن تلك البلاد بما فيها من مدن وقرى تحمل أسماء تركية صرفة، الأمر الذى يعطينا صورة مذهلة عن التحول الذى حدث، ويعنى بذلك «التترك الفعالة لآسيا الصغرى ودخولها فى الإسلام»^(١). ويذكر المؤرخون أنه بمجرد أن تخضع الأرض للأتراك السلاجقة أو العثمانيين، سرعان ما تستقر الأمور بها، ولذلك شهدت آسيا الصغرى هدوءاً فى عهد الأتراك السلاجقة الذين غلب عليهم التسامح الدينى، ولم يعرفوا الاضطهاد الدينى وأمنوا للأهالى الحرية الدينية، وبدل على ذلك أن الأهالى اعتنقوا العقيدة الجديدة المحملة فى الإسلام من تلقاء أنفسهم^(٢).

ضعف نفوذ السلاجقة:

بلغت الدولة السلجوقية أوج اتساعها وعظمتها فى عهد السلطان ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢م) الذى خلف أباه ألب أرسلان، وصارت تمتد من بحيرة خوارزم شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، ومن حدود الصين شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً^(٣). ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد فى أن امتداد دولة السلاجقة غرباً على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية، إذ الحقيقة أن هذا السلطان لم تطلأ قدمه أرض الأناضول، وإنما قام بمواصلة الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلмыш الذى تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريباً^(٤). وقد اختار سليمان بن قتلмыш السلجوقى مدينة نيقية لتكون مركزاً له، وهى المدينة التى أصبحت أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول حتى حلت محلها قونية فيما بعد (١٠٨١ - ١٣٠٢)^(٥).

(1) I bid., p. 485.

أنظر مهذب رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٣٤)، ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٤٨، حسن مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته (القاهرة ١٩٨٠)، ص ١١٥ - ١٣٥.

(2) Langer and Blake, op. cit., pp. 482-483.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المتدا والخبير (بيروت ١٩٦٨)، المجلد الخامس، القسم الأول، ص ٢٧، عبد النعم حنين: سلاجقة إيران، ص ٩.

(٤) سعيد حاصر: الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٧٨) ج ١ ص ٨٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٠.

على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسيطر فى طريق التداعى والانهيـار بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م، وترب على وفاته نشوب النزاع بين أبنائه، لم بينهم وبين أعمامهم، فأدى ذلك إلى تفتت الدولة إلى دويلات صغيرة، وانتشار الفوضى وفساد الإدارة، واغتصاب الحكم، وحاول كل أمير ملجوقى أن يضم إلى صفه حلفاء يمنحهم الأموال والإقطاعات، الأمر الذى أدى إلى إضعاف نفوذه وقوته^(١).

ولعل أكبر مظهر لانحلال نفوذ الأتراك السلاجقة منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى أنهم انقسموا إلى خمسة بيوت هى:

١ - بيت طغرلبك، وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى، وقد ملكوا خراسان والرى والعراق والجزيرة وفارس والأهواز. واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٨ حتى سنة ١١٢٨ عندما سقطت فى أيدي الخوارزمية.

٢ - بيت سلاجقة كرمان، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن ملجوق - وهو أخو ألب أرسلان - واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ حتى سقطت على أيدي الغز التركمان سنة ١١٨٣.

٣ - سلاجقة عراق العجم وكردستان، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ حتى سقطت على أيدي الخوارزمية سنة ١١٩٤م.

٤ - سلاجقة الشام، وهم بيت تش بن ألب أرسلان، وقد بدأت سنة ١٠٩٤، استمرت حتى سنة ١١١٧م.

٥ - سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وكانوا من بيت قنلمش بن إسرائيل ابن ملجوق، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧، ولم تسقط إلا على أيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٣٠١، وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً^(٢).

وبعد وفاة ملكشاه، كان سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى قنچ أرسلان بن سليمان، وعلى الرغم من أن نفوذه قد امتد على الطريق الممتد من نيقية إلى قونية، وعلى الممرات

(١) السيد الهاز الرهنى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٩.

(٢) سعيد عاشور: «العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، ص ٧١.

الواقعة بشمال سلسلة جبال طوروس، فإنه لم يسيطر على كل آسيا الصغرى، ففى أرمينية استقرت جماعة من التركمان، وفى أرزنجان استقرت طائفة أخرى، وفى أقصى الغرب خضعت ميواس وأماميه وقيصريه وأنقرة لرجل من زعماء التركمان، أخذ لقب داتشمند الأمر الذى يدل على ما كان له من نفوذ روحى. وعلى هذا النحو قامت بآسيا الصغرى قوة من التركمان، دأبت على الإغارة فى آسيا الصغرى، تقابل قوة الأمراء السلاجقة التى تركزت إلى العناصر التركية فى داخل البلاد^(١).

ويمثل القرن الثالث عشر حقبة هامة فى تاريخ الشرق الأدنى، وخاصة فى آسيا، إذ شهد أنقلا ونفسخ سلطنة سلاجقة الروم، وتوغل المغول فى أملاكها.

وقد ظل المغول حتى القرن الثانى عشر يبنأى عن أحداث التاريخ العام باعتبارهم قوما رحلا أملت الظروف القاسية عليهم أن يعيشوا عيشة رعوية، وأن يتنقلوا فى هضبة منغوليا الواسعة من مكان إلى آخر، سعيا وراء المخب ولكلاً. وما أن وافت نهاية هذا القرن حتى أصبح المغول شعباً مقاتلاً من نوع فريد يفتقر إلى القائد الذى يستطيع أن يقوده، فكان ذلك القائد هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيزخان (ت ١٢٢٧م)، وقدر له أن يضع أساس أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ البشرية^(٢).

ثم كان أن بدأ جنكيزخان يوجه أنظاره إلى المناطق الخارجة عن نطاق المغول، وذلك بالتوسع فى الجنوب على حساب الصين. وفى ربيع عام ١٢١٤ هاجم جنكيزخان إمبراطورية الصين من عدة نقاط، والتحم مع الصينيين فى معركة حاسمة منقطت على إثرها مدينة بكين عاصمة كين الصينية فى سنة ١٢١٥^(٣). ولأنك أن مقروط عاصمة الصين فى أيدى المغول أحدث دوما هائلا، جاء إنذاراً للدول الإسلامية المجاورة، فى وقت كانت تعاني من الضعف والتخاذل والانقسام.

(١) الباز المرنى: للرجع السابق، ص ١٠ - ١١.

(٢) للوقوف على مزيد من التفصيلات، انظر للباحث كتاب: «العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول، القاهرة ١٩٨٦».

(3) Ratchnevsky (Paul) Genghis Khan, His Life and Legacy, trans. and edited by Thomas Divison Haining (U.S.A., 1992), pp. 113-114.

كان الغزو المغولي للعالم الإسلامي عتيفا شديد الوطأة، فقد ضرب المغول الأقاليم الإسلامية، وصالت الدماء على طول الطريق الذي ملكه جحافلهم إليها، وقامى المسلمون شتى أنواع العذاب والتكيل، وتجمع الروايات على أن غزوات المغول كانت مصحوبة بالمجازر البشرية، وتركت أبشع الآثار في النفوس. ومن المؤرخين المعاصرين الذين صوروا ما قاماه العالم الإسلامي وتحسر على ما أصاب الإسلام وكبار مدنه على يد المغول المؤرخ ابن الأثير، فقد قال في حوادث سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) تحت عنوان «ذكر خروج القتر (المغول) إلى بلاد الإسلام: «لقد بقيت عدة منين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيأيت أُمى لم تلدني. وباليتى مت قبل هذا وكنت نسبا منيا، إلا أنى حتى جماعة من الأصدقاء على تطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال إن العالم من خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقار بها ولا ما يدانيها.. وهؤلاء (المغول) لم يقوا على أحد، بل قتاوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإننا لله وأنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها، وسارت فى البلاد كالسحاب «استدبرته الريح».

وهذه الصورة المفزعة زحفت جيوش المغول على الجانب الشرقى من العالم الإسلامى، فى وقت وصل فيه هذا العالم - كما ذكرنا - إلى درجة بالغة من التفكك والضعف، جعلته يعجز عن صد سيل المغولى الجارف تحت قيادة جنكيزخان. وكان أن اختصر جنكيزخان نفسه بالهجوم على البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون، على حين عهد إلى قواده وأبنائه مهمة الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية، وكان جنكيزخان مثلا لوحشية الغزو البربرى، ويبدو ذلك واضحا عندما استولى على مدينة تجارى فى فبراير سنة ١٢٢٠^(١)، وسمرتند فى مارس من نفس العام. وأثبت تولوى ولد جنكيزخان أنه لا يقل وحشية عن أبيه، فقد أجهز على سكان مدينة خراسان عندما سقطت المدينة فى يده.

(1) I bid., pp.131-132.

فى فبراير سنة ١٢٢١، ثم انطلق تولوى إلى مرو عاصمة خراسان، فسقطت فى يده فى أبريل من نفس العام، وبعد أن أنى عليها تلقى أمراً من أبيه جنكيزخان الذى قرر العودة إلى منغوليا، ليلحق به عند مدينة الطالقان فى أعلى نهر جيحون.

وأخيراً وصل جنكيزخان إلى عاصمته قراقورم فى سنة ١٢٢٥ م بعد غياب دام ست سنوات، وشرع فى مقابلة أعدائه القدامى من القبائل المغولية والتركية، كما أعلن الحرب على إمبراطورية سونغ الصينية، واشترك فى هذه الحرب بنفسه رغم تقدمه فى السن، ولكنه مات فى ٢٥ أغسطس سنة ١٢٢٧ عن الثنين وصبعين عاماً^(١)، تاركاً خلفه إمبراطورية واسعة، تمتد من أقصى حدود الصين على شاطئى المحيط الهادى شرقاً، إلى قلب أوروبا وإلى عواصم المسلمين غرباً.

وبما يذكر أن الحركة التوسعية للمغول قد توقفت قليلاً عقب وفاة جنكيزخان، وانشغل المغول عن كل شىء بأحراهم الداخلية. وباعتلاء أوكتاي عرش الإمبراطورية المغولية سنة ١٢٢٩، توسعت الممتلكات المغولية بشكل لافت على حساب القوى الإسلامية والمسيحية.

وبهذا هنا أن المغول استغلوا فرصة النزاع الدائر بين سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى من جهة وبين المماليك^(٢) بحكام مصر والشام من جهة أخرى. فصار القائد المغولى يجزى فى عام ١٢٤٢ على رأس جيش بلغ تعداده ٣٠٠٠٠ جندي، مجهزين بالآلات القتال، قاصدين أرضروم، حيث التحموا بقوات غياث الدين كبخرو بن علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم، فلم يقر على الصمود أمام المغول، ومقطت المدينة فى أيديهم^(٣). وفى السنة التالية استعد غياث الدين كبخرو للقاء المغول، فكون جيشاً ضخماً من المسلمين والأرمن والكرج واليونانيين والفرنج، وساروا عن طريق البر، كما سار البعض عن طريق البحر، متجهين إلى أرمينية محاربة المغول، فالتقى الفريقان بموضع يسمى كومة طاغ (الجبل الأقرع) بالقرب من أرزنجان، حيث دارت معركة عنيفة فى ٢٦ يونيو سنة ١٤٣٢، أسفرت عن انتصار المغول، ودحر هذا الجيش غير المتجانس، وهرب غياث الدين إلى الحدود

(1) Ibid., pp. 140-142.

(٢) نؤاد عبد المطلب الصياد: المغول فى التاريخ، ص ١٨٢، الباز العربى: المغول، ص ١٧٨ - ١٧٩.

البيزنطية، ثم استولى المغول على سيواس وقيصريّة وخزبوهما، وفرضوا عليهما فى كل سنة أربعمئة ألف دينار^(١).

والواقع أنه كان لهذه المعركة أثر حاسم فى مصير الدولة السلجوقية، إذ وقع الأناضول بعدها فى قبضة المغول، وعندما رأى السلطان غياث الدين أنه لن يقوى على مواجهة المغول، أرسل لهم رسولا يعلن خضوعه، ويتمهد بدفع جزية سنوية لخان المغول. وهذا قضى على استقلال دولة سلاجقة الروم، وصارت تابعة للمغول. وكان أمراء السلاجقة يتولون الحكم بمراميم من قبل المغول^(٢).

وعلى الرغم من أن دولة السلاجقة فى آسيا الصغرى ظلت باقية حتى سنة ١٣٠٢ م فإنها لم تقف على وجه الإطلاق من الضربة الشديدة التى وجهها لها المغول فى كوسه طاغ، كما أن الغزو المغولى لم يحدث أى تغييرات عميقة فى الأناضول، وكل ما فعله أنه ساهم فى هجرة العديد من أتراك آسيا الوسطى إلى شبه جزيرة الأناضول فراراً من المغول أو سيراً فى ركابهم، ولم يحدث إلا تغييراً طفيفاً فى الحياة الاجتماعية أو الثقافية^(٣).

وقد أدى ضعف دولة سلاجقة الروم إلى نقل السلطة إلى أطرافها، حيث أخذت إمارات تركية صغيرة تعمل فى استقلال عن سلطة السلاجقة، ونعنى بذلك مهاجمتها لمناطق الثغور البيزنطية، وعجز السلاجقة عن الحيلولة دون مهاجمتها لتلك المناطق. ولعب الغزاة^(٤) (المجاهدون) دوراً أساسياً فى شن هذه الهجمات الجديدة، فى نفس الوقت الذى كان فيه الأولياء من المشايخ والدرابش - يقومون بدور هام فى التحريض على الجهاد ضد الدولة البيزنطية التى كانت قد وصلت إلى مرحلة بالغة الضعف. وما حلت أوائل القرن

(١) محمد فؤاد كوبرلى: قيام الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد السيد سليمان (القاهرة ١٩٩٣)، ص

٦٨، فؤاد الصياد: المرجع السابق، ص ١٨٢ - ١٨٣، إلياز المهنى: المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٢) فؤاد المهنى: المرجع السابق، ص ١٨٣.

(3) Langer & Blake, "The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background", pp. 486-487.

(٤) الغازى هو المدافع عن العقيدة الإسلامية، والحارب فى سبيلها، والغازى صيف الله، وحامى المؤمنين وملاذهم. ولو حدث أن استشهد الغازى فى سبيل الله، فإنه حتى لا يموت، كما جاء فى الآية الكريمة: «ولا تحسن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما أنعم الله من فضله».

الرابع عشر الميلادي، حتى كانت دولة صلاحقة الروم قد فقدت غربي الأناضول الذي توزع على عدد من إمارات الغزاة الأتراك، الذين قيص لإحدى دولهم وهي الدولة العثمانية أن تسعى إلى إقامة إمبراطورية عالمية^(١).

أصل الأتراك العثمانيين:

ينحدر الأتراك العثمانيون من حشود البدو الذين تجولوا في منطقة جبال ألتاي، شرق الانبس الأوراسية وجنوب نهر ينسى وبحيرة بايكال، وذلك في الأراضي التي تمثل حالياً جزءاً من منغوليا الخارجية Outer Mongolia. وهؤلاء البدو الألتائيون كانت لديهم حضارة بدائية قائمة على الحياة الجبلية والعادات، دون أن يكون هناك شكل للحكومة والقوانين التي تميز المجتمعات المتقدمة، وقامت حياة هؤلاء البدو واعتنقوا الشامانية^(٢).

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، أدت التغيرات السياسية والحربية والأحوال المناخية في المناطق الألتائية، إلى حدوث موجات بدوية متتابعة ضد الحضارات المستقرة الواقعة على حدود الانبس، وقد عرفت القبائل التي تحركت إلى الجنوب والغرب إلى شرق أوروبا، والشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، باسم الأوغوز Oguz فيما بينهم، وعرفوا بالتركان أو الترك عند الشعوب التي تعرضت لهجماتهم. وقد اجتاح الترك في طريقهم بحثاً عن مأوى لهم ولقطعان ماشيهم الشعوب المستقرة ودمروا المدن والحقول، وعندما استقر الترك صحوا للشعوب المستقرة التي بقيت حية أن تستعيد أوطانها وأنشطتها السابقة، ولهذا فإن الغزوات التي قام بها الترك، لم تترك أية تغيرات دائمة في الأنماط العرقية والاقتصادية^(٣).

ويحيط الفموض بأصل العثمانيين، وهي مشكلة شغلت أذهان الباحثين، وذلك لغياب المصادر المعاصرة والروايات المختلفة عن أحدهم. فلم تكن للعثمانيين سجلات مكتوبة عن الفترة السابقة على فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣، على حين أن البيزنطيين لا يشيرون بما يستحق الذكر إلى أصل العثمانيين، خاصة وأنهم لم تتوفر لديهم وسائل الحصول على

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفي، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٣ - ٢٤.

(2) Shaw (Stanford J.), Hist. of the Ottoman Empire and Modern Turkey (Cambridge, 1977), Vol. I, p. 9.

(3) Ibid., p. 2.

معلومات لها قيمتها. أما الكتاب الأوروبيون الأول فليست لمعلوماتهم أية قيمة من حيث اعتبارها انعكاساً لفكرة أوربا عن العثمانيين حين أصبحوا خطراً يهددها، هذا إلى أن المصادر العثمانية التقليدية لم تشر إلا قليلاً إلى العثمانيين قبل استقرارهم في الأناضول، كما أنها تتجاهل تاريخ الأتراك بوجه عام قبل اعتناقهم الإسلام^(١).

ومن الآراء التقليدية السائدة عند المؤرخين عن أصل الأتراك العثمانيين، أن زعيم قبيلة قايى وهى قبيلة تركمانية حكمت منطقة ماهان الصغيرة فى الجزء الشمالى الغربى من إيران فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى. ويقال إن سليحان شاه زعيم تلك القبيلة هرب من الزحف المغولى بقيادة جنكيزخان ومعه آلاف من الأتراك الآخرين، حتى لا يواجه الموت أو العبودية فى أيدي الغزاة الجدد القادمين من آسيا الوسطى، واستقر فى أخلاط الواقعة فى شرقى تركيا الحالية قريباً من بحيرة وان فى هضبة أرمنية. ولكن إقامته لم تدم طويلاً، فقد أراد سليحان شاه العودة إلى بلاده، فسار إلى قلعة جعبر، وأثناء عبوره مع عشيرته نهر الفرات مقط فى النهر وغرق فى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١) قبل أن يبلغ غايته. وعندئذ انقسم قومه بين أبنائه الأربعة، فقاد إثنان منهم معظم قومه عائدين إلى خراسان للدخول فى خدمة المغول، بينما تابع الأخوان الباقيان المسير غرباً إلى الأناضول، وتولى أرطغرل زعامة هذا الجزء من القبيلة. ويعنى إسم أرطغرل «الرجل ذو القلب الأيمن» The Right - Hearted man.^(٢)

ونقول الرواية التاريخية أن أرطغرل أبو عثمان الذى نسبت إليه الدولة العثمانية قاد جماعة صغيرة مؤلفة من حوالى أربعمئة فارس وعائلاتهم، وفى أثناء سير أرطغرل (١٢٣١ - ١٢٨١) وعلى غير المتوقع، شاهد معركة دائرة بين فريقين لايعرفهما، وكان أحد

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٧.

(2) Creasy (Sir Edward), Turkey, revised and ed. by Archibald Cary Coolidge and Harold Clavin (U.S.A. 1928), p. 9. Shaw, Hist. of the Ottoman Empire. Vol. I. p. 13, Langer and Blake, The Rise of the Ottoman Empire., p. 489, فؤاد كوبرلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٢١، أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٧ - ١٨.

الفريقين قد ضغط على الآخر بضراوة، فحث عثمان أتباعه على مساعدة الفريق الخاسر، وتم النصر لهذا الفريق. وتبين فيما بعد أن الجيش الذي جرى إنقاذه من الهزيمة المؤكدة كان بقيادة سلطان دولة الروم السلاجقة الأول علاء الدين كييقباز (١٢١٩ - ١٢٣٧)، فما كان من السلطان إلا أن كافأ أرطغرل بمنحه وقبيلته أرضاً كإقطاع على الحدود البيزنطية^(١)، في أقصى الحافة الشمالية الغربية للأراضي السلجوقية، على بعد أقل من خمسين ميلاً من بحر مرمرة، وأقل من مائة ميل من القسطنطينية نفسها. وعلى الرغم من أن تلك الرواية تحمل طابع الأسطورة، إلا أنها لم تكن دون فائدة، إذ أنها توضح لنا مدى الفوضى والظروف السياسية والاجتماعية الصعبة التي كانت تعانيها آسيا الصغرى في القرن الثالث عشر، وكيف أن القبائل التركية الرعوية كانت تشق طريقها وتؤسس لنفسها في آسيا الصغرى، الأمر الذي يجعلنا نؤكد تماماً أن السلطان السلجوقي رحب بأرطغرل وبقيّة الرعماء الأتراك الآخرين كحلفاء له لمقاومة ضغط البيزنطيين في الغرب والمغول في الشرق^(٢).

ومن الروايات الأسطورية التي وضعها المؤرخون لتعليل أصل العثمانيين وظهورهم واعتناقهم الإسلام، زواج عثمان أكبر أولاده أرطغرل بنت رجل صالح كان قد رآها مصادفة وعلق بها، ولكن أمي والدها أن يزوجه لها، فحزن عثمان لذلك، وأظهر الصبر والجلد، ولم يرغب الإقتران بغيرها، حتى قبل أبوها بعد أن قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة في بيت هذا الصالح، وهو أنه رأى القمر قد صعد من صدر هذا الشيخ، وبعد أن صار يدرأ نزل في صدره أي صدر عثمان، ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال، حتى غطت الأكوان بظلالها، ورأى أكبر الجبال تحتها، وخرج النيل ودجلة والدانوب من جذعها،

(1) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 35, Schevill (Ferdinand), The Hist. of Balkan Peninsula. From the earliest times to the Present day (New York, 1933) p. 176.

محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٣٩،

Langer & Blake, op. cit., p. 490.

(2) Ibid., p. 13.

ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فتغافل الشيخ من هذا المنام وبشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم، وزوجه ابنته^(١).

وعلى أية حال، فإن الأحداث التاريخية تثبت أن قصاً صغيراً من الغز المعروفين، قماي والذين وفدوا على الأناضول أيام الفتوحات السلجوقية، فأسكنوا في أماكن مختلفة منه، كان يعيش في أواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الأناضول على الحدود التركية البيزنطية، وكان يحارب جيرانه من البيزنطيين^(٢). ويرى البعض أن صلات العثمانيين بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول - وهي دولة إسلامية - كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة. وعلى ذلك فقد تحد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان^(٣).

قيام الدولة العثمانية:

ولما توفي أرطغرل في سنة ١٢٨١ انتقلت زعامة القبيلة إلى أكبر أبنائه عثمان (١٢٨١ - ١٣٢٤)، الذي انحصرت اهتماماته في تأسيس قواعد الدولة العثمانية وبداية توسعها بالتدريج على حساب البيزنطيين، مستغلاً الفوضى والإهمال المبطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول، وتجنب الدخول في نزاع مع جيرانه التركمان الأقوياء منه، حتى يأتي الوقت الذي تقرى فيه دولته ويشهد ساعدها بصورة كافية تمكنه من مواجهتهم، وقد بدأ عثمان فتوحاته، فتقدم خلال المرات من مناطق الحدود شمالى فريجيا بالقرب من دريلابوم (إسكى شهر ومعناها المدينة القديمة) إلى سهول يثينا الخصبة، وضد المسيحيين الإقطاعيين إلى الشمال^(٤). وفي حوالى سنة ١٣٠٠ م مكثه الانهيار النهائي للدولة الأتراك السلاجقة ووفاة علاء الدين الثالث آخر السلاطين السلاجقة بقونية، من الاستيلاء على

(١) القرمانى: أعبار الدول وآثار الأول ص ٢٩٧ - ٢٩٧.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٠، عهد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١ ص ٣٦ - ٣٧.

(٢) فؤاد كورملى: قيام الدولة العثمانية، ج ١ ص ٣٥.

(٣) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١ ص ٣٨.

(4) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, pp/ 13-14.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٠ - ٤١.

القلاع الحصينة لإسكى شهر وقره جه حصار التى تحكم فى الممرات المؤدية من هضبة الأناضول الوسطى إلى سهول بيثيا وجعلها قاعدة له. وما لبث أن استولى عثمان على أول مدينة عامة فى منطقته، وهى مدينة بنى شهر (ومعناها المدينة الجديدة)، وقد أصبحت العاصمة العثمانية ومقر ملكه وبداية عمية نقل أتباعه من الوضع البدوى إلى وضع أكثر تحضرًا، ولقب نفسه «هاد شاه آل عثمان» أى سلطان العثمانيين. ثم اجتاحت عثمان ومحاربه السهول الممتدة من لينجول إلى الضفة الشرقية من نهر سقاريا Sakarya، وبذلك لم يعد البيزنطيون قادرين على الاتصال بالقسطنطينية إلا بحرًا فحسب عن طرق ميناء مودانيا Mudanya والموانئ الأخرى الواقعة بحذاء ساحل بحر مرمره^(١).

ومن موقعه الحصين فى بنى شهر، قضى عثمان بقية عهده فى التوسع فى اتجاهين: شمال نهر سقاريا ناحية البحر الأسود، والجنوب الغربى تجاه بحر مرمره، وقد أنجز هدفه فى المنطقتين حوالى سنة ١٣٠٨ م، وبذلك عزل آخر مدينة بيزنطية هامة وهى مدينة برومة التى تقع جنوبى بحر مرمره عند سفح جبل أولوداج، بعد أن سقطت الأقاليم والحصون والقلاع الواقعة حولها، وأخيرًا فى ٦ أبريل سنة ١٣٢٦ سقطت برومة على أيدى جيش قاده ابنه أورخان، الذى كان آنذاك النائب الرئيسى لوالده فى الدولة وقيادة الجيش^(٢). ومن الثابت أن برومة لم تشهد قتالًا خارج أسوارها، فقادها اليونانى لم يلق أية مساعدة من الأباطرة البيزنطيين، فلم المدينة، وبلغ من استيائه لموقف الأباطرة أن اعتنق الإسلام وسلم لروته للعثمانيين. ونتيجة لذلك منح أورخان قائد المدينة اليونانى أفرينوس لقب بك، وحصار من مشاهير القواد العثمانيين، ولم يتعرض أورخان لأهل المدينة بسوء. وأسرع أورخان إلى سوكوند لينقل الخبر إلى والده الذى كان يوجد بأخرا نغاسه، فمر على تنويع حياته بالنجاح الذى أحرزه ولده، ودفن فى برومة العاصمة الجديدة للدولة الناشئة^(٣).

والواقع أن استيلاء العثمانيين على برومة كان خطوة هامة إلى الأمام بالنسبة لهم، فقد تحولت ممتلكاتهم من إمارة حدود يمكنها رعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود

(1) Creasy, Turkey, P. 15. Shaw, op. cit., Vol. I. p. 14.

(2) Osrogorsky, op. cit., pp. 501-502, Shaw, p. 14.

(3) Chevill, op. cit., p. 198.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٧، القرماتى: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٧.

وشعب مستقر، ووسائل تطوير جيش نظامى يدافع عن الدولة ووسع رقعتها، وإدارة تشرف على مهام الحكم. حدث هذا فى القوات الذى انغمس فيه البيزنطيون فى الفتن والحروب الأهلية، ونشبت المنازعات السياسية بين أفراد الأسرة البيزنطية الحاكمة، وبدأت تلك الأسرة تتجه نحو العثمانيين طلباً للمساعدة، وأصبح القادة الحريون العثمانيون مساندين للأباطرة البيزنطيين المتنافسين وكبار رجال الدولة، وأرسلوا بانتظام قوات كمرتزقة إلى القسطنطينية وترافقاً، حيث وقعت عيونهم على مدى ضعف بيزنطة من ناحية، واغتنام فرص الغزو على حساب البيزنطيين من ناحية أخرى^(١).

ومهما يكن من أمر، فقد كان لدى العثمانيين من الأسباب الوجيهة ما يدعوهم إلى اعتبار عثمان سلطانهم الأول. صحيح أن أرطغرل قادة عشيرته فى الأناضول، إلا أنه لم يحرز الاستقلال ولم يتعد كونه أميراً متواضعاً، أما عثمان فهو أول من راوده حلم إرساء قواعد دولة مترامية الأطراف، وبدأ السير فى طريق النصر الذى قيض لأسلافه أن يرتادوه. ورغم بساطة مظهر عثمان، فقد كانت طلته توحى بالهبة، وكان يطلق عليه إسم عثمان الأسود، وذلك على أساس أن اللون الأسود له احترامه فى الشرق باعتباره رمزاً لقوة الشخصية والحيوية الجسمانية. وقد انتقلت صفات عثمان «الأسود» الجسمانية إلى بضعة أجيال من أسلافه، فطيلة ما يقبل عن ثلاثة قرون لم يجلس على عرش العثمانيين سلطان لم يتحل بالشجاعة التى كانت من أبرز صفات الأتراك^(٢).

(1) Shaw, op. cit. Vol. I. p. 14.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى؛ المرجع السابق، ص ٣٨.

الفصل الثاني

إتساع الدولة العثمانية

- أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢).
- مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩).
- مناعب العثمانيين فى الأناضول.
- معركة كوسوفو (قرصوه).

أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢):

توفي عثمان في بروسة بعد أن أوصى بالملك من بعده لأورخان ثاني أولاده لما يتصف به من علو الهمة والشجاعة والإقدام، ولم يوص به لأكبر أولاده هلاء الدين لميله إلى الورع والمزلة^(١). ويعتبر أورخان أول أمير عثماني يحمل لقب سلطان، فهو «السلطان ابن سلطان الغزاة، والغازي ابن الغزاة، وحاكم الآفاق، وميد العالم، وشجاع الدين، واختيار الدين، وصيف الدين»^(٢).

وبعد ارتقاء أورخان العرش بوقت قصير تحرك تجاه بحر مرمرة، فأسرع الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثالث باليولوجوس (١٣٢٨ - ١٣٤١)، وقاد حملة ضخمة لصد الخطر العثماني، ولكن أورخان ألقي به هزيمة فادحة سنة ١٣٢٨، جعلت الإمبراطور يفر راجعا إلى القسطنطينية، وبعد ذلك تخلت الإمبراطورية البيزنطية عن بذل أية جهود لتنظيم المقاومة العسكرية في الأناضول أو تعزيز المدن البيزنطية الباقية لها هناك. ونتيجة لذلك استولى أورخان على معظم شبه جزيرة نيقية ومواحل خليج نيوميديا حتى بالوفا Yolava في الجنوب، وعزل مدينة نيقية، ثم استولى عليها في ٢ مارس سنة ١٣٣١ دون قتال^(٣)، ولعل هذا عو السبب في أن الرحالة المراكشي ابن بطوطة الذي زار نيقية بعد خمس أو ست سنوات يعصف أسوار نيقية بأنها سليمة لم تمتد إليها يد التلف. وباستيلاء أورخان على نيقية ثمانية المدن البيزنطية بعد القسطنطينية انتهى نفوذ الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى.

وخلال الستة سنوات التالية استولى أورخان على معظم الأراضي البيزنطية الباقية في الشمال الغربي من الأناضول بعد معاناة قليلة، وتوج جهوده بالامتلاء على نيوميديا (لزمست) في سنة ١٣٣٧ بعد حصار دام ست سنوات، وفي السنة التالية استولى على أسكودار (سكوتاري)، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية من أقوى الإمارات التركية في المنطقة، وازداد مركزها قوة باعتبارها زعيمة الجهاد ضد العدو (المسيحيين). وهنا نلاحظ أن

(١) محمد فريد: تاريخ الدولة العثمانية، ج١ ص ٩٤.

(٢) يلمسز أوزنوف: تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة د. محمود الأنصاري،

ج١ (استنبول ١٩٨٨)، ج١ ص ٩٤، بول كولوز: العثمانيون في أوروبا، ص ٢٩.

(3) Shaw, op. cit. Vol. I. p. 15, Schevill, op. cit., pp. 179-180.

طرايزون الواقعة فى الشمال الشرقى من الأناضول ظلت بيزنطية على الرغم أنها كانت مستقلة عن القسطنطينية منذ الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م)، وقد احتفظت بيزنطة بسيطرة مباشرة على الشريط الساحلى لغرب الأناضول من سايل Sila على البحر الأسود إلى سكوتارى، ومدينة أماستريس Amastris فى بافلاجونيا، ولكن تلك المدن كانت معزولة إلى حد بعيد، ومبعثرة بصورة تجعلها عاجزة عن تقديم أية مقاومة فعالة ضد العثمانيين^(١).

وعزز أورخان مركزه أيضا بالتوسع فى ساحل بحر مرمره، وذلك على حساب إمارتى عمرخان وقره سى، الأمر الذى جعل العثمانيين على مرمى البصر من جناق قلعة عبر الدردنيل فى شبه جزيرة غاليبولى. وقد استفاد أورخان من المنازعات الداخلية فى هاتين الإمارتين، وذلك بتحالفه مع أحد الأمراء، ثم التحول عنه إلى غيره، وفى نظير ذلك يأخذ أيضا من كل إمارة مكافأة له على الخدمات التى قدمها^(٢).

وفى حوالى منتصف عمره الطويل، وبعد أن أصبح سيداً على آسيا الصغرى، تخلت أفكاره عبر المضائق إلى أوروبا، أى نقل فتوحاته إلى أوربا، وتصور أفكاره عقلية فذة، وتتم عن نشاط رائع لرجل لم يقم بأى مجهود للتوسع شرقاً فى آسيا الصغرى، لوجود أمراء مسلمين بعضهم أكثر قوة منه، بل أسرع إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية التى لتتزع أورخان آخر ممتلكاتها فى آسيا الصغرى، وصارت أحوالها تدل على نهايتها القريبة؛ فالزراعة والتجارة غرقا فى كساد تام، وقلت الموارد، واختفت التقاليد المتبعة فى الجيش والإدارة، وفى العاصمة ازداد التنافس بين النبلاء حول مناصب الدولة، فى الوقت الذى أثبت الأباطرة ضعفهم الشديد. ولم يكن أورخان يتطلع وحده إلى الانقراض على ممتلكات الإمبراطورية، بل ظهر فى تلال مقدونيا ستيفن دوشان Stephen Dushan زعيم الصرب الذى أخذ يمعن النظر بدقة فى الفوضى التى ألمت بالإمبراطورية، وأخذ يفكر فى الاستيلاء عليها^(٣).

(1) Shaw, op. cit., p. 15.

(2) Shaw, pp. 15-16.

(3) Schevill, The Hist. of the Balkan Peninsula, pp. 182-183.

وعلى أية حال، ففى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، وفى نفس الوقت بالضبط، ضغطت قوتان نشيطتان من الشرق والغرب على الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة. وقد تصادف آنذاك أن دخلت الإمبراطورية فى حرب أهلية^(١). ذلك أنه لما مات الإمبراطور أندرونيق الثالث باليولوجوس فى سنة ١٣٤١ م، وخلفه فى الحكم ابنه يوحنا الخامس باليولوجوس تحت وصاية أمه آن صاحبة سافوى Anne of Savoy، اندلعت الحروب مرة أخرى فى الإمبراطورية، وكانت أهمها تلك التى شبت فى مدينة أفرنة (أدرباتوبل) وخاصة فى سالونيك. وتراكمت أسباب الفتن والحروب الداخلية، فبالإضافة إلى التنافس على العرش البيزنطى، شب النزاع بين العامة والنبلاء، وازدادت الأحوال الاقتصادية سوءاً مع قسوة جامعى الضرائب، فضلاً عن الفقر واليأس الذى عانى منهما البيزنطيون كثيراً^(٢).

وكان يوحنا الخامس باليولوجوس فى الحادية عشرة من عمره وتحت وصاية أمه عندما ورث عرش أبيه سنة ١٣٤١ م. ونشبت حرب أهلية طويلة للفوز بعرش الدولة البيزنطية لعب فيها يوحنا السادس كانتاكوزين John VI Cantacuzene دوراً هاماً، إذ أعلن نفسه إمبراطوراً فى إحدى مدن تراقيا، وأصبح هناك إمبراطوران فى الدولة البيزنطية^(٣). وقد استخدم كانتا كوزين المرتزقة من الصرب والأتراك من إمارة آيدين Aydin - بصفة خاصة - لمساعدته، وفى مقابل ذلك منح لممر بك صاحب آيدين بنهب مقدونيا والحصول على غنائم وفيرة، وبعد وفاة عمر بك إنهارت إمارته سريعاً، فتحول كانتاكوزين إلى أورخان طلباً للمساعدة ضد يوحنا الخامس، فوافق أورخان، خاصة أن كانتا كوزين وعده بتزويجه ابنته الجميلة نيومورا برغم اختلاف العقيدة والسن، إذ كان فى سن الستين وهى لاتزال قاصراً، واتفق على أن يتم الاحتفال بالزواج فى حفل باذخ فى مليميريا فى شهر يونيو سنة ١٣٤٦. وفى هذا العام قاد أورخان جيشاً بلغ عدده حوالى ٥٥٠٠ جندي إلى تراقيا، وغزا

(1) Ibid., p. 183.

(2) Lodge, The Close of the Middle Ages., p. 500.

حسنى محمد ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(3) Lodge, op. cit, pp. 500-501, Vasiliev (A.A.), Hist. of the Byzantine. Empire, (U.S.A., 1964). Vol. II, p. 584,

حسنى محمد ربيع: المرجع السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

الإقليم الساحلى للبحر الأسود شمال استانبول الحالية، أو لتزعه من آن صاحبة مافوى أم يوحنا الخامس والوصية عليه، ومكن كاتاكوزين من الحصول على العرش البيزنطى، حيث جرى تنويجه فى أدرنه فى ٢١ مايو سنة ١٣٤٧. وعندئذ أرسل كاتاكوزين ابنته ومعها المهر والهدايا لأورخان، وسمح لرجال الأخير بالإغارة على غاليبولى وتراقيا ونهبها دون معارضة^(١). وقد قام كاتاكوزين بنقل الكثير من البيزنطيين، وأخذ العديد أسرى، ودمر جميع ضواحي مدينة القسطنطينية، حتى وصل إلى بواباتها ودخلها بمساعدة بعض أعوانه فى ٣ فبراير سنة ١٣٤٧. وقد رفضت الإمبراطورة الرصبة آن أن تستلم، فأغلقت على نفسها القصر ومعها إبنها وقلة من الجنود، وعندما اقتحم كاتاكوزين القصر وجد الإمبراطورة جالسة مع ولدها غير وجلة ولامنزعجة، فحياهما كإمبراطور وإمبراطورة الرومان، ثم صرف الأتراك الذين كانوا يرفقته ومعهم الهدايا العديدة^(٢).

على أن محالفة كاتاكوزين للعثمانيين كلفت الثمن غاليا، فبعد الزفاف بقليل استغل الصربون^(٣) فرصة ضعف الدولة البيزنطية للتوسع على حسابها. فقد أضفى ستيفن دوشان ملك الصرب (١٣٣١ - ١٣٥٥) انطباعاً أخذاً على مواطنيه بقدرته وحضوره الفعال، وعبر الصربون عصره على مدى تاريخهم أعظم حقبة شهدها تاريخهم. فقد كون دولة

(1) Shaw, op. cit. Vol. I, p. 16., Ostrogorsky, op. cit., pp. 519-522; Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 9; Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 70-74, Vasiliev, op. cit. Vol II., p. 622.

(2) Doukas, op. cit., pp. 74-75.

(٣) كانت مملكة الصرب القديمة مجرد دولة صغيرة تابعة لبيزنطة، وكانت تشغل موقعا وسطا بين بيزنطة التى كتئت حدودها تضم مقدونيا الحديثة، والمجر التى كانت فى ذلك الوقت ما يعرف الآن بالبوستة وكروشيا والشاطئ الشمالى للديبوب، وبلغاريا التى كانت تضم وقتها نيس وأراض تابعة لها غربا. حتى أن تدهور بيزنطة فى القرن الثالث عشر سمح بإعادة تكوين صربيا بسرعة تحت حكم ستيفن دوشان الفعال، الذى اتخذ لنفسه لقب قيصر الصرب والإغريق، وألحق بحكمه كلا من مقدونيا وتراقيا وأيبروس وساليا، وجعل من بلغاريا كيانا تابعا، وصل بحدود مملكته إلى سواحل البحر المتوسط المواجه لكورفو، وإلى بحر إيجة عند سالونيك. وقد أرسى دوشان دعائم نظام سياسى ودينى على النمط البيزنطى، وأعاد تنظيم الكنيسة الصربية، وتوج صرحه الإمبراطورى بإعلان مجموعة قوانينه الشهيرة التى عرفت بتشريعات دوشان فى سنة ١٣٤٩. أنظر كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ٢٠ - ٣١.

قوة فى الداخل، وبدأ فى تنفيذ سياسة خارجية شجاعة. وكان هدفه الرئيسى من تلك السياسة هو الاستيلاء على القسطنطينية^(١). وفى حوالى سنة ١٣٤٥ استطاع دوشان بمساعدة المرتزقة الاستيلاء على مقدونيا كلها، وإن كانت سالونيك قد نجحت فى التخلص من الوقوع فى قبضته، ولكن قلعة أهرهد الكبيرة ومدن فالونا وبيرات (بلغراد) Berat وسيريز Seres وقعت فى أيديه. وتقليداً للإمبراطورية البيزنطية خلع دوشان على نفسه ألقاباً عالية مثل قيصر، وفى عيد الفصح فى سنة ١٣٤٦ توج دوشان فى احتفال عظيم فى مكوبلى «إمبراطور الصرب والإغريق» وصرعان ما تفضم هذا اللقب إلى «إمبراطور وأتوقراط الصرب والإغريق»^(٢). وفى سنة ١٣٤٩ انتزع دوشان سالونيك من البيزنطيين، وعندئذ طلب كانتاكوزين المساعدة من السلطان العثمانى أورخان، فأرسل الأخير ابنه سليمان على رأس جيش بلغ تعداده عشرين ألف رجلاً، وبمساعدة الأسطول البيزنطى أجبر سليمان الصرب على الارتداد، وأعاد سالونيك للبيزنطيين^(٣).

وفى الصراع الذى تجدد بين يوحنا الخامس باليولوجوس وكانتاكوزين فى سنة ١٣٥٢ اعتمد باليولوجوس على الصرب وبلغاريا، فلم يكن أمام كانتاكوزين مفر من طلب النجدة من أورخان، فأرسل الأخير ابنه سليمان إلى الشاطئ الأوروبى على رأس عشرة آلاف جندى وبفضل مساندة سليمان استطاع كانتاكوزين أن يتغلب على خصمه. وفى نظير ذلك أعطى كانتاكوزين العثمانيين قلعة تزيجب الواقعة على مضيق الدردنيل لانتهازها قاعدة ينطلقون منها عند ما يحتاج إليهم كانتاكوزين. ولكن سليمان خرج فى سنة ١٣٥٤ من تزيجب واتجه شمالاً، واستولى على مدينة غاليبولى، التى أصبحت أولى قاعدة عثمانية فى أوروبا. وعندئذ احتج كانتاكوزين بشدة على ما قام به سليمان من فتوحات فى أوروبا، فأجابه أورخان أنه لا يستطيع أن يتنازل عن غاليبولى أو الأراضى التى تم فتحها فى

(1) Darby (H.C.), Seton - Watson (R.W.), Auty (Py yllis), Iaffan (R.G.D) and Clissold (Stephen) Ed. by Clissold (Cambridge, 1966) pp. 96-97.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 41; Clissold, ed. op. cit. pp. 97-99, Shaw, op. cit., Vol. I., p. 16.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I, Stavrianos, op. cit., p. 41.

تراقيا، على أساس أن الشريعة الإسلامية لا تجيز تسليم الأراضي التي جرى الاستيلاء عليها من العدو^(١). وتذكر الروايات العثمانية أن القلاع البيزنطية في غاليبولي بما فيها تريمب، قد أصابها زلزال مروع في ٢ مارس ١٣٥٤، ومجرها أهلها، وولوا عنها هاربين، الأمر الذي سهل على العثمانيين دخولها بغير حرب ولاقتال، وأصلحوا قلاعها، وعندما احتج الامبراطور البيزنطي، رد عليه أورخان بأنه لا يستطيع أن يغادرها، لأن الله أراد بهم خيراً فمهد السبيل للاستيلاء عليها، ولا يستطيع أن يسلم ما منحه الله له. على أية حال، أصبحت غاليبولي أول قاعدة عثمانية ثابتة في أوروبا، راحت تنطلق منها الحملات العثمانية لغزو كانتاكوزين لتعاونه في السنوات التالية^(٢). وإذا كان المؤرخون قد اعتقدوا كانتاكوزين لتعاونه مع الأتراك، وأخذوا عليه أن دعواته هي التي أسرعت بمجيء العثمانيين إلى أوروبا، فقد نسي هؤلاء المؤرخون أن العثمانيين كانوا سيتوجهون إلى أوروبا بمحض إرادتهم ودون أن يدعوهم إليها أحد^(٣).

قام سليمان بعدة غزوات في تراقيا، ووصل إلى مدن تشورلو Corlu، لوليورجاز Lu-Ielrigas وملاقرا Malkara، وتيكرداج Tekirdag وقام بنهبها، وبذلك شيد قواعد متقدمة ينطلق منها للتوسع والقيام بغزوات أخرى أكثر عمقا. وسرعان ما أحس كانتاكوزين بالخطر الذي يهدد دولته من دعوة العثمانيين إلى أوروبا. فحاول الحصول على مساعدة من الصرب والبلغاز ضد حلفاء العثمانيين لتحويلهم عنه وانصرافهم إلى تحقيق مكاسب جديدة على حسابهم، ولكن قيامه بإحضار العثمانيين إلى أوروبا، جعل الأهالي في القسطنطينية يرون أن سياسته هي التي بدأت بتسليم أرض مسيحية إلى المسلمين العثمانيين، وزاد في حرج كانتاكوزين أن بطريك القسطنطينية أثار مسألة بيع الإمبراطور أملاك الكنائس لإرضاء أورخان. ونتيجة لذلك تمكن منافسه في القسطنطينية من عزله عن العرش في أواخر سنة ١٣٥٥، ودخله أحد الأديرة قضى منه بقية حياته، وتفرد يوحنا الخامس باليولوجوس بحكم الإمبراطورية البيزنطية في سنة ١٣٥٨ م^(٤).

(1) Shaw, op. cit., Vol. 1. p. 16, Ostrogorsky, op. cit., pp. 529-531.

(2) Shaw, op. cit., pp. 16-17, Lodge, op. cit., 502, Halil Inalcik. The Ottoman Empire., pp. 9-10.

(3) Stavrianos. The Balkans since 1453, p. 43.

(4) Shaw, op. cit., Vol. 1. p. 17.

وما يجدر ذكره أن كاتاكوزين كانت له علاقات بالبابوية، وخاصة مع البابا كليمنت السادس (١٣٤٢ - ١٣٥٢)، وكان كاتاكوزين يأمل أن يسمح البابا بانضمام البيزنطيين إلى تحالف القوى الأوروبية، حتى ولو كان هدفها في النهاية هو استعادة الأراضي المقدسة، وليس حماية القسطنطينية من الخطر العثماني. ولكن الإمبراطور البيزنطي فشل في محارلته، إذ أصر البابا على أن الإغريق ينبغي أن يعود إلى قبضة روما، وأن ينكروا الشقاق الديني، ويهربون عن آثامهم. ولكن كاتاكوزين كان مرتبطا بالتقاليد والعادات البيزنطية، ولم يقدم أية تنازلات، وأعلن أنه سوف لا يتوصل للبابا مثلما فعل الإمبراطور ميخائيل الثامن (١٢٥٩ - ١٢٨٢) (١).

وفي نفس الوقت كانت القوة العظمى الوحيدة في شرق أوروبا القادرة على رد الأتراك العثمانيين إلى آسيا الصغرى هي إمبراطورية صربيا، التي صار زعيمها ستيفن دوشان أقرب ما يكون إلى تحقيق حلمه الرامي إلى السيطرة على القسطنطينية. لكنه مات فجأة في سنة ١٣٥٦، ولم تلبث أن تفسخت إمبراطوريته الواسعة بعد وفاته مباشرة وصارت ولايات متنازعة، مثلما حدث لإمبراطورية الإسكندر الأكبر بعد وفاته سنة ٣٢٣ ق.م. وعندئذ رأى الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس أن الأمل الوحيد في إنقاذ إمبراطوريته من الخطر العثماني يكمن في استعراخ ضمير المسحيين في الغرب الأوربي. وقد ساعده على ذلك أمه أن أميرة صافوي، حيث اتصل من خلالها بممالك عديدة في الغرب الأوربي. ولكن البابا هو الذي وجه الدعوة للغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين. ففي ١٥ ديسمبر سنة ١٣٥٦، أُرِى في نفس الأسبوع الذي مات فيه دوشان، كتب الإمبراطور الشاب إلى البابا إنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢) يطلب منه إرسال أسطول وجيش إلى القسطنطينية. وفي المقابل وعد الإمبراطور بتحويل البيزنطيين إلى المذهب الكاثوليكي، وإرسال ابنه ماتويل رهينة إلى البلاط البابوي في أفينيون Avignon (حيث كان يوجد البابا آنذاك تحت سيادة الملك الفرنسي)، ولكن البابا لم يأخذ تلك الوعود مأخذ الجد، وأصدر تعليماته إلى نائبه بيتر توماس الذي كان موجوداً آنذاك في صربيا، بالتوجه إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور والتفاوض معه. والحقيقة أن تحالف

(1) Nicol (D.M.), The End of the Byzantine Empire (London, 1979), p. 58.

القوى المسيحية قد أعيد تفكيكه في سميثنا Smyrna، ولكنه أغفل البيزنطيين للمرة الثانية^(١). ولهذا اضطر يوحنا الخامس باليولوجوس إلى الاعتراف بكل فتوحات أورخان في أوروبا في مقابل أن يسمح أورخان بتسهيل وصول اللؤلؤ إلى القسطنطينية، فوافق أورخان وبدأ في إرسال أعداد ضخمة من الرعاة التركمان في الأناضول إلى تراقيا «لترهكها»، ومنع تكوين أى مجهود مسيحي لطرد المشمانيين من أوروبا^(٢).

وهنا تكرر القول إن عبور المشمانيين للدردنيل واستيطانهم أراضى أوروبية كان أمراً حاسماً في تحول الدولة العثمانية من إمارة حدود صغيرة وغير هامة، إلى إمبراطورية تضم البلقان وآسيا الصغرى. ويعود الفضل إلى سليمان ابن ثانى السلاطين العثمانيين أورخان في إقامة أول مستوطنة عثمانية في أوروبا^(٣). وكان أورخان يرى في ابنه سليمان شخصية عظيمة تخلفه في حكم الدولة العثمانية تحقق الأمجاد للبيت العثماني، ولكن سليمان مات قبل أبيه سنة ١٣٥٨، إذ مقط من ظهر جواده أثناء قيامه برحلة صيد وعمره واحد وأربعون عاماً، فحزن أورخان لذلك أشد الحزن^(٤). ولا يعرف تاريخ موته على وجه الدقة، فبعض الروايات تقول إنه مات في سنة ١٣٥٩، والبعض يحيل إلى أنه توفي سنة ١٣٦٢، ودفن في بروصة.

مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩):

توفي أورخان وخلفه ابنه مراد، الذي اتخذ نفس سياسة أبيه في غلببولي الرامية لغزو تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وصربيا، ولذلك؛ يحبر المؤرخ الحقيقي لأول إمبراطورية عثمانية في أوروبا. وكان الوضع في أوروبا مناسباً تماماً لاحت الدولة العثمانية على مزيد من التوسع والفتوحات في أوروبا. فبلغاريا وبيزنطة كانتا في مراحل متقدمة من التأخر والضعف،

(1) Ibid., pp. 58-59, Eliot (Sir Charles), Turkey in Europe.

(2) Shaw, opcit., Vol. I, p. 17.

(٣) خليل إيتالوك، «الدولة والرهابة» ترجمة عبد اللطيف الحارس، مجلة الإجتهد، السنة الحادية عشرة، عدد ٤١، ٤٢ سنة ١٩٩٩، ص ٨١.

(4) Creasy, Turkey., p. 28.

والإمبراطورية الصربية التي بناها ستيفن دوشان^(١) تمزقت بعد موته في سنة ١٣٥٥ كما ذكرنا، كما أضعفت الانقسامات الداخلية الإمارات اللاتينية في اليونان والمورة، أما الجزر الإليجية فقد كانت تخضعها الأسر الإغريقية والبنادقة والجنوية وفرسان القديس يوحنا في رودس، الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على التعامل ضد العثمانيين^(٢).

وبلاحظ أن مراد الأول وحلفاءه تحاشوا القيام بأعمال حرية ضد القسطنطينية كما فعل أورهان، وأبقوا عليها سليمة تحت الحكم البيزنطي لمدة قرن تقريباً، وذلك لأن العثمانيين كانوا مشغولين بعد نفوذهم في أوروبا. حدث هذا على الرغم من ضعف البيزنطيين وضعف جيشهم ودفاعاتهم، ولكن أرضهم الوعرة وأسوار البحر، جعلت من الصعب على العثمانيين التغلب عليهم. ويتفق ألا ننسى أيضاً أن الجيش العثماني كان يضم بعض المشاة، ولكن قاعدته كانت تقوم على قوة الفرسان التركمان، الذين لم يكونوا جاهزين آنذاك لاجتياح مدينة حصينة منيعة مثل القسطنطينية^(٣).

وعلى أية حال، بدأ مراد الأول في توسيع دائرة نفوذه في أوروبا على حساب البيزنطيين، وكنت أدركه (أرمينويل) الهدف الأول الذي وضعه نصب عينيه للوصول إليه. وقد سبق لمراد التحرك في راقيا عندما خلف أخيه سليمان في قيادة القوات العثمانية في أوروبا خلال السنوات الأخيرة من حكم أبيه أورهان. ولكن مراد لم يلبث أن اضطر للذهاب إلى الأناضول لاعتلاء عرش الدولة العثمانية من ناحية، وللإستيلاء مرة أخرى على قونية

(١) خلف ستيفن دوشان ابنه الوحيد ستيفن أروش الخامس Stephen Uroo V الذي عاش حتى سنة ١٣٧١. وفي عهده تمزقت الإمبراطورية الصربية إلى فدرات، واستقلت المناطق المختلفة للإمبراطورية من السلطة المركزية، فبالأصل أصبحت مستقلة تحت حكم سيميون أروش هم الإمبراطور الجديد، ودخلت ليروس في منازعات ونقضتها عائلات مختلفة تحت حكم زعماء محليين، كان أعظمهم أهمية لوكاتين حاكم بريليپ Prilep. وفي الغرب في زتيا أصبح بيت بالسا Balsa مستقلاً وأسس ولاية مونتيجرو، وأخيراً حكم الجزء الشمالي نيبلا يدهي لازار هربليانوفتش، وقد اختفت السلطة المركزية في عهد ستيفن أروش الخامس. أنظر:

Clissold (Editor), A Short Hist. of Yugoslavia., p. 99.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire. VI. I, P. 17.

(3) Ibid., p. 17.

عاصمة إمارة قرمان^(١)، من ناحية أخرى. وفي تلك الأثناء انتهز البيزنطيون فرصة غياب مراد عن أوربا، واستادوا معظم المدن التراقية التي استولى عليها أورخان، كما بذلوا بعض الجهد لتوحيد المسيحيين الموجودين في المنطقة ضد العثمانيين^(٢). على أنه بعد أن استقرت الأمور لمراد في الأناضول عاد مسرعاً إلى أوربا، واستولى على أدرنة عاصمة تراقيا البيزنطية في سنة ١٣٦١ م، واتخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى سقوط القسطنطينية. وتعتبر تلك المدينة أهم مدينة للإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، فهي أقوى حصن بين القسطنطينية والدانوب، وتسيطر على الطريق المؤدى من العاصمة البيزنطية إلى جبال البلقان، وكانت مركز الجيش البيزنطي والأنظمة الإدارية في البلقان، وقد استخدمها العثمانيون قاعدة للانطلاق، ومقاومة أى جهد مسيحي لدفع العثمانيين خارج أوربا^(٣). ونتيجة لذلك أصبحت القسطنطينية معزولة عن باقى أجزاء الدولة البيزنطية، قابضة خلف أسوارها، وبانت تتنظر الضربة الكبرى الأخيرة التي كان لا مفر من وقوعها^(٤).

وقد نبعت الغزوات في تراقيا نفس النهج الذى سارت عليه في الأناضول. ففى مواجهة غزوات المجاهدين (الغزاة) المستمرة، هرب الإغريق المحليون إلى القلاع. أما سكان المدن الذين خضعوا طواعية للعثمانيين، فقد تركوا دون أذى، ولو حدث أن عارض بعض

(١) بينما كانت دولة سلاجقة الروم آخذة فى الاضمحلال، كانت قوى تركية جديدة آخذة فى التبلور فى المناطق الملاصقة بالأناضول، وأندم هذه القوى وأخذها بأساس هى دولة ألبان قرمان التى قامت فى غربى قسطنطينية وتحت إمرته عاصمة لها، وقد فتح بلادها علاء الدين كيقباد الأول. وفى سنة ١٢٦١ زحفت هذه الإمارة على قونية بحجة الدفاع عن عز الدين كيكاوس، ولكنها انتهزت أمام القوات السلجوقية والمغولية. وفى سنة ١٢٧٧ إستغل القرمانيون الاضطراب السائد فى البلاد، واستولوا على قونية، ولكنهم هزموا أيضاً على يد السلاجقة والمغول، وعلى الرغم من هذه الهزائم المتتالية، فإن القرمانيين الذين لم ينقطع عنهم عون المحالين فى مصر كانوا يزدادون قوة ونفواً، وقد زعموا بعد سيطرتهم على قونية أنهم دولة الإمبراطورية السلجوقية. وقد عظم شأن هذه الإمارة التى كانت قونية قد صارت عاصمة لها، وأصبحت دولة قوية. أظهر فؤاد كوبرهلى: قيام الدولة العثمانية، ص ٧١ - ٧٢.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, PP. 17-18, Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 10.

(3) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine State, p. 536, Shaw, op. cit., Vol. I p. 18.

(4) Diehl (Charles), Hist of the Byzantine Empire., p.163.

السكان، فقد كانوا مضطرين لترك المدينة للإتراك. وشجعت الحكومة العثمانية الأتراك من الأناضول على الهجرة، وفي بعض الأحيان فرضت عليهم الترحيب الجبري، وذلك للاستقرار في الأراضي الجديدة التي قام العثمانيون بفتحها حديثاً. كذلك أسس الدراويش الزوايا، التي صارت فيما بعد نواة لقرى جديدة. وقد تبع الاستيطان التركي لفتوحات في تراقيا، خالفا قاعدة قوية لانتشار العثمانيين في أوروبا^(١).

وعلى أية حال، فمن موقعه الاستراتيجي الجديد، استولى السلطان مراد الأول على فيلبروليس في سنة ١٣٦٣، الأمر الذي مكّنه من السيطرة على وادي نهر ماريتزا Maritsa بالقرب من أدرنة، الذي يمد القسطنطينية بكثير من القمح والأرز، فضلا عن الضرائب الهائلة التي ترد إلى خزانة الدولة. وقد استطاع مراد بفضل موقعه الجديد أيضا عزل البلغاريين عن الإغريق الذين كانوا يقاومون قواته بحذاء الساحل الإيجي^(٢). ومن ثم اضطرت بيزنطة إلى الاعتراف بنوع من التبعية للسلطان، ووقعت معاهدة في سنة ١٣٦٣م، أكدت فيها كل الفتوحات العثمانية في أوروبا، كما أقرت بعدم الوقوع في أية مؤامرة مع أمراء البلقان ضد السلطان. وفي مقابل ذلك حصلت بيزنطة على تأكيد من مراد بعدم شن هجوم على القسطنطينية، وتزويدها بما تحتاجه من مؤن وطعام، وبذلك صار مراد قادراً على التحرك دون أن يساوره أى قلق على مؤخره^(٣).

وبما يجدر ذكره أن استيلاء العثمانيين على أدرنة شجع صربيا والمجر (هنغاريا) على عقد تحالف بينهما ضد السلطان العثماني مراد الأول. وفي عام ١٣٦٤م زحفت جيوشهما تجاه نهر ماريتزا، لدفع الأتراك خارج أوروبا، قبل أن يتأخر الوقت وتضيع الفرصة نهائياً. بيد أن مراد نصب كميناً للجيوش المتحالفة على ضفاف هذا النهر بالقرب من أدرنة، حيث دارت معركة معروفة في تاريخ الأتراك العثمانيين باسم «هزيمة الصرب الساحقة» Rout of the Serbs، غرق فيها كثير من الجند والأمراء أثناء محاولتهم عبور النهر مباحة لإنقاذ أنفسهم، وقد استطاع لويس الكبير ملك المجر الهروب بصعوبة بالغة^(٤). ولذلك عند عودته

(1) Halil Inalcik, op. cit., p. 10.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire. Vol. I. p. 18.

(3) Ibid., p. 18.

(4) Ibid., pp. 18-19. Stavrianos, op. cit., 43, Creasy, Turkey, p. 29.

إلى بلاده شيد كنيسة لمرضة السيدة مريم، إظهاراً لشكره على نجاته^(١). ولا شك أن الانتصار الذي حققه مراد على أعدائه، شجعه على التقدم فى أراضيهم.

وفى نفس العام (١٣٦٤) صعد الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس أن البابا أوربان الخامس (١٣٦٢ - ١٣٧٠) يدعو إلى حملة صليبية جديدة. ومن الذين حملوا الصليب ابن عمه أماديوس السادس كونت مافوى Amadeo of Savoy ولويس الكبير ملك المجر^(٢). وفى تلك الأثناء انتهز بطرس الأول لوزجنان (١٣٥٠ - ١٣٦٩) ملك قبرس، الذى امتاز بحماسة الشديدة للأعمال الصليبية، فرصة ضعف دولة المالك الجراكسة، وغلو الإسكندرية من وسائل الدفاع والحماية، فقاد حملة فى أكتوبر سنة ١٣٦٥ إلى الإسكندرية وهاجمها فور وصوله، وأعمل القتل فى أهلها أسبوعاً كاملاً دون تمييز بين مسلم ومسيحي، ونهبها، وضرب رجاله المساجد والزوايا وحرقوها، واعتدوا على النساء والفتيات. ثم عاد محملاً بالأسرى والغنائم^(٣). قبل أن يدركه الجيش المملوكى. وقد عاب المؤرخ النويرى الإسكندراني^(٤) على بطرس لوزجنان أنه أتى إلى الإسكندرية «على حين غفلة من حمائها»، فدخلها وسرقها كاللص، وهرب منها خوفاً من وصول جيش السلطان لو أدركه بها.

وعلى الرغم من أن تلك الحملة الصليبية كان هدفها مصر وأرضت الغرب الأوروبى، إلا أن الآمال التى وضعها الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس فى تلك الحملة قد تحطمت، وذلك لانحراف مسارها الرئيسى المتمثل فى طرد العثمانيين من أوروبا، ولكنه كان مليئاً بالنشاط، فحول أنظاره إلى المجر أقرب جارة كاثوليكية لبيزنطة، ووضع أمله فى ملكها لويس الكبير، باعتباره صليبي ملتزم، وبامتداعته التحرك لمساعدته ضد العثمانيين^(٥). ولذلك أبحر الإمبراطور البيزنطى ومعه إثنان من أبنائه إلى المجر فى شتاء سنة ١٣٦٦، وللمرة

(١) بلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ ص ٩٨.

(2) Osrogorsky, op. cit. p. 537. Nicol, The End of the Byzantine Empire., p. 59

(٣) النويرى الإسكندراني: كتاب الإعلام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية، ج ٢، ص ٦٤ - ٦٥، بدائع الزهور: ج ١ القسم الثانى، ص ٢٢ - ٢٣.

(٤) كتاب الإعلام بالإعلام، ج ٣ ص ٦٥ - ٦٨.

(5) Osrogorsky, op. cit., p. 537. Nicol, pp. cit., p. 59.

الأولى يدخل إمبراطور بيزنطى بلد أجنى، ليس كقائد على رأس جيشه، بل متوسلاً يبحث عن المساعدة، ولكن طلبه لم يلق قبولا، إذ طلب منه ملك المجر أن يغير عقيدته إلى الكاثوليكية، وأن يعيد تعميده نفسه طبقاً للطقوس الكاثوليكية^(١). وما يجدر ذكره أنه لم يحدث من قبل أن إمبراطورا بيزنطيا قد أهان كبرياءه وعظمت من أجل لتودد للملك أجنى، إذ كان من المعتاد أن يأتي الملوك والأمراء إلى إمبراطور القسطنطينية، ومن هنا لم يحافظ يوحنا الخامس على هيئته وكرامته، ووضعت رحلته إلى المجر صابغة سار عليها من جاء بعده من الأباطرة. وعلى أية حال، كانت المهمة التي قام بها الإمبراطور إلى المجر متواضعة إلى حد كبير، ولم سفر عن شيء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جرى احتجاز الإمبراطور في بلغاريا في منطقة الحدود الواقعة بينها وبين المجر، ولم يسمح له البلغاريون بالسفر خلال أراضيهم، وهكذا وقع الإمبراطور أسيراً في أيدي جيتراته المسيحيين^(٢).

ولم تلبث أن قامت أوروبا بجهود واسعة لتنظيم المقاومة ضد الأتراك العثمانيين. فقد أدت نتائج حادث الإسكندرية سنة ١٣٦٥ إلى ضرورة قيام حرب صليبية أخرى، وسرعان ما انتشرت أخبار ذلك النصر الرقعى الذى حققه ذلك الحادث من فى الغرب. الأوروبى كما حدث فى الممالك الصليبية التى قامت فى الشرق من قبل. وعندئذ أمر البابا أوربان الخامس جميع المخلصين للصليب بالقيام بمثل حملة الإسكندرية حتى يصلوا إلى نصر محقق فى نهاية الأمر. وكان أكثر الجميع تجاوبا بهمة وجد أمادىوس السادس كونت سافوى الذى تناول الصليب من قبل من يد البابا نفسه^(٣).

وكان أمادىوس كونت سافوى قد وطد العزم على المضى إلى الأراضى المقلمة، غير أنه كان أين عم شقيق للإمبراطور يوحنا الخامس، وكان يود أن يساعد، فغير مسار حكمه الصليبية وحشد نخبة ممتازة من جيشه الإقطاعى، وخرج فى يونيو عام ١٣٦٦، ولحق به

(1) Ostrogorsky, pp. 537-538.

(2) Nicol, The End of the Byzantine Empire., p. 59.

(٣) عزيز سوربال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٩١ - ٩٢، ربحان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ ص ٧٥٩ - ٧٦٠، زيدة عطا: بلاد الشرق فى المصور الوسطى (القاهرة بدون تاريخ)، ص ١٦٦ - ١٦٧.

Pears (Edwin), The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Constantinople by the Turks. (New York), pp. 90-91.

جيش من الجنود المرتزقة من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، والتفوا به فى كورن فى شبه جزيرة المورة، حيث أبحرت خمس عشرة سفينة حربية إلى غاليبولى التى كانت فى حوزة العثمانيين منذ حكم السلطان أورخان، وقد اتخذتها هدفها الأول، وهى عاصمة القدر باعتبارها ميناء ينزل فيه الجنود، وقاعة لعمليات التوسع فى شبه جزيرة البلقان. وقد فاجأ الصليبيون حاميتها، فسقطت فى أيديهم فى ٢٣ أغسطس من نفس العام، وكان استردادها لطمعة قاسية للأتراك^(١).

على أن أماديوس واصل السير بهراً إلى القسطنطينية بدلا من الهبوط فى تراقيا لتطهير الإقليم من الأتراك، وهناك بين له أن ابن عمه الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس قد وقع غدرأ فى أمر ملك بلغاريا شيشان الثالث، ولذا وجه أماديوس كل جهده لإنقاذ ابن عمه، ولم يتحقق تخليصه إلا بعد أن هاجم أماديوس ميناء فارنا البلغارى. ولما تم إنقاذ الإمبراطور اكتشف أماديوس أنه أنفق كل ما لديه من المال، بما فى ذلك المال الذى ابتزّه من السكان المحليين، فكان لزاما عليه أن يعود إلى وطنه، وفعلا عاد إلى وطنه فى سنة ١٣٦٧. وتكاد تكون حملته الصليبية عديمة القيمة، إذ أن الأتراك استولوا من جديد على غاليبولى عقب رحيله^(٢). غير أن المؤرخ نيقول Nicol^(٣) يذكر أن استعادة غاليبولى كانت أعظم خدمة قدمها أماديوس، فقد ظلت فترة تحت سيطرة البيزنطيين، توقف الأتراك خلالها عن إرسال تعزيزات أخرى عبر المضيق إلى أوروبا، وكان من الممكن أن يحدث تعاون بين المسيحيين فى الغرب الأوروبى، من شأنه أن يحول اتجاه المد العثمانى إلى أوروبا، ولكن هذا التعاون لم يحدث أبداً.

ومهما يكن من أمر، فإن العثمانيين آنذاك كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تراقيا وتأمين وضعهم فيها. ولذلك قام السلطان مراد بترحيل عدد ضخم من التركمان إلى الأقاليم البلقانية التى تم فتحها حديثاً، ليضمن سيطرته عليها من جهة، والحصول على خدماتهم كقوات جاهزة فى الأقاليم التى كانت المقاومة المحلية قوية بها من جهة أخرى.

(١) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ ٢، ص ١٧٦ - ١٧٧، هنز سويبال: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) هايد: المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٧٧، رنيمان: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٦٠.

(٣) The End of the Byzantine Empire., p. 61.

وعلاوة على ذلك بدأ مراد تنفيذ سياسة نقل كثير من الفلاحين المسيحيين من البلقان وتوطينهم في الأناضول وضواحي أدرنة لكي يضمن طاعتهم^(١). وقد تنبع العثمانيون سياسة التسامح الديني التام الذي يستند إلى الشريعة الإسلامية تجاه أهل الذمة اليهود والمسيحيين، وأعفواهم من الخدمة العسكرية في مقابل دفع الجزية التي كانت تنفق على القوات المسلحة، وبسبب ذلك تحول بعض المسيحيين إلى الإسلام حتى ترفع عنهم الجزية^(٢).

ومن الملامح الرئيسية لسياسة السلطان مراد الأول في أوروبا، أنه كان مثل سلفيه عثمان وأورخان، قد قام بتنظيم مناطق الحدود المواجهة للعدو في الولايات المتاخمة، فقسمها، وسيطر على ساحل البحر الأسود التراقي، الذي استولى عليه الأمير البلغاري حنا الإسكندر (١٣٥٥ - ١٣٦٥) بعد وفاة ستيفن دوشان، وبذلك انقطع البيزنطيون عن آخر الأراضي التي تصلهم بأوروبا، ولم يعد أمامهم إلا الاتصال بالبحر فحب، سواء كان ذلك من خلال البحر الأسود إلى الإمارات البيزنطية أو من خلال مضيق الدردنيل، وحتى هاتين الويلتين كانتا معرضتين أحيانا لضغط العثمانيين وسيطرتهم^(٣). ولإزاء هذا الموقف اليائس الذي تردت فيه الإمبراطورية البيزنطية، رأى يوحنا الخامس باليولوجوس أن يسافر إلى أوروبا بنفسه ليستعطف المساعدة ضد الأتراك. فترك ابنه الأكبر أندرونيق نيابة عنه في القسطنطينية، وابنه الثاني مانويل في سالونيك، وتوجه إلى روما في أكتوبر سنة ١٣٦٩م، ولم يصحبه أحد من الأساقفة، وهناك أعلن للبابا أوربان الخامس اعتناقه للعقيدة الكاثوليكية، ومارس طقوس المذهب الكاثوليكي. وفي احتفال مهيب، وعلى درجات كنيسة القديس بطرس في روما، استقبل البابا وحوله الكرادلة «إمبراطور الإغريق» المتواضع الذي ارتد عن كنيسته، واعتنق بمحض إرادته وحرية عقيدة الكنيسة الرومانية المقدسة (الكنيسة الكاثوليكية). والواقع أن اعتناق يوحنا الخامس المذهب الكاثوليكي كان مسألة شخصية، بدليل أن البابا لم يعلن عن اتحاد الكنيستين، وكل ما فعله أنه أدى الصلاة، ودعا أن يكون الإمبراطور قدوة لرعاياه الإغريق^(٤). ولا يشك أن اعتناق يوحنا الخامس للكاثوليكية قد أثار ضجة عنيفة بين رعاياه

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 19.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid., p. 19, Nicol, op. cit., p. 61.

الأرموذكس. ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور من أجل تغطية نفقات رحلته إلى الغرب الأوربي اضطر إلى الاستدانة من بعض المراكبيين في البندقية، فلما أن أجل الدفع عجز الإمبراطور عن قضاء دينه، فقبض عليه دائنوه وزجروا به في السجن، وليث فيه حتى وفي عنه دينه إنه ماتوبل^(١).

أما الجبهة الغربية أو الجناح الأيسر للحدود، الى يقع بحذاء الساحل الإيحي، فقد تأسس بغرض الاستيلاء على مقدونيا وعاصمتها سالونيك، وكان قائد تلك الجبهة إيثيريوس بك، وهو في الأصل أمير إقطاعي في الأناضول، ودخل في خدمة العثمانيين بعد استيلائهم على يروسة وتحول إلى الإسلام، وأصبح قائداً عسكرياً في عهدى السلطانين أورهان ومراد. وكان البلغار أعداءه الألداء في تلك الجبهة قد قاوموه بشدة، إلى أن تمزقت مملكة البلغار بعد وفاة الكسندر، بسبب المنازعات التي قامت بين أبنائه في سنة ١٣٧١ حول العرش^(٢). فأسرع إيثيريوس بك، وهزم الصرب في شرمن Tchermen في الجزء الجنوبي من نهر الماريتزا (بين فيلبوبوليس وأدرنة) في ٢٦ سبتمبر سنة ١٣٧١. وتعتبر معركة ماريتزا أعظم نصر أحرزه الأتراك العثمانيون في أوروبا، قبل أن يوجهوا ضربتهم القاضية للقسطنطينية سنة ١٤٥٣. فقد فتحت الأبواب للعثمانيين في صربيا ومقدونيا وشمال اليونان، ولقى فيها أميران من ورثة ستيفن دوشان مصرعهما، أما الأمراء الصربيون الآخرون، فقد أجبروا على دفع الجزية، وأن يحاربوا إلى جانب سادتهم الأتراك عندما يطلبون منهم ذلك، الأمر الذي جعلهم نموذجاً للتبعية الميحية للمسلمين، وسرعان ما أجبر البلغار على اتباع نفس النموذج^(٣). فبعد أن استولى إيثيريوس بك على كوموتيني Komotini الواقعة على البحر الأدرياتي في سنة ١٣٧١، توجه إلى تراقيا الغربية والأراضي المقدونية المنخفضة (١٣٧١ - ١٣٧٥)، وأرسل الغزاة إلى ألبانيا سنة ١٣٧٥، وفصل الصرب عن البلغار، واستولى على قولة ودراما وسيريز وسالونيك، وساعد بعض النبلاء

(1) Vasiliev, Hist of the Byzantine Empire. Vol. 11, p. 588.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٣٠، زبدة صلا: المرجع السابق، ص ١٦٧.

(2) Shaw, op, col, pp. 19-20, Clissold, Ashort Hist. of Yugoslavia., pp. 99-100.

(3) Nicol, op. cit., p. 62, Stavrianos, op. cit., p. 44, Ostrogorsky, pp. 540-541.

المحليين ضد منافسيهم، وكذلك ضد البوسنيين^(١) والبنادقة، الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على الموانئ الساحلية^(٢). ثم غزا السلطان مراد الأول بلغاريا الوسطى، واستولى على صوفيا، وأجبر شيشمان ملك بلغاريا على قبول السيادة العثمانية في عام ١٣٧٦ م، وعزز ذلك زواجه من تامارا Tamara ابنة شيشمان^(٣).

وفي تلك الأثناء، ثار أندرونيق ضد والده الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس، وكان أندرونيق قد توجه إلى بلاط السلطان العثماني في أدرنة، وهناك عقد صداقة مع صاروحي أحد أبناء مراد الأول. وتذمر الإثنان من والديهما، لأنهما لم يكونا الولدين المفضلين. ولهذا شرع الأميران البيزنطي والعثماني في التخطيط للإطاحة بأبويهما. وقد جرى اكتشاف مؤامرتهم، فلم تأخذ مراد الأول الشفقة بإبنه، بل قيس عليه في ٢٩ مبتمبر سنة ١٣٧٣، وحرمه من نعمة البصر، ولم يلبث أن مات من آلامه. وفي نفس الوقت أمر مراد الأول الإمبراطور البيزنطي بسمل عيني إبنه أندرونيق وهدم التحصينات التي بناها خلف البرابة الذهبية للقسطنطينية. ولم يجرؤ الإمبراطور البيزنطي على عصيان أمر السلطان، فقبض الإمبراطور على إبنه أندونيق، وسجنه في برج أنيماس Anemas Tower، ولكنه حرّمه من نعمة البصر لعين واحدة فقط، وسحب منه اللقب الإمبراطوري، وعين إبنه مانويل شريكا في الحكم، وبذلك أكد الإمبراطور يوحنا الخامس مركزه المتواضع كتابع للسلطان العثماني^(٤).

(١) يطلق اسم البوسنة على مساحات مختلفة في أوقات مختلفة، وهو اسم مشتق من نهر البوسنة River Bosna الذي يتفرع من Vrelo Bosne بالقرب من لوبوسنا Vrhbosna (حاليا سراييفو). وقد أصبح هذا الاسم مستخدم عاما على القبائل السلافية التي دخلت الإقليم خلال القرن السابع الميلادي. وإلى الشمال والغرب كان الكرواتيون، وإلى الجنوب والشرق كان الصرب. ويقر المؤرخون المأجور أن أرض البوسنة كانت قلب كرواتيا الأصلية. ومن الواضح أن السيادة على المنطقة قد تغيرت كثيرا، فالكروات والصرب والإباطرة البيزنطيون استولوا على أجزاء منها في أوقات مختلفة.

Fine (John V.A.), *The Bosnian Church. A new interpretation. A study of the Bosnian Church and Society from the 13th to the 15 Centuries* (New York, 1975), p. 17., Clissold, op. cit., p. 58.

(2) Shaw op. cit., p. 20, Stavrianos, op. cit., p. 44.

(3) Shaw, op. cit., p. 20.

(4) Nicol, op. cit., p. 62, Hearsey, (John E.N.), *City of Constantiuople*, 324-1453 (Philadelphia, 1966), pp. 229-230, Ostrogorsky, op. cit., p. 543.

وعلى أية حال، هرب أندرونيق من السجن في سنة ١٣٧٦م بمساعدة أصدقائه الجنوبية إلى جالاتا Galata، ومن هناك اتصل بالسلطان العثماني مراد الأول، وتمهد له بالمدد من التنازلات مقابل إعادته إلى عرشه. وبفضل المساعدة الفعالة التي قدمها الجنوبية والأتراك قبض أندرونيق على أبيه وإخوته، وزج بهم في السجن. ومهما كانت دوافع أندرونيق، فقد وضع الإمبراطورية تحت عبء ثقل، فالأتراك العثمانيون لم يطلبوا زيادة الجزية المقررة على الدولة البيزنطية فحسب، ولكنهم طلبوا أيضا عودة غاليليولى التي كان قد استردها أماديوس السادس كونه صافوى في أقل من عقدين من قبل، فسلمها أندرونيق لهم، وفضلا عن ذلك تمهد بتقديم المساعدة الحربية للسلطان. وبذلك أصبحت الأقاليم العثمانية في أوروبا تربط مرة أخرى لإرباطا وثيقا بمشيتها في آسيا الصغرى عبر مضيق الدردنيل^(١).

والواقع أن الانتصارات التي حققها العثمانيون في بلغاريا وسهول مقدونيا، قد فتحت الطريق للقائد العثماني قره تيمورتاش للقيام بحملة خلال وادي فردار Vardar Valley إلى سلسلة جبال البلقان في الشمال والغرب، فيما بين سنتي ١٣٨٥ و١٣٨٩م، واستولى تيمورتاش على القلاع الرئيسية في مونستير وبريليب ف بلغاريا الغربية، وأطاح بجيش صربى بلغارى في شيرمين على ضفاف نهر ماريتزا، ثم تقدم بعد ذلك في صربيا الجنوبية، واستولى على نيش في عام ١٣٨٦، وأجبر الأمير الصربي لازار على عقد سلام مهين، حيث وعد بمقتضاء بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدات حربية، والاعتراف بالتبعية للعثمانيين، وقام تيمورتاش بغارات ناجحة فيما بين سنتي ١٣٨٦ و١٣٨٨^(٢).

ولاشك أن كل تقدم أحرزه العثمانيون في البلقان جعلهم يمددين عن مركز قوتهم، وأكثر قربا من أعدائهم. ويتضح ذلك في أنه بعد أن قبل الأمير الصربي سيادة العثمانيين،

(1) Nicol, op. cit., pp 62-63; Hearsey, op. cit., p. 230, Castellan (George). His of the Balkans., (New York, 1992), p. 52, Castellan, op. cit., p.52, Charanis (Peter), "The Strife, among the Palaeologi and the Ottoman Turks, 1370-1402", pp, 295-296, Byzantion (1942-1943).

(2) Schville, op. cit., pp. 186-187; Shaw, op. cit., p. 20, Greasy, op. cit., p. 29, Spinla (Matthew), A Hist of Christianity in the Balkans. A study in the spread of Byzantine Culture among the Slavs (london, 1968), p. 151.

انزعج من الانتصارات المتواصلة التي حققها تيمورقاش، وخاف أن يعزله العثمانيون من منصبه. ولهذا تحالف مع وريثة الملك دوشان في صربيا ومع ملك البوسنة، وانتهر الحلفاء فرصة انشغال العثمانيين بإمارة قرمان أقوى الدول في الأناضول، وألحقوا هزيمة ساحقة بالقائد العثماني تيمورقاش في بلوشك Plosnik على ضفاف نهر الموراغا في عام ١٣٨٨، وأجبروه على مفاداة صربيا الجنوبية والرجوع إلى نيش. وقد أتاح هذا الوضع للأمير الصربي لازار فرصة تكوين حلف بلقاني من الصرب والبلفار والبوسنويين والوالاشيين وبعض الألبان، وكان الكثير منهم قد قبل السيادة العثمانية من قبل^(١). ولكن السلطان مراد استطاع سحق البلفار، وأجبر ملكهم شيشمان على الاعتراف بسيادته ودفع الجزية مرة أخرى في سنة ١٣٨٨، وبذلك هزل أضخم فرقة عسكرية بلقانية عن جيش لازار. وعلى الرغم من ذلك، فقد جهز لازار جيشاً آخر من البوسنة والنجر وبولندة لمحاربة مراد وطرد العثمانيين من أوروبا. وفي الوقت الذي كان يستعد فيه السلطان مراد لمواجهة التحالف البلقاني الجديد، اضطرته الأحداث إلى إرسال معظم جيشه إلى الأناضول لمواجهة عدد من المنافسين الخطيرين الترابدين^(٢).

متاعب العثمانيين في الأناضول:

والواقع أن الموقف في الأناضول كان معقداً إلى حد كبير، فمن بين أعداء السلطان مراد إمارة سيواس في الهضبة الوسطى، التي أسسها القاضي برهان الدين، وقد حدث أن استغل منصبه لإمارة إيريتا التركمانية Eretna، واستولى عليها نفسه. وإلى الجنوب الشرقي كانت الدولة التي أسسها تركمان «الشاة البيضاء»^(٣) الذين كانوا يمدون نفوذهم من

(1) Shaw, op. cit., m Vol. I., p. 20.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 546, Shaw, op. cit., p. 20.

(٣) الشاة البيضاء أو آق قوبونلى أى قبيلة القطيع الأبيض أو أصحاب القطيع الأبيض، وهو حلف من القبائل التركمانية قام في إقليم ديار بكر بعد أيام المغول (في القرن الرابع عشر الميلادي) واستمر حتى عام ٩٠٨ هـ - (١٥٠٢ م)، وحارب أمراؤها الفقه قوبونلى «الشاة السوداء» والكرد والألبانيين والكرج والعثمانيين. والمؤسس الحقيقي لجماعة الشاة البيضاء، هو بهاء الدين قره عثمان ولقبه قره يولوك (ت ١٤٣٥ م)، الذي ما إن استولى على أملاك القاضي برهان الدين صاحب سيواس حتى أقامه يمحور على ديار بكر. ومن خلفاءه أوزون حسن (١٤٦٣ - ١٤٧٧) وهو الذي نقل عاصمته إلى تبريز سنة ١٤٧١ م. وثمة بعض الشك حول أصل اسم آق قوبونلى، وهل هو يشير إلى تربية الأغنام، أو إلى ضرب من طوطم، وكثيراً ما كانت الحجارة عند التركمان على هيئة الكباش، ولكن هذا الرمز يخلو منه راية أوزون حسن (دائرة المعارف الإسلامية).

إرزنجان وديار بكر في الأناضول الشرقية، إلى آذربيجان في شمال غربي إيران^(١). وإلى الجنوب كانت قرمان أقوى إمارة تركمانية في الأناضول الوسطى، التي نشأت في لارندة Larende في طوروس، وتغلغل في قيليقية، وهزمت الماليك، ونقلت عاصمتها إلى قونية مركز إمبراطورية سلاجقة الروم القديمة في سنة ١٢٧٧م^(٢).

ووسط الظروف الصعبة التي أحاطت بالدولة العثمانية في الجانب الآسيوي، لم يجد مراد بدأ من السير على سياسة أبيه الروامية إلى التقدم في الأناضول باتخاذ الوسائل السلمية، فزوج ابنه بايزيد من ابنة أمير كرميان^(٣)، وطلب بائتها (هدية عرس لابنه) - كما هي عادة الأوربيين حالياً - كل نصف الإمارة القريب من قرمان، بما فيه مدينة كوتاهية الشهيرة، وهي ذات موقع استراتيجي فريد. ثم حث السلطان مراد الأول حاكم إمارة حميد على أن يبيع له معظم أقاليم إمارته المتاخمة في سنة ١٣٧٧م^(٤).

وقد أدت المكاسب التي حصل عليها العثمانيون إلى وصولهم إلى جبال طوروس، الأمر الذي أزعج إمارة قرمان، وخاصة منذ تقدم فاغ جديد من آسيا الوسطى في إيران، وهو تيمور لنك، الذي اجتاحت الأناضول ترافقه موجة ضخمة من التركمان الرعاة، انضم معظمهم إلى جيش مراد الأول بهدف الحصول على الفنائم في أوروبا^(٥).

والجدير بالذكر أن البندقية وصربيا وألبانيا، قد شجعت إمارة قرمان على مهاجمة العثمانيين، بغرض إبعاد السلطان مراد الأول عن التحالف البلقاني، فوافقت قرمان على ذلك، وقامت بالاستيلاء على معظم الأراضي التي اشتراها من إمارة حميد. وقد خشي مراد

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. pp. 20-21.

(2) Ibid., p. 21.

(٣) من أقوى التي ظهرت في النجوم الغربية للأناضول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر إمارة أولاد كرميان، وقد ظهرت بتأثير عوامل كثيرة، وتمس كل مصادر القرن الرابع عشر التاريخية على أن إمارة كرميان كانت ذات بأس وخطورة أذعن لها كثير من إمارات الأناضول وخافتها، بل تمس على أن يبرزت كانت تدفع لها جنة سنوية. أنظر محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية، ص ٧٢ - ٧٣.

(4) Shaw, op. cit., p. 21.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٦، القرمانى: أخبار الدول، ص ٢٩٩.

(5) Shaw, op. cit., Vol. I p. 21.

من التركمان الموجودين في جيشه والذين يشكلون معظمه، إذ من الممكن ألا يساندوه في حربه ضد إمارة تركمانية من جنسهم وهي قرمان. ولتفادي ذلك أحضر مراد قوة أخرى تتألف بصفة خاصة من قوت أرسلها أمراء البلغار التابعين له، وبذلك استخدم قوات مسيحية لمحاربة إمارة تركمانية مسلمة. وبهذه الطريقة، انتصر مراد على إمارة قرمان، واستعاد ما فقده في إمارة حميد، وفرض نفوذه على كثير من أراضي الأناضول. ويقال إن المشائين استخدموا المدافع والبنادق في حروبهم ضد قرمان، وقد استخدمها مراد بنجاح جملة بنقلها إلى أوروبا، حيث أظهرت كفاءة عالية ضد جيوش الأمير الصربي لازار المسيحية^(١). وفي أثناء عودة مراد إلى الغرب الأوربي، استولى على أودية كوبروسو وماجناش شاي Mangat Cay من إمارة تكة Teke في ليكيا، وبذلك ربط مراد ممتلكاته الجديدة بالبحر الأبيض المتوسط، ونال حرية الوصول إليها عن طريق هذا البحر^(٢).

معركة كوسوفا (قُصَّوه):

وبعد أن أقر السلطان مراد الأول أموره في الأناضول، عاد إلى أوروبا لمواجهة التحالف البلقاني. ودارت المعركة الفاصلة في كوسوفا في ١٥ يونيو سنة ١٣٨٩ غرب بريشتينا، وبين متروفتش ومكولمى الواقعة على جانبي نهر فدرار في جنوب صربيا. ومن بين الأمراء البلقانيين الذين رافقوا أمير صربيا لازار أعظم الأمراء الصربيين لمواجهة الأتراك العثمانيين: ملك البوسنة تفرتكو الأول Tvrtko I (١٣٥٣ - ١٣٩١)، وفوك برانكوفتش زوج ابنة لازار، وأمير والاشيا ماركيا الكبير، وجورج كاستريوتا المسمى إسكندر بك أحد أمراء ألبانيا، كما اشترك في تلك المعركة الكرواتيون والبلغار والمجريين. ولم يشترك الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس، ليس بسبب خضوعه للإسمى للسلطان مراد، ولكن من جراء عجزه عن الوصول إلى مكان المعركة، حتى لو كان يمتلك جيشا قويا^(٣).

وفي معسكر التحالف البلقاني دارت المناقشات الطويلة بين الأمراء، فنصح البعض منهم بتوجيه هجوم ضد الأتراك في الليل، للانتقام من كارثة ماريتزا التي حدثت منذ ست وعشرين سنة، ولكن البعض الآخر عارض هذه الخطة لما فيها من مخاطرة، في الوقت الذي

(1) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, p.21.

(2) Ibid., P. 21.

(3) Ibid., p. 21. Clissold, A short Hist of Yugoslavia, p. 100.

يمكن الأتراك من الهرب تحت جنح الظلام. وقد استمرت المناقشات حتى ظهور الفجر، وعندئذ سقط مطر ثقيل رفع لثراب وجعل الجو صافياً أفاد منه الأتراك، ورأوا في ذلك علامة من الله على الوقوف بجانبهم^(١).

وعلى أية حال، قاد مراد وإنكشاريته الجيش الشماني بنفسه، وقاد الميعة ابنه بايزيد، وقاد الميسرة ابنه يعقوب. وكان برفقة مراد الأمير قنسطنطين البلغاري حاكم قومتدل Kostendil، وعدد من الأمراء الصربيين المنافسين للأمير لازار، وعدة أمراء تركمان من الأناضول وأتباعهم، وخاصة أمراء صاروخان وآيدين ومنبشا وحديد وتكة^(٢)، ولم يكن هذا سوى مظهراً لتبعية كافة أمراء الأناضول للسلطان العثماني بصفت قائداً للفرقة (المجاهدين) جميعاً.

وقد اختلفت المصادر اختلافاً بينا حول عدد الجيوش التي اشتركت في المعركة، ويدور أن التحالف البلقاني كان يضم حوالي مائة ألف رجل، في حين كان جيش مراد لايزيد عن سبعين ألف على أفضل الأحوال^(٣). وفي البداية أحرز لازار وحلفائه النصر، وفي أثناء احتدام المعركة، لقي مراد حتفه بالخدعة، وذلك أن نبيلاً صربياً صغيراً فاق في شجاعته أي رجل آخر يدعى ميلوش كوبيلتش Milosh Kobilich، انفصل عن الجيش الميحي، كما لو أنه قد هجره، ووقع في وسط الجيش التركي، وعندما قبض عليه الأتراك طلب مقابلة السلطان قائلاً: «أرغب في أن أرى السلطان لأخبره بسر احتفظ به يمكنه من إحراز النصر في هذه المعركة، ولهذا السبب هجرت الجيش». وعندما قدمه الأتراك إلى السلطان مراد، أشار مراد يده للنبل الشاب للاقترب منه، فاندفع النبيل، وعندما أصبح قريباً من السلطان بدرجة كافية، اسلخ خنجره، وطعن طعنة مميتة، فقبض عليه حراس مراد وحمله فؤوسه ومزقوه إرباً. وتولى قيادة الجيش الشماني بعد موت مراد ابنه الأمير بايزيد الأول الذي أحرز نصراً باهراً، وجرح لازار، ووقع أسيراً في أيدي العثمانيين فقتلوه ومعظم نبلاته^(٤).

(1) Creasy, Turkey, P. 35.

(2) Shaw, op. cit., p, 21.

(٣) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٠١،

Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 60-62; Ostrogorsky, op. Cit., pp. 546-547, Spinka, op. cit., p. 151, Creasy, Turkey, p. 36.

وتعتبر معركة كوسوفا التي عرفت باسم «حقل الطيور السوداء» - Field of the Black-birds أول نجاح أحرزه العثمانيون ضد الجيوش الأوربية المتحالفة، وبعبارة أخرى دمر العثمانيون آخر مقاومة منظمة في البلقان، فتحت شمال الصرب للغزو العثماني، وأصبحت صربيا مثل بلغاريا خاضعة للدولة العثمانية^(١).

وعلى أية حال، انتصر الأتراك وسقط في المعركة زهرة الأرستقراطية الصربية، وأصبحت الإمبراطورية الصربية حطاما، ولم تستعد نفسها بعد ذلك، وتركت الكارثة انطبعا عظيما في الأجيال التالية، وأروحت الهزيمة بأعظم القصائد الشعرية في أوربا، ولا زال يجرى الاحتفال بذكرى هذه المعركة في صربيا^(٢). ويقول المؤرخ شفيل^(٣) Schevill: «ظهرت مئات الأغاني في السنوات المتأخرة، وأخذ كل منشئ جديد يفخر بالإسهام في تفصيلات جديدة، تزيد ثراء عما قاله أسلافه، فأصبحنا نسمع عن البطولة والخيانة والقتلة يصنعون ملاحم وطنية احتفظ بها الصرب حية في نفوسهم لقرون». ودارت حول معركة كوسوفا الأساطير التي استطاعت أن تحول الهزيمة إلى انتصار معنوي، فتقول تلك الأساطير أن أعداد القتلى من الصرب بلغ سبع وسبعين ألف. وأنه عندما وصلت أنباء مراد إل الغرب الأوربي، أدى الناس صلاة الشكر في الكنائس في فرنسا وإيطاليا، احتفالا بانتصار الصليب على الكافرين، على حين أن النتيجة الحقيقية لمعركة كوسوفا تعني أن صربيا فقدت استقلالها، وصارت ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، التي سمحت لستيفن لازار يفتش (١٣٨٩ - ١٤٢٧) ابن لازار أن يحكم صربيا الضعيفة، شريطة أن تكون خاضعة خضوعاً تاما للعثمانيين^(٤). وقد ظلت إمارة صربيا خاضعة للعثمانيين لمدة سبعين عاما، وتلغف الجزية لهم. ونصل إلى القول إنه بعد أن عبر أورخان إلى أوربا، جاء مراد وأكد حكم العثمانيين في أنحاء الجنوب الشرقي من أوربا، فيما عدا إمارات البوسنة وألبانيا وجزء من اليونان^(٥).

(1) Shaw, op. cit., pp. 21-22.

(2) Clissold, op. cit., p. 100.

(3) The Hist. of the Balcan Peninsula, pp. 187-188.

(4) Nicol, op. cit., pp. 65-66, Clissold, op. cit., p. 100, Ostrogorsky, op. cit., p. 547, Castellan, op. cit., p. 56.

(5) Shaw, op. cit., p. 22.

كان حكم السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩) هو البداية الحقيقية لنشأة الأسطول العثماني، فألى جانب سياسته في التوسع الإقليمي في البلقان، ونقله عاصمة الدولة إلى أدرنه في أوروبا، بنى هذا السلطان عددا من السفن، ونظم قوة عسكرية من البحارة وأقام دارا للصناعات البحرية في كل من أزمير وكميليك، وأنشأ ثكنات عسكرية للبحارة في غاليلي^(١).

ولاشك أن مراد قد وجه مصائر العثمانيين لمدة ثلاثين سنة تقريباً بحكمة سياسية لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره، وفي تلك الفترة خاص بنفمه ٣٧ حرباً انتصر فيها جميعاً. وحتى الآن لم يتبوأ مراد مكانته الحققة باعتباره من أبرز ساسة آل عثمان وقادتهم العسكريين. فحين نقارن الصعاب التي واجهها والمشكلات التي تغلب عليها بالأعمال التي أنجزها خلفاؤها نجد نداءً لهم إن لم يتفوق عليهم. فقد قيض لفتحاته أن تؤمن مستقبل الدولة العثمانية طيلة خمسة قرون، ولم يخدم نشاطه وحماسه للحرب، وحتى في شيخوخته لم يفقد شيئاً من قدرته ودهائه، وحصل على ثقة الجميع سواء من الأعداء أو الأصدقاء. حقيقة إن عثمان قد أوجد جنساً، وأن أورخان بنى دولة، إلا أن مراد هو الذي أرسى قواعد الإمبراطورية العثمانية^(٢).

(١) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، جـ ٢، ص ٨٨١ - ٨٨٢.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٥٠، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١، ص ١٠٢.

الفصل الثالث

الإمبراطورية العثمانية في عهد بايزيد الأول

(١٤٠٤ - ١٣٨٩)

- تيمور لنك.
- حملة نيقوبوليس الصليبية.
- نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبوليس.
- معركة أنقرة.

عقب وفاة السلطان مراد كان من بين أبنائه الموجودين على قيد الحياة بايزيد ومعقوب، وكان الأخير الابن الأكبر، يمثل كبار الشخصيات التركمانية في البلاط العثماني، وهي صاحبة القوة والنفوذ، أما بايزيد فهو ابن صيدة يونانية، وكان يمثل العناصر المسيحية التي اعتنقت الإسلام حديثاً، وهي العناصر التي ولاها مراد مراكز رفيعة. وقد استطاع بايزيد الوصول إلى العرش بعد أن قام بقتل أخيه معقوب خشية أن ينازعه الملك، ولم يكن ذلك بسبب قوة أنصاره، ولكنه كان على مسرح الأحداث في كوسوفا، في الوقت الذي كان أخوه معقوب يقوم بتجنيد التركمان في الأناضول^(١). وبوصول بايزيد إلى العرش، بدأ التقليد الدموي العثماني القاضى بقتل الإخوة إنقاء لمنازعتهم، وهو التقليد الذي برره الفقهاء، وما لبث أن أصبح بمثابة قانون في عهد السلطان محمد الفاتح. ورغم أن هذا التقليد ينم عن القسوة الشديدة، فإنه حقق الهدف المرجو منه، إذ لم تتأثر الدولة العثمانية بالصراعات الأسرية لمدة خمسة قرون^(٢). وبعبارة أخرى، فقد أصبح قتل الإخوة قاعدة منتظمة عند السلاطين العثمانيين بعد الجلوس على العرش، طبقاً للمبدأ القائل بأن التمرد على الحكومة يؤدي إلى التمزق، إلى حد أنه يجدر التخلص في أول فرصة ممكنة ممن يحتل أن يطالبوا بالعرش^(٣).

وفي أثناء انشغال بايزيد في أوروبا، إتحدت الإمارات التركمانية الموجودة في جنوب غربي الأناضول، مع إمارة قرمان والقاضي برهان الدين - وتضم إمارته قيصريه وسيلس - الذي استولى على مساحات ضخمة من وسط الأناضول، وتمتع بنفوذ قوى بين الرعاة التركمان في الشرق، في تحالف ضد العثمانيين. وقد استطاع هذا التحالف استعادة مساحات كبيرة من الأراضي التي استولى عليها مراد. ونتيجة لذلك التهديد، وتأثير من العناصر المسيحية الموجودة في بلاط بايزيد حول بايزيد انتباهه إلى الشرق طيلة حكمه، وتخلّى بصورة كبيرة عن تقاليد «الغزاة المجاهدين» التي اتبعها أسلافه^(٤)، خاصة أن تلك

(1) Shaw, op. cit., p. 23.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٥٠ - ٥١.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ترجمة محمد علي أبو ذرة، مراجعة على أدهم (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٥٦.

(4) Shaw, op. cit., pp. 23-29.

الإمارات قد أعلنت أنها لن تسمح بحدوث أى تغيير فى الموازين الحالية بين الإمارات الأناضولية، ولن تسمح بتحقيق الوحدة التركية^(١).

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن، وهو كيف يحصل السلطان بايزيد على القوة التى تمكنه من التغلب على الأمراء الأناضوليين الأقوياء؟ لقد تجنبهم أسلافه بسبب تقليد «الجهاد» الذى قاموا به من ناحية، ولأنهم كانوا أكثر قوة من ناحية أخرى. ولكن بايزيد لم يتبع هذه السياسة التى سار عليها أسلافه، بل قرر مهاجمة هؤلاء الأمراء وتدميرهم والقضاء عليهم بدلا من مهادنتهم. ولكى ينجز بايزيد هذه السياسة، رأى أن يوجه انتباهه إلى أوروبا أولا، ثم ينفذ بعد ذلك إلى الأناضول، وكان فى نيته أن يستغل النصر الذى أحرزه فى كوسوفا وانتزاعها من ستيفن لازاريفتش، ولكنه بدلا من ذلك سمح لستيفن بالبقاء فى السلطة، وعقد معه اتفاقية تعهد ستيفن بموجيها يدفع جزية منوية، وتقديم مساعدة حربية للسلطان فى الأناضول. وقد ختمت الاتفاقية بزواج بايزيد من مارياديسينا Maria Despi-na أخت ستيفن، الأمر الذى أدى إلى تداق جديد من المستشارين المسيحيين فى البلاط العثماني، وزيادة النفوذ البيزنطى والمسيحى فى السنوات القليلة القادمة^(٢). وحتى يضمن بايزيد عدم قيام الأمراء والحكام الأوربيين بانتهاز فرصة قيامه بحملة فى الأناضول، أرسل قواده الموجودين على الحدود فى غزوات واسعة النطاق ضد البوسنة، التى كانت قد دخلت فى منازعات إقطاعية، وأصابها الضعف بعد وفاة ملكها نفرتكو الأول. وهناك وصف للبوسنة آنذاك كتبه الفرنسى جيل لوبوفيه Gille le Bouvier وجمع فيه آراء رحالة آخرين، وهو يعطى صورة نعمة للبوسنة: «إنهم يعيشون على التهام الحيوانات الضارية، وعلى التقاط السحك من الأنهار، وعلى التين وعسل النحل الذى لديهم منه مقادير كافية، وهنا هو كل طعامهم، كما أنهم ينطلقون فى عصابات من غابة إلى أخرى لقطع الطريق^(٣)»، وما لبث بايزيد أن اكتسح الألبان (الأفلاج)، وبذلك صارت البوسنة والواشيا تابعتين - لأول مرة - للعثمانيين فى سنة ١٣٩١ م.

(١) يلماز أرتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١٠٣.

(2) Shaw, op, cit., p. 29, Spinka, A Hist of Christianity in Balkans, p. 152, Greasy, Tukey, p.37.

(٣) مالكرلم: البوسنة، ص ٥٢.

رواصل بايزيد غزواته فى مناطق مقدونيا الجبلية، فاستولى على سكوبجى، واستجلب آلاف التركمان وأسكنهم وادى فردار، وذلك لتكوين قاعدة أمامية جديدة ينطلق منها للغزو فى الغرب والشمال، فضلا عن عرقلة أى مجهود حرى يقوم به الأمير الصربى ستيفن لازار يفتش أو الأمرء المسيحيون التابعون الآخرون أثناء انشغال الصرب، فقد اعترف بايزيد بالأمير الصربى فوك برانكوفتش المنافس لستيفن حاكما لبرشتينا، كما سمح لابن برانكوفتش وخليفته جورج برانكوفتش (١٤٢٧ - ١٤٥٦) بمناهضة ستيفن حول حق السيطرة على كل صربيا^(١).

وفى تلك الأثناء، استولى التركمان - وهم من صاروخان - على سكوبجى، وقادهم زعيمهم إلى ألبانيا، واستولى على سكوتارى، وديلكنجو Dulcigno، وكرويا (آق حصار) Kroya وذلك بين سنتى ١٣٩٣ و ١٣٩٥ م. حدث هذا فى الوقت الذى استولت فيه البندقية على اليسير، وديرارو ودرينقاستو، من عائلة بالسا Balsa Family، مقابل مساعدتها ضد العثمانيين، ومن ثم بدأت المنافسة بين العثمانيين والبندقية فى ألبانيا ومنطقة البحر الأدرياتي. على أن بايزيد لم يقف ساكنا، إذ قام بغزو ألبانيا، وفى المناطق التى استولى عليها جعل حكامها المحليين أتباعا له، واشترط عليهم تقديم المساعدة الحربية له ضد البنادقة وفى الأناضول^(٢).

وفى تراقيا بدأ يزيد عملية «تصريك» أدرنه، وذلك ببناء المساجد والمدارس والبيوت، وتوطين التركمان فى ضواحيها، وإنشاء إدارة منظمة. كما أحاط بايزيد القسطنطينية بسلسلة من القلاع والحصون، وأنهى كل حكم بيزنطى خارج أسوار المدينة. وآخر عمل قام به بايزيد قبل أن يتوجه إلى الأناضول، أن استقبل ممثلين عن راجوزه وجنوه، وقبل اعترافهم بالتبعية له ودفع جزية سنوية، فى مقابل السماح لهم بالامتداد بمزاولة التجارة فى مملكاته^(٣).

وكان على السلطان بايزيد أن يواجه إمارة قرمان فى الأناضول، فقد امتثلت فرصة انشغاله فى البلقان، واستولت على قونية وبعض أملاك العثمانيين فى الأناضول، واعتبرت

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 29.

(2) Ibid., p. 29.

(3) Ibid., p. 29.

نفسها الورثة الشرعية للدولة سلاجقة الروم، وصاحبة السلطة على الإمارات التركية الأخرى. فأسرع بايزيد إلى آسيا الصغرى لمحاربة علاء الدين صاحب قرمان بجيش يتألف أساساً من القوات التابعة من المسيحيين الصربيين والبيزنطيين وغيرهم، إذ خشى من التركمان المسلمين الموجودين في صفوف جيشه أن يستأوا من مهاجمة إخوة لهم في الدين. وفي البداية تغلب بايزيد على الإمارات الصغيرة المتحالفة مع قرمان: صاروخان وآيدين ومنتشا، وضماها إليه في خلال صيف سنة ١٣٩٠. فردت قرمان عليه بالتحالف مع القاضي برهان الدين أمير سيواس والإمارات التركمانية الباقية. وعلى الرغم من المقاومة التي أبدتها هذا التحالف ضد بايزيد، إلا أنه استطاع الاندفاع في وسط الأناضول في خريف وشتاء عام ١٣٩٠، وأخضع معظم الإمارات الباقية، بما فيها حميد، وتكه، وكرميان، واستولى على اسكشهير Acsehir، ونجدة Nigde، كما استولى على قونية من قرمان، الأمر الذي جعل قرمان في سنة ١٣٩١ تتقدم إلى بايزيد بمقترحات تدعو إلى عقد السلام بينهما، فقبلها بايزيد خشية أن يتحالف أتباعه التركمان مع القاضي برهان الدين^(١) صاحب سيواس.

وعلى الرغم من سقوط قرمان في يد العثمانيين، لم يكن معناه أن قرمان قد خضعت خضوعاً للعثمانيين، وما يؤكد ذلك أن الأسرة الحاكمة في قرمان عادت إلى الحكم بعد دخول تيمور لنك في آسيا الصغرى. ومع أن هذه العودة لم تكسب إمارة قرمان القوة التي تميزت بها قبل دخول العثمانيين، فضلاً عن أنها لم تعد عاملاً سياسياً فعالاً في آسيا الصغرى، إلا أنها استمرت على الرغم من هذا حتى بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ تقاوم سيطرة العثمانيين الكاملة على آسيا الصغرى^(٢)، وتظل المنافس الحقيقي لهم.

عاد بايزيد إلى أوروبا في شتاء سنة ١٣٩١، بعد أن علم أن الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس قد امتغل فترة غيابه في الأناضول، وقام بإصلاح أسوار وأبراج مدينة القسطنطينية، وأضاف إليها بعض التحصينات. فما كان من بايزيد إلا أن هدده بسحل عيني ابنه ما نويل الموجود في معسكر العثمانيين وإعادته إليه أعمى، فخاف الإمبراطور على ولده،

(1) Ibid., pp. 29-30.

(2) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٣٨ - ٣٩.

وانصاع لما طلبه منه بايزيد. ومات الإمبراطور حزنا بعد ذلك فى فبراير سنة ١٣٩١، ولم يبلغ من السنين^(١). واستطاع مانويل الهروب سرّاً إلى القسطنطينية، واعتلى العرش البيزنطى (١٣٩١ - ١٤٢٥)، ثم بدأ فى مقاومة السيادة العثمانية، فرفض طلبا لبايزيد بتضمن رفع قبعة الجزية وتأسيس حى إسلامى فى القسطنطينية. وعندئذ شدد بايزيد حصاره على القسطنطينية، الأمر الذى اضطر مانويل الثانى إلى الانصاع لما طلبه بايزيد، فوافق على هدم عدة مئذات من البيوت لتأسيس حى تركى فى عاصمته، وإنشاء محكمة إسلامية، ومسجد فى قطاع من المدينة صار يعرف بإسم سركيى Sirkeci، كما سمح ببقاء حامية عثمانية قوامها مئة ألف تركى فى حى جالانا بحذاء الشواطىء الشمالية للقرن الذهبى، وهو الحى الذى كانت تشغله الجنوبية من قبل، وزيدت الجزية التى كانت تدفعها الإمبراطورية للسultan، بما فى ذلك ضريبة العشر لدخل الإمبراطور من بساتينه خارج المدينة^(٢).

وقد اضطر الإمبراطور البيزنطى مانويل باليولوجوس إلى قضاء معظم السنة الأولى من حكمه فى خدمة بايزيد أثناء زحفه فى آسيا الصغرى، وظل فى معسكر السلطان إلى أن سمح له بالرجوع إلى القسطنطينية، ولكنه حذره قائلاً: «إننا أردت أن تغدأ أوامرى، إغلق عليك أبواب مدينتك، واحكم داخلها، فكل ما وراء الأسوار ملك لى»^(٣). والحقيقة أنه لم يبق من الأماكن الهامة خارج السيطرة العثمانية سوى القسطنطينية وسالونيك والمورة، ولم يتمكن العثمانيون آنذاك من مهاجمة القسطنطينية لعدم امتلاكهم قوة بحرية قوية تمكنهم من قطعها عن الإمدادات الخارجية^(٤).

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 81-22, Shaw, op. cit., p.31, Nicol, op. cit., p.66, Vasiliev Hist of the Byzantine Empire, Vol. II, p.625.

(2) Doukas, op. cit., pp. 82-83, Shaw, op. cit., p. 31, Lodge, The close of Middle Ages, p. 504, Hearsey, op. cit., p. 230.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 477, Nicol, op. cit., p. 66 Derekson, The Crescent and the Crose, p. 118.

(4) Nicol, op. cit, p. 68.

وقد مهد غزو مقدونيا الطريق للعثمانيين للدفاع في سهل تساليا التي استولى عليها القائد العثماني إيفرينوس بك في بداية سنة ١٣٩٣ ، وسقطت لاريسا وتحولت إلى عاصمة إقليمية ليني شهر. ثم ضغط إيفرينوس على الدول اللاتينية في أثينا وآخيا وصلونا ومستعمرة البندقية في مودون وكورون في المورة. كذلك قام إيفرينوس بغزوات واسعة المدى في الشمال في البوسنة والمجر، للحصول على الغنائم^(١).

وقد سبق القول إن يزنطة وبلغاريا اعترفتا بالسيادة العثمانية، ولكن أقوى دولة أوربية مستقلة كانت قادرة على إيقاف تقدم العثمانيين، كانت في الحقيقة مملكة المجر، التي امتد حكمها المباشر جنوبا إلى دالماتيا وبلغراد، وفرضت نفوذها على أميري والاشيا ومولدافيا. وقد بذل الملك سيجسموند (١٣٨٧ - ١٤٣٧) جهوداً كبيرة لتحريك المسيحية ضد العثمانيين، ولكن ملوك وحكام الغرب الأوربي كانوا مشغولين بمشاكلهم الخاصة. وعلى الرغم من أن المجر آنذاك قد مزقتها الانقسامات الداخلية بين النبلاء الإقطاعيين والحكومة المركزية من جهة، وبين الفلاحين الأرثوذكس والنبلاء والحكام الكاثوليك من جهة أخرى، فقد بذل ملكها سيجسموند ما بوسعه للوقوف ضد العثمانيين، بدليل أنه استولى على نيقوبوليس ثم تحرك إلى بلغاريا، الأمر الذي جعل بايزيد يعود من حملته الأناضولية لمواجهة الموقف. وقد استرد بايزيد نيقوبوليس في عام ١٣٩٢، وعزل تابعه شيمان الذي كان قد وافق حديثا على الانضمام إلى المجرين، وسقطت العاصمة البلغارية ترنوفو Trnovo في ١٧ يوليو سنة ١٣٩٣، واستولى على معظم بلغاريا فيما عدا دوبروچه Dobruca (دوبروتشا)، وودين Vidin واللذان بقيتا تحت قيادة أميرين بلغارين صغيرين^(٢). وعلى هذا فإن الحكم العثماني المباشر في بلغاريا جعل العثمانيين على اتصال مباشر مع المجر. وما يجدر ذكره أن بايزيد بدأ وقتئذ في تنفيذ سياسة جديدة تقوم على تخليه عن النظام العثماني القديم الذي يتمثل في مباشرة حكم البلاد المفتوحة من خلال أمراء تابعين، واستبدله بنظام جديد يقوم على الحكم المباشر والخضوع للسلطة المركزية^(٣).

(1) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, p. 31.

(2) Ibid., pp. 31-32. (4) Nicol, op. cit., p. 68.

(3) Shaw, op. cit., p. 32.

أدت التهديدات المستمرة ضد ممتلكات السلطان بايزيد إلى أن يتحرك جيئة وذهابا بين الأناضول وأوروبا، ولذلك أطلق عليه لقب «بلدروم» أى الصاعقة (Thunderbolt) Yildi- rim بسبب سرعة حركته وزحفه. ففي عام ١٣٩٣ - ١٣٩٤، توجه بايزيد إلى الأناضول، بسبب ازدياد نفوذ القاضى برهان صاحب سيواس، وخوفا من الغزى المغولى تيمور لىك (أى تيمور الأعرج) الذى بات يهدد أملاك العثمانيين فى الشرق^(١). والحقيقة أنه بعد أن عاد بايزيد إلى أوروبا، خرج الأمراء التركمان فى الأناضول على طاعته، وجهزوا حركة مقاومة جديدة ضده، وطلبوا المساعدة من تيمور لىك. ولهذا عاد بايزيد إلى برسة ليكمل قواته ضد هؤلاء الأمراء، خاصة أن القاضى برهان الدين قد ازداد نفوذه. بعد أن استولى على أماسيا ونجدة وقيصرية، ثم وصل إلى ساحل البحر الأسود فى عام ١٣٩٣. وعندئذ رأى بايزيد أن يوقف برهان الدين عند حده حفاظا على هيئته ونفوذه، فتقدم ناحية أماسيا، فتفقهقر برهان الدين إلى سيواس، بعد أن أدرك أنه لا قبل له بهزيمة العثمانيين فى معركة مفتوحة، كما أن معظم التركمان الذين انضموا إليه تخلوا عنه، وعادوا لطاعة العثمانيين^(٢).

تيمور لىك:

ومن حسن حظ البيزنطيين والقوى المسيحية الأوروبية وقتذاك أن تعرضت الدولة العثمانية لخطر داهم من الشرق، وهذا الخطر هو تيمور لىك أعظم حاكم مغولى قوة منزمن حكيـزخان، وواحد من أهم الغزاة فى تاريخ العالم. وقد ولد تيمور فى أبريل سنة ١٣٣٦ فى كيش (شهرى سيز الحالية) التى تبعد خمسين ميلا جنوب ممرقند فى بلا ما وراء النهر وهوىتمى إلى عاصمة تبتية فى المنطقة التى كان يسيطر عليها جنكيزخان، وإن كان ابن عرشاه يعتقد أن تيمور ينتمى إلى أصول متواضعة. وقد بدأ نجم تيمور فى الصعود ابتداء من عام ١٣٦٠، وأصيب فى أثناء حروبه بجرح سبب له العرج طيلة حياته، مما جعلهم يطلقون عليه اللقب «غارسى» (لايـج) أى الأعرج، وبذلك كان شديد الميل

(1) Ibid., p. 32, Chevall, op. cit., p. 188. Destruction of the Greek Empire, p. 132.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, p. 32.

لإلحاق الأذى بالآخرين^(١). وقد أجمع المؤرخون على أن حملاته العسكرية قد صاحبها الاغتصاب والنهب والوحشية والسلوك القاسى، وأبتما توجه رجاله أحوالوا البلاد إلى صحراء جرداء عارية، «فلا يسمع نباح كلب، ولا مققة طائر، ولا صراخ طفل»^(٢).

وفى سنة ١٣٦٩ أضحى تيمور لئك سيداً على جميع البلاد التى كان يحكمها فرع جغتای من المغول، ثم أخذ يمد ممتلكاته بما شئنه من حروب لا تعرف الرحمة أو الشفقة^(٣). وبذكر المؤرخ أرنولد ترينبى أن تيمور لئك وقع فى أفدح الأخطاء فى حياته، فبدلاً من تكريس جهوده لإعادة إنشاء الإمبراطورية الأوروبية الآسيوية التى أقامها جنكيزخان، والمحل الشاق المتعلق بفرض السلام على القبائل الرحل المختلفة، والتى عانت على الترحل فى هذا الإقليم الشاسع، فإنه وزع جهوده، بل كل إهتماماته إلى الغرب والجنوب، وروسيا، والقوقاز، وإيران، والهند، بل سوريا حتى أضاع وقته فى الحملات الحربية المدمرة والمثيرة للذعر، وضم الأراضى، وهو الأمر الذى ذهب أدراج الرياح فى لحظة وفاته تقريباً^(٤).

وقد ظهر خطر تيمور لئك فى الشرق الأوسط فى سنة ١٣٨٣، فاستولى فى سرعة مذهشة على بلاد ما وراء النهر، وجعل سمرقند عاصمة لبلاده، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان. ثم زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ١٣٨٦ وطرد حاكمها قرا محمد التركمانى، وحينما ترك تيمور لئك تبريز أواخر سنة ١٣٨٨، أسرع قرا محمد التركمانى واستعاد بلاده^(٥).

وفى سنة ١٣٩٣ هاجم تيمور لئك بغداد، فبعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور فى مايو من نفس العام، لم يشر الملطان أحمد بن أويس الجلائرى حاكم بغداد

(1) Ibid., p. 32.

برتولد شولز: العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، ومراجعة د. سهيل زكار (دمشق ١٩٨٢)، ص ١٢١، جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٨١.

(2) Ostrogorsky, Hist of Byzantine State, p. 556.

(٣) رسيحان: تاريخ الحرب الصليبية، ج ٣، ص ٧٧٢ - ٧٧٣.

(٤) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ص ١٨٣.

(٥) حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٢١ - ١٢٢.

(١٣٨٢ - ١٤١٠) إلا وتيمور يقترب من بغداد ومن غربيها، فأمرع السلطان أحمد بالرحيل من بغداد بأمواله وأولاده، واتجه غرباً لائذاً بالسلطان المملوكى بقوق طلباً للحماية دون أن يبدى مقاومة لتيمور، ودخل تيمور بغداد وقتل أكثر مكانها وخرب أسوارها وجرامعها وأسواقها^(١).

ومن بغداد أرسل تيمور لنك إلى القاضى برهان الدين صاحب قيصرية وميوس فى سنة ١٣٩٣ رسالة سبه فيها، وهدده إن لم يعطى طاعته له. غير أن برهان الدين قطع رعوس كبار رمل تيمور وعلقها فى أعناق باقى الرمل، ثم أرسل نصف الرمل إلى السلطان بقوق والباقيين إلى السلطان العثمانى بايزيد، فرد كل منهما باستعداده لتقديم كل عون لبرهان الدين لمقاومة تيمور لنك^(٢).

وفى أكتوبر من نفس العام (١٣٩٣) أرسل تيمور لنك من بغداد سفارة إلى السلطان المملوكى بقوق طالبت بطرد أحمد الجلائرى، وأبلغته أن حدود بلاد تيمور لنك أصبحت تمتد من ممرقند إلى حدود العراق العربى الملاصقة لحدود بلاد دولة المماليك الثانية، وأن أهالى هذه المنطقة يتختمون بحمايته، وعلى السلطان المملوكى أن يرعى حدود الجوار. ورغم أن السلطان المملوكى خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك، فأمر بقتل رمل تيمور لنك، فإنه كان على حق فى ملكه مع هذا الدعاية الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً^(٣).

بيد أن تيمور لنك وجد أن بقاءه فى بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المؤونة بها. ولذا عبر نهر دجلة واتجه نحو الشمال الغربى ليهاجم أعداءه المماليك فى بلاد الشام وكذلك العثمانيين. فاستولى على ماردين بعد حصار صعب فى مارس ١٣٩٤، ثم اكتسح أرمينية الكبرى، ثم عرج على بلاد قولايسف التركمانى^(٤) زعيم قبيلة قرا قويونلو

(١) أرمينوس فامبرى: تاريخ بخارى، ترجمة د. أحمد محمود السادنى، مراجعة د. يحيى الخشاب (القاهرة: ١٩٦٥)، ص ٢٢٨ - ٢٢٩، جوزيف داهموس: المرجع السابق، ص ١٨٥، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٣) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) ظهر التجمع القرايوللى أو «الشاة السوداء» من العناصر التركمانية التى اضطرتها الغزوات المغولية إلى التحرك صوب الشرق. وسطوا ملطتهم شيئا فشيئا على أنريجان والأطراف الشرقية لشبه جزيرة الأناضول. كان قرا محمد يحمل فى خدمة السلطان أنوس الجلائرى، غير أن ابنه قرا يوسف قام =

«الشاة السوداء»، واكتسح بعدها بلاد الجراكمة فى شمال شرق البحر الأسود. وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمور لك، وسار على رأس هذا الجيش، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه. ويبدو أن تيمور وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع برقوق، فزحف شرقا نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه^(١).

وعلى الرغم من رحيل تيمور لك، فقد استمر السلطان برقوق يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق فى مايو سنة ١٣٩٤ لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمور لك ضد حدوده، فى الوقت الذى أرسل السلطان العثماني بايزيد رسلاً بعرض رغبته فى محالفة لسلطان برقوق فى حربه مع تيمور. وكتب برقوق لأحمد بن أويس نقلياً بنبأبة السلطنة ببغداد، وزوده بالسلاح والمال، فتمكن ابن أويس بفضل الجيش المملوكى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد^(٢).

حملة يقوبوليس الصليبية:

ثم عاد السلطان العثماني بايزيد إلى أوروبا لمواجهة الأخطار الجديدة التى تهدده، ففى سنة ١٣٩٣ عقدت البندقية والمجر اتفاقية جديدة ضد الأتراك، وطلب الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوجوس المساعدة من أوروبا ضد العثمانيين. وعندئذ ساند بايزيد يوحنا السابع ضد مانويل، كما بدأ فى الحصار الثانى لمدينة القسطنطينية فى عام ١٣٩٥ م^(٣).

وكان التهديد المباشر للعثمانيين فى أوروبا يأتى من دولة المجر، فقد طلب ملك المجر سيغيسموند Sigismund المعونة من المغرب الأوروبى عام ١٣٩٥ للوقوف فى وجه

= بالامتلاء على لبريز، التى أضحت عاصمة القراقرنيلين، وأعلن نفسه حاكماً مستقلاً وقد أكرم قرايوسف على مواجهة تيمور ولكنه فرأى أمامه لائناً بمصر المملوكية، ولم يسترد لبريز إلا فى عام ١٤٠٦.

أنظر: روزدث: الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(١) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) ابن لياس: بدائع الزهور فى رتاج الدهر، ج-٢، ص ٣٠٢، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(3) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 83-84.

Shaw, op. cit., p. 33.

العثمانيين، في الوقت الذي دعا بابا روما بونيفاس التاسع (١٢٨٩ - ١٤٠٣) لحرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، ومنح غفرانه لجميع المسيحيين الذين سيتوجهون لإنقاذ المجر والدفاع عن الممالك المسيحية المجاورة لها. وكان رد الفعل سريعاً، فقد أتى الحلفاء والألمان والإنجليز، وتطوع الكثيرون من المرتزقة من أسبانيا وإيطاليا، وأبدى كثير من شباب فرنسا وبورجندي حماساً منقطع النظير للاشتراك في الحملة الصليبية، وتقرر أن يشارك في تلك الحملة يوحنا كونت نيفير Count de Nevers ابن دوق بورجندي، وكان تحت قيادته كونت دي لامانش، وثلاثة من أبناء عمومة ملك فرنسا، وجيمس دي بوربون، وهنري وفيليب دي بار. وزحف الفرنسيون في جماعات من فرنسا حوالى منتصف مارس سنة ١٣٩٦، وفي أثناء عبورهم ألمانيا التحق بهم نادر ككونت هو هنزلرن، ومقدم منظمة التيوتون، ومقدم منظمة فرسان القديس يوحنا برودس فيلبرت دي فايلاك Philibert de Naillac الذي أتى بأسطول يندقي جنوى مشترك. وجاءت جماعات أخرى من النمسا ومكوتلند وبوهيميا وبولندة وسويسرا، وبصفة خاصة من الاشيا (في جنوب شرق أوروبا وتقع الآن في رومانيا). ومنذ قيام الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لم يجتمع مثل هذه القوات الفخمة^(١). ووصف المؤرخون هذه القوات بالشجاعة، وقالوا في رجالها: لو مقطعت السماء، فسوف يرفعونها بأطراف حرايهم^(٢). وقد قدرت الجموع الصليبية بحوالى مائة ألف احتشدت في بودا Buda، حيث عقد مجلس الحرب العام لأول مرة في صيف عام ١٣٩٦ لرسم الخطط وتكتيكات المعركة^(٣).

وتقابل الباحث مشكلة في تحديد حجم الجيش التركى في موقعة نيقوبوليس كما هو الحال بالنسبة للجيش المسيحى. إذ قدمت المصادر المسيحية المعاصرة للقارىء أعداداً مبالغاً

(1) Creasy, Turkey, pp. 38-39, Shaw, op. cit., p. 33, Nicol, op. cit., pp. 69-70, Atiya (Aziz S.), The crusade in the later Middle Ages (New York, 1970), pp. 435-436.

عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٢) ص ٩٣ - ٩٥، ونسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣١، ص ٧٦٣.

(2) Creasy, op. cit., p. 39.

(٣) عزيز سوريال، المرجع السابق، ص ٩٥، ونسيان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٣ - ٧٦٤.

Atuya, op. cit., p. 441.

فيها. ولا شك أنها حاولت تبرير الهزيمة المتكررة التي منى بها الجيش الصليبي بطريقة منطقية. وبالنظر إلى الاستراتيجية التي اتبعها الصليبيون، أو بالأصح نقاط الضعف فيها، فلا يبقى ضرورة إلى ذكر التفوق العددي للأتراك لتفسير انتصارهم. فالواقع إن الإشارة إلى أن عدد الجيش التركي كان حوالى أربعمائة ألف مقاتل، كما ذكر أحد كتاب المصور الوسطى أمر غير مقبول تماماً، وكذلك أيضاً أنه كان مائة ألف مقاتل هو أمر غير واقعي وهو الذى افترضه العديد من العلماء المحدثين. ويميل المؤرخ الحديث ديلبروك Delbrück إلى أن يكون حكماً حذراً فى استخدامه الإحصاءات التى قدمها المؤرخون فى المصور الوسطى قام بتخفيض أرقامهم عن الجيش التركي إلى ما بين أحد عشر ألفاً، وإثنى عشر ألفاً، ويتيح هذا الرقم ميزة بارزة فى القوى البشرية، بالإضافة إلى الموقع الدفاعي الذى سيطر عليها وزاد من قوة تفوق السلطان بايزيد^(١).

ولم يكن السلطان العثماني بايزيد غافلاً عما بدر من حوله، فحينما بلغته الأنباء بأن الحملة الصليبية احتشدت فى بلاد المجر، كان يحاصر القسطنطينية. فبادر على الفور إلى استدعاء كل من فى متناول يده من المماكر، وتوجه بهم صوب الشمال إلى نهر الدانوب، وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة ألف رجل^(٢).

على أن فرمان الغرب الأوربي لم يتعلموا شيئاً من تجربة الحروب الصليبية، فحينما جرت مناقشة خطة الحملة فى بودا، نصح الملك المجرى سيجسموند باتخاذ خطة الدفاع، إذ كان يعلم ما عليه خصمه من قوة، فاعتقد أنه من الأجدى أن يستدرجوا الأتراك إلى داخل بلاد المجر، ثم يهاجمونهم من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها. ولم يختلف الملك سيجسموند عن الأباطرة البيزنطيين أثناء الحملات الصليبية المتقدمة، إذ اعتقد أن سلامة العالم المسيحي تتوقف على المحافظة على مملكته، غير أن حلفاءه كانوا كالحاربين الصليبيين الأوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير، فسوف يجرى التغلب على الأتراك وتتقدم الجيوش المسيحية منتصرة فى الأناضول، إلى بلاد الشام وإلى المدينة المقدسة ذاتها^(٣). وبدور هذا واضحاً مما قاله المؤرخ المعاصر للحملة فروازار Froissart: «لقد جاءوا ليقهروا كل تركيا وليواصلوا سيرهم إلى إمبراطورية الفرس.. وإلى مملكة سوريا، والأرض المقدسة». وعلى أية حال، لم

(١) داهموس، صبح معارك فاصلة فى المصور الوسطى، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) رنيمان: للمرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٤.

(٣) رنيمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٤، هنز سوزيال، المرجع السابق، ص ٩٥.

يعمل القادة الغربيون بنصيحة ملك المجر سيجموند، ولم يأخذوا محاربتهم هذه مأخذ الجد، وكانت خبرتهم بجغرافية الشرق مهوشة ومضللة^(١).

مارت القوات الصليبية المتحدة على محاذاة نهر الدانوب حتى أورشوفا، حيث عبروا النهر عند البوابة الحديدية المشهورة التي تؤدي إلى بلغاريا، وكانت في نطاق العثمانيين. ثم توجه الصليبيون إلى مدينة ويدين التي كان يحكمها أميراً بلغاريا إسمه يوحنا سراخيمير، وهو من أتباع السلطان بايزيد، ولم يكن بالمدينة إلا حامية تركية صغيرة. فلما وصل الصليبيون إلى المدينة انحاز إليهم يوحنا سراخيمير وفتح لهم الأبواب، ودارت مذبحة في الأتراك. أما المدينة التالية الواقعة على النهر فكانت راهوفا، وهي معقل منيع يحيط به خندق وسوران، وينزل بها حامية تركية ضخمة. فاندفع على الفور لمهاجمتها الفرسان الفرنسيون المعروفون بشدة عنفهم وثورهم، بقيادة فيليب أرنوا كونت إيه، ويوحنا لى مينجر المعروف باسم المارشال بوميكوت Baucicout. وكلا الفرنسيون يتعرضون لخطر الإبادة لو لم يبادر سيجموند بجلب العساكر المجرية. ولم يكن يوسع الحامية التركية أن تظل على مقاومتها زمنا طويلا أمام الجيش الصليبي بأكمله، وتنتهي الأمر باتحامها، وتعرض للقتل بالسيف جميع سكانها، ومنهم عدد كبير من المسيحيين البلغارين، ولم يبق الصليبيون إلا على ألف رجل من كبار الأغنياء، احتفظوا بهم للحصول على فدية^(٢).

وزحف الجيش الصليبي من راهوفا إلى نيقوبوليس التي تعتبر أهم معقل للأتراك على نهر الدانوب، وتقع في الموضع الذي يصل فيه الطريق القادم من وسط بلغاريا إلى النهر. ولم يجلب الصليبيون معهم أدوات الحصار، إذ لم يدركوا الحاجة إليها، ولم يستعد ملك المجر سيجموند إلا لاتخاذ خطة الدفاع. وبعد أن ثبت أنه لا فائدة للسلام التي نصبها الفرنسيون في عجلة، ولا للتقوب التي حفرها المهندسون المجرئون، رقب الجيش الصليبي استسلام المدينة حتى لا تهلك جوعاً، وساند الصليبيون في الحصار قلوب أسطول لفرسان القديس يوحنا رمى بالدانوب قبالة أسوار المدينة في ١٠ سبتمبر سنة ١٣٩٦، غير أن المؤن

(١) هزبر موريل: المرجع السابق، ص ٩٥. Atya, op. cit., pp. 441-443.

(2) Creasy, Turkey, pp. 39-40, Atiya, op. cit., pp. 443-444.

رنيجان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٥.

كانت وفيرة في نيقوبوليس^(١). أما حاكم المدينة التركي دوغان بك، الذى علم بمصير مواطنيه في ودين وراهوفا، فلم تكن عنده النية لتسليمها، وأبدى شجاعة فائقة عنيدة في مقاومة الصليبيين^(٢).

على أن الانتظار والتحمل أدى إلى هبوط الروح المعنوية للجيش الصليبي، ذلك أن فرسان الغرب الأوربي صاروا يلهون أنفسهم بلعب القمار وشرب الخمر والعريضة، وكل مظاهر الفجور والفسق. وإذا حدث أن نقرأ بعض الجنود على الإشارة إلى أن الأتراك أعداء أشداء، أمر المارشال يوسيكوه بقطع آذانهم، عقابا لهم على روح الإنهزامية. ووقعت المشاجرات بين مختلف فصائل الجيش الصليبي، بينما أخذ أتباع سيجموند الترانسفانينون، وحلفاؤه الرولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الجيش^(٣).

وبعد أن أمضت الحملة الصليبية أسبوعين أمام نيقوبوليس، جاءت الأنباء بأن الأتراك أخذوا يقتربون من المدينة، فقد تحرك جيش السلطان على عجل من تراقيا، كان خفيف التسليح، فاق فرسانه خيالة الصليبيين في سرعة الحركة، واشتهر رمائه بروعة التدبير، واكتمال النظام، والطاعة التامة لقيادة السلطان^(٤). وكان هناك نوع من الفرسان غير المنظمين الذين يتقدمون الجيش الرئيسى، لكنى يوقعوا الفوضى في جيش العدو، والعمل على إعاقة تقدمه، أو يقومون بشن الغارات المتكررة على جناحي جيش العدو، وأحيانا يقوم هؤلاء الفرسان خفيفي العدة، بالعمل كأدوات لجذب العدو للمعركة ويتظاهرون بالهروب بعد أول لقاء مع هذا العدو، عند ذلك يتدفع العدو إلى الأمام، على أمل إحراز نصر سهل، دون أن يتوقع أنه قد وقع بالفعل في فخ نصبه الطرف الآخر^(٥).

وقبل حدوث المعركة بين الجيش الصليبي والجيش العثماني في نيقوبوليس ظهرت للعيان نقطة الضعف الرئيسية في الجيش الصليبي الذى كان يفتقر إلى وجود قيادة موحدة،

(١) ونسيان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٦٥ - ٧٦٦.

(2) Creasy, Turkey, p. 40.

(٣) ونسيان: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٦٦. Atiya, op. cit., p.445.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٦٦.

(٥) فاهموس: سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ص ١٩٨.

لقد كان سيجموند ملك المجر القائد العام بصفة رسمية. فإذا لم يكن قد وافق على السماح للفرنسيين ليكونوا أول المهاجمين للمدو على سبيل المثال، لقام الفرنسيون رغم أنف الجمع، بتنفيذ رغبتهم^(١). وبعبارة أخرى كان سيجموند يريد الانتظار حتى يقوم بايزيد بالهجوم، وأن يتصدى المجرىون لهجوم المشاة، أما الفرسان فيكونون خط الدفاع الثاني، ولكن الفرسان ظنوا أن سيجموند يرمى من وراء هذا إلى الانفراد بشرف هزيمة بايزيد، فخالفوه في رأيه، وانتهى أمرهم بأن تقدموا وحدهم إلى الموقعة التي هزموا فيها هزيمة منكرة^(٢). كما لم يكن سيجموند متأكدًا على الإطلاق من أن الوالاشيين والترانسالفانيين الذين كانوا ضمن رعاياه، أنهم سيحترمون أوامره. وباختصار كان جيشه به نقطة الضعف الرئيسية في الجيش الإقطاعي التقليدي^(٣).

وفي يوم الإثنين ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦ (٧٩٨هـ) أضحت مقدمة الجيش العثماني ظاهرة للعيان، فعمكرت في التلال على مسافة ثلاثة أميال من الصليبيين. وفي صبيحة اليوم التالي وقبل شروق الشمس، قام سيجموند بزيارة زملائه من القادة، وتوصل إليهم أن يقوا على التزام خطة الدفاع. ومع أنه لم يخطرهم صراحة أنه لا يثق في عساكره من الترانسالفانيين والوالاشيين، فإنه لم يلق التأييد إلا من سيد كورسي The Sire de Courcy وروحنا سيد فيينا، بينما عزم القادة الآخرون على المبادرة على الفرد إلى أن ينسحبوا المعركة، ولم يسمع سيجموند إلا أن يدعن في ضعف. فجعل جيشه في ثلاثة أقسام: احتل عساكره المجرىون قلب الجيش لداريتهم بطرق الأكرار الحربية، بينما اتخذ الوالاشيون مواقعهم في الميسرة، وكان الترانسالفانيون في الميمنة^(٤)، على أن تبقى القوات الفرنسية الأجنبية من أجل الضربة الحاسمة، ولكن الفرنسيين الأقوياء أبوا في ثقة زائلة وخطرة تنفيذ هذا الرجاء الذي طلبه سيجموند، واتهموه بأنه يحاول أن يسلبهم حق الفخر يوم عظيم مشهور^(٥).

(1) Stavrianos, op. cit., p. 48.

داهموس: المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٢) محمد أمينة: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٤٤ - ص ٤٥.

(٣) داهموس: المرجع السابق، ص ١٩٩.

(4) Creasy, Turkey, p. 40.

رئيسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٧٦٧.

(5) Creasy, op. cit., p. 40.

عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٩٦.

ومن ثم تألفت مقدمة الجيش من جميع القادمين من الغرب الأوربي بقيادة يوحنا كورت نيفر، وهو أكبر أبناء دوق بورجندي وولي عهدا، وهو شاب نشيط فى الرابعة والعشرين من عمره.

ولما طلع النهار، لم يتراءى من الجيش التركى سوى الخيالة الخفيفة الذين لم يكونوا نظاميين، على منحدر التل، ومن ورائهم اتخذ الرجال الترك مواقعهم، وفعيلة من الرماة، يحميهم حاجز مصنوع من أعمدة مديية من الخشب. أما القوة الرئيسية من الخيالة الباهية، التى يقودها السلطان بايزيد نفسه، فإنها كانت مختفية فى قمة التل. وكان على ميسرة السلطان فرقة من الخيالة المصريين بقيادة الأمير ستيفن لازاروفيتش الذى يعتبر من أتباع السلطان المخلص^(١).

دلت المعركة، وفقا للخطة الحربية السابقة، على أن الصليبيين لم يتعلموا شيئا فى كل الأزمنة. فلم ينتظر فرسان الغرب بالمقدمة كيما يخطروا سينجمون بدخولهم. فقد دفعهم الحماس الصادق بالغ الارتفاع على أن يهاجموا التل، فشتوا أمامهم فرسان الترك. وبينما كان الأتراك يجمعون شملهم من جديد وراء الرجالة، أعاق فرسان الغرب عن الحركة أعمدة الحاجز المديية، فبادروا إلى التراجع عن أفراسهم، وواصلوا الهجوم على أقدامهم، فترعوا الأعمدة من الأرض كلما تقدموا. كان ذلك حافزا لهم على الهجوم، حتى نشأت أيضا شمل الرجالة الترك. ومع أن بعض الترك استطاعوا أن ينسحبوا إلى ما وراء الخيالة الذين اجتمعوا من جديد، فإن عددا كبيرا منهم تعرضوا للقتل أو جرى قذفهم إلى السهل. على أنه حينما أسرع الصليبيون فى نشوة انتصارهم وزعم ما عانوه من تعب وإرهاق بالمسير، وبلغوا قمة التل، أضحوا وجها لوجه مع فرسان بايزيد الباهية والصريين. ففاجأهم هذه القوات الجديدة النشطة. ولما كانوا مترجلين، وحل بهم التعب، واشتد ظمأهم، وأرهقهم ما يحملون من أسلحة ثقيلة، لم يلبث نظامهم أن اضطرب، وتحول انتصارهم إلى هزيمة، وغرق الكثير من القواد أثناء محاولتهم عبور الدانوب. ولم ينج من القتل إلا عدد قليل من الفرسان، ولم ينج يوحنا كورت نيفر إلا لأن خداه هتفا باسمه

(١) زنجمان: المرجع السابق، جـ ٣ ص ٧٦٧، عزز سوربال، للرجع السابق، ص ٩٧،

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 446.

وأقنموه بالإذعان، ومن وقع معه فى الأسر المارিশال يوميكو^(١). وكان ملك البحر سيجسموند من بين القلة التى لأذت بالفرار ومعه رئيس فرسان القديس يوحنا برودس إلى ييزنطة، وقد اضطر سيجسموند إلى ترك ميدان المعركة والهروب مستخدماً سفينة فى نهر الدانوب^(٢).

وعلى الرغم من أن معركة نيقوبوليس إنتهت بالقضاء على الجيش الصليبي، فإن القتال الذى خاضه العثمانيون كان شرساً، وقد انزعج السلطان بايزيد لما أصابه من خسائر قدرت بثلاثين ألف مقاتل، ولذلك أظهر سخطه فى اليوم التالى بإعدام ثلاثة آلاف من أسرى الحرب، ولم يبق إلا على حياة عدد قليل يمكن الحصول على فدية ضخمة منهم^(٣).

وبعد الكارثة التى حلت بالفرسان الصليبيين فى تلك المعركة، لم يبق لدى دول الغرب الأوروبى أى اعتماد للدخول فى مغامرات خطيرة لهزيمة قوة الإسلام أو لوضع نهاية لميطرة الأتراك العثمانيين. وبدأت فخذ ثورة الدعاية الهائلة التى ظهرت فى أوائل القرن، بالرغم من وجود بعض الكتاب الذين كانوا ينادون باستئناف الحروب الصليبية^(٤).

تعتبر حملة نيقوبوليس الصليبية آخر الحملات الصليبية الكبيرة. إذ أن طابع تاريخها المثير للأسى، احتذى فى دقة مؤلة نهج الحملات الصليبية التى تعرضت فى الماضى لكوارث فاجعة، وكل ما بينها من اختلاف أن ساحة المعركة أضحت فى أوربا، لا فى آسيا. وما وقع فيها من أخطاء وحماقات كانت واحدة، كل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل الذريع الأخير، هو أنه لم يعد للحرب المتقدمة وجود من الناحية العملية^(٥).

(1) Creasy, op. cit., pp. 41-42, Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 84-85,

رنيمان: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٦٨.

(٢) داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٠،

Schevill, op. cit., p. 188, Ostrogorsky, op. cit., p. 552, Castellan, Hist of the Balkans, pp. 58-59.

(3) Atiya, op. cit., pp. 455-456

عزيز سرديال: المرجع السابق ص ٩٧، رنيمان: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٦٨ - ٧٧٠.

(٤) عزيز سرديال: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨.

(٥) رنيمان: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٧.

وعلى الرغم من أنه لن تقوم حملات صليبية أخرى، غير أن السلطان بايزيد ظل يهدد جوف العالم المسيحي، إذ بلغ نهر الدانوب، وشواطئ البحر الأدرياتي. ومع أن القسطنطينية لازالت بأيدي المسيحيين، فإنها أضحت معزولة، ولم يبق عليها إلا أنه لم يتوفر للسلطان من المدفعية القوية ما يكفي لذلك أسوارها الضخمة، كما لم يكن لديه من السفن ما يكفي لقطع طرق مواصلاتها بحراً^(١).

وتعتبر كارثة نيقوبوليس من أهم أحداث أواخر العصور الوسطى ليس فقط بسبب الأهمية التاريخية لمن اشتركوا فيها، بل أيضاً لأنها كانت آخر مشروع دولي هام نفذته فرسان الإقطاع. وقد أثبت الصربون ولاهم للدولة العثمانية في ساحة نيقوبوليس التي تم فيها إحراز النصر بمساعدة مسيحي البلقان. ووصل السلطان بايزيد قمة مجده، فأرسل من ميدان القتال إلى قاضي بروصة يلفه بأبناء النصر الذي أمكرته نشوئه، فأعلن في نشوة النصر أنه سيحتل إيطاليا وأن حصانه سيتناول طعامه على صليح كنيسة القديس بطرس بروما. كما بعث من أدرنه برسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامي يوز إليهم بشري انتصاره في نيقوبوليس، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات عواهل المسلمين مجموعة متقاة من الأسرى الصليبيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً مادياً على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب «سلطان الروم» كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم في دولة المماليك بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب، حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجناداه من قبل طابعا شرعياً رسمياً، فتزاد هيبة في العالم الإسلامي، ولم يكن السلطان المملوكي يجد مبرراً لعدم الاستجابة لطلب بايزيد، إذ كان يرى في العالم العثماني حليفه الأوحيد ضد قوات يحمو لك التي كانت تهدد كلا الطرفين^(٢).

ولاشك أن الانتصار الذي أحرزه العثمانيون على الحملة الصليبية في نيقوبوليس قد زاد من مخاوف الأوربيين، في الوقت الذي أضاف للعثمانيين وصيداً ضخماً من النفوذ في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأوجد إمبراطورية مركزية تمتد من الدانوب إلى الثرات.

(١) المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٧١.

(٢) أحمد عبد الرحمن مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٥٤ - ٥٥،

ونتيجة لذلك تدفق آلاف المسلمين على الأناضول، ودخلوا في خدمة بايزيد، ولم يشتملوا فقط على الرعاة لتركمان، بل أيضاً على الكثير من الذين شكلوا العمود الفقري للحياة الإدارية والاقتصادية في إيران والعراق وما وراء النهر، بالإضافة إلى الفارين من الفوضى التي أعقبت انهيار حكم الإيلخانيين^(١)، ورحف يبحر لك على أواسط آسيا الصغرى^(٢).

ونصل إلى القول إن الحملة الصليبية في نيقوبوليس، كانت كارثة للفروسة الأوروبية، أنهت مصير القسطنطينية، وثبتت أقدام العثمانيين في البلقان، ومهدت الطريق لتقدم العثمانيين إلى بوزا وفينا^(٣).

نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبوليس:

وبعد موقعة نيقوبوليس رجع السلطان بايزيد إلى أدرنة، وكانت قواته قد أغارت على الأناضول والجزيرة والبوسنة وبلاد الشام، واستولت على آخر إمارة بلغارية مستقلة في ودين، حيث شكلت الأخيرة مع ملطريا ونيقوبوليس قاعدة أمامية جديدة تنطلق منها الجيوش العثمانية الموجهة ضد المجر والأناضول في سنة ١٣٩٦. وعرت القوات العثمانية أيضاً ألبانيا، وشيد بايزيد قلعة أناضولو حصارى - أى قلعة الأناضول - على أضييق نقطة من البوسفور للسيطرة على وصول البيزنطيين للبحر الأسود. وأعد بايزيد نفسه لحصار القسطنطينية عقاباً لموقف إمبراطورها المؤيد للحملة الصليبية، وبدأ الحصار الثالث لها في سبتمبر سنة ١٣٩٦ م، ولكن الحصار لم يأت بنتيجة، وبما لأن أدوات الحصار كانت تنقصها الكفاءة، ويزيد الاحتمال

(١) إيلخان كلمة تركية مركبة من لفظين هما: إيلن وغان، الأولى بمعنى تابع والثانية بمعنى حاكم وملك ورئيس عشيرة، وبذلك يكون معنى إيلخان هو الملك التابع، إلى الحاكم لاحدى الولايات في الدولة ويتبع الخاقان الأعظم الذى يحكم الدولة كلها، وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكو حفيدى جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية ابتداء من أباتا (١٢٦٥ - ١٢٨٢)، ثم أطلق على حكام المنغول فى إيران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم، وصارت دولتهم تعرف بالدولة الإيلخانية، واستمرت هذه الدولة تحكم خراسان وبلاد الجبل وقرس وكرمان وما بين النهرين والعراق وآسيا الصغرى وجزء من بلاد الشام إلى فترة محدودة، واستمرت هذه الدولة قرناً من الزمان إلى أن انقرضت فى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٦). أنظر دائرة المعارف الإسلامية، محمد أحمد محمد: إسلام الإيلخانيين (القاهرة ١٩٨٩)، ص ١٠٧.

(2) Shaw, op. cit., p. 33.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 48.

فى أن المستشارين المسيحيين الموجودين فى بلاط بايزيد، قد أوعزوا إليه أن حصار القسطنطينية سوف يغرى الأوربيين على القيام بجهود صليبية ضده. وأخيراً قرر السلطان أن يفك الحصار فى مقابل زيادة الجزية المفروضة على الإمبراطورية البيزنطية، وفى اتفاقية عقدها بايزيد مع الإمبراطور مانويل الثانى (١٣٩١ - ١٤٢٥م) وافق الأخير على أن خلفاءه ينبغي أن يقرهم السلطان فى العرش^(١).

وفى هذه الأثناء وجد الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى نفسه مهدداً من منافس له على العرش يسانداه السلطان العثماني بايزيد، ولم يكن هذا المنافس سوى يوحنا ابن أخيه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نزلت الإمبراطورية إلى وضع بالغ الصعوبة، جعل مانويل الثانى يتوقع اللحظة التى يجبر فيها على الخروج من القسطنطينية، وتحسباً لذلك عقد العزم على تسليم العاصمة إلى جمهورية البندقية، وعرض أن يمنحها أيضاً جنر إمبروس ولينوس. ورفضت البندقية هذه العروض، وشجعت الإمبراطور على الثبات، وزودته فى الوقت نفسه بقاعدة للمقاومة بأن جهزت سفناً حربية لحماية المستعمرة البندقية، وحلّت جنوه حنوها بالنسبة إلى مستمراتها^(٢). ومن جهة أخرى، وجه مانويل الثانى نداءً جديداً إلى الغرب، وقد توصل المساعدة، ليس فقط من روسيا، ولكن أيضاً من البابا، ودرج البندقية، وملوك فرنسا وإنجلترا وأراجون Aragon، وراحت شخصيات موثوق بها تطوف أوروبا نيابة عنه. فاستجاب شارل السادس ملك فرنسا وأرسل قوة من ١٢٠٠ رجلاً بقيادة المارشال بوميكو من إيج مورت Aigues Mortes، وانضمت إليه فى الطريق تعزيزات جاءت من جنو، والبندقية ورودس ولشبوس. وهاجم بوميكو الأتراك بشجاعة كبيرة، وطهر النواحي الجاورة للقسطنطينية من المعاصبات التركية التى تغير عليها، ولكن كما هو متوقع، فإن قوته الصغيرة، مهما أوتيت من حظ، لم تستطع أن تخلص الإمبراطورية من الخطر العثماني، وبعبارة أخرى لم يقدر بوميكو على مواصلة قتال العثمانيين، فقرر الرجوع إلى فرنسا سنة ١٣٩٩، وأشار على الإمبراطور مانويل الثانى بالسفر معه إلى أوروبا ليشد أزره فى طلب المعونة من حكام أوروبا^(٣).

(١) Shaw, op. cit., p. 33.

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى العصر الوسطى، ج٣، ص ١٢٢ - ١٢٣،
Hearsey, City of Constantine, pp. 230-231, Ostrogorsky, op. cit., pp 554-555.

(٣) هايد: تاريخ التجارة، ج٣، ص ١٢٢ - ١٢٣،
Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 555.

وقد غادر الإمبراطور القسطنطينية في ١٠ ديسمبر سنة ١٣٩٩، يحدوه الأمل في الحصول على مساعدة من الغرب الأوربي، وعهد بأمر الدولة إلى ابن أخيه يوحنا. واتزعج الإيطاليون عندما شاهدوا كيف أضحي وريث القياصرة فقيراً، فبدل له دوق ميلان الهدايا الرائعة الملائمة لمكانته، ولقي الإمبراطور ترحيباً بالغافى كل مكان، خاصة في باريس ولندن، غير أنه لم يلقى مساعدة مادية، وحصل على وعود غامضة لم تنفذ. أما البايوية فلم تخفل بالإمبراطور، إذ كن ماتوبل كان من الأمانة ما يمنعه من الوعد بأن تخضع كيته لروما، لعلمه أن قومه لن يقبلوا ذلك، ولم يعد ماتوبل إلى عاصمته إلا في سنة ١٤٠٢م، وقد أطرته الأنبياء التي تنذر بسقوط الإمبراطورية العثمانية^(١)، وهي ظهور يحمو لنك.

وفي أثناء انشغال بايزيد في أوربا، قام علاء الدين على بك أمير قرمان بمحاولة لاستعادة ما فقدته على أيدي العثمانيين، فمستولى على أنقرة عاصمتهم في الأناضول، ثم تقدم من خلال كرميان نحو برودة عاصمة العثمانيين القديمة. وعندئذ قرر بايزيد مواجهته من جديد، فجمع جيوشه الروميلية (الأوروبية) والأناضولية في برودة، وتحرك على رأس جيش ضخم تتجاء قونية، وهناك أحس علاء الدين أنه لا يستطيع مواجهة بايزيد، فأعاد إليه كل الأسرى والغنائم التي استولى عليها، واقترح على بايزيد عقد السلام بينهما. ولكن بايزيد رفض هذا العرض، ودخل في معركة مع علاء الدين في سهل أكشاي Akcay، في عام ١٣٩٧، انتصر فيها بايزيد، وأمر بإعدامه بعد وقت قصير من المعركة^(٢). وفي العام التالي تقدم بايزيد بحذاء ساحل البحر الأسود، ووصل نفوذه إلى حدود طرابزون البيزنطية، فيما عدا مستعمرة جنوبية في أميسوس Amisus شرق مسمون، ظلت بعيدة عن سيطرته. وقد جعلت تلك الغزوات بايزيد يسيطر على كل أراضي الشمال والغرب جنوب غربى دولة القاضى برهان الدين فى وسط الأناضول. وعندما مات القاضى برهان الدين فى عام ١٣٩٨، أجبرت الانقسامات الداخلية أمراء دولته على قبول سيادة بايزيد، مقابل المساعدة

(١) رنيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٧٢.

Ostrogorsky, op. cit., p. 555, Barker (John W.), Manuel II Palaeologus (1391-1425): A Study in Late Byzantine Statesmanship. (New Jersey, 1969), p. 215, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 633.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 34.

ضد الهجمات المتصاعدة التي يقوم بها التركمان «الشاة البيضاء» في الشرق. وبذلك صار العثمانيون على اتصال مباشر مع الإقليم المملوكي المتد من ملطية إلى قيليقية^(١).

وفي يونيو عام ١٣٩٩ توفي السلطان المملوكي برقوق، وتولى من بعده ابنه السلطان فرج، وهو شاب عديم الخبرة. ووصلت الأخبار إلى بايزيد أن تيمور لك قد انشغل بغزواته في الهند، فاستأنف بايزيد غزواته في الشرق، وكان هدفه المباشر إمارة دلفادر التابعة لسلطنة المماليك، فانتهاز فرصة قيام القروضى التي أعقبت موت برقوق، وضم تلك الإمارة إلى ممتلكاته في أغسطس ١٣٩٩. ثم بعد ذلك استولى بايزيد على معظم قيليقية من المماليك، ثم تحرك إلى شرق الفرات، وأعاد وحدة الأناضول التركية^(٢).

معركة أنقرة:

وفي ربيع سنة ١٤٠٠ استعاد تيمور لك حكمه في آذربيجان وشرق العراق، وأجبر ملك جورجيا المسيحي على الاعتراف بنفوذه. حدث هذا في الوقت الذي قام فيه السلطان العثماني بايزيد بالاستيلاء على أرزنجان وكماخ Kemah من مطهر الدين بك الذي كان من أتباع تيمور لك ويحتج بحمايته، وبذلك أصبح الصدام بين تيمور لك وبايزيد لا مفر منه. وعندما وصل تيمور إلى باسنلر Pasinler بالقرب من أرضروم، انضم إليه عدد من الأمراء التركمان الذين طردهم العثمانيون من أراضيهم واستولوا عليها، وطالبوه بمساعدتهم في إعادة تلك الأراضي لحوزتهم^(٣). فأرسل تيمور لك سفراء من قبله، أخبروه أن الخان الأعظم تيمور لك لا يسمح لبازيد أن يستولى على أقاليم لا تحضه ويضمها إلى نفوذه كما يجعل من نفسه حاكما عظيما يهدد نفوذه، وطلب منه السفراء أن يعيد الأراضي التي استولى عليها بالقوة لأصحابها، ولكن بايزيد رفض وأمر بقص لحى السفراء وأعادهم في صورة مهينة لتيمور لك^(٤).

(1) Ibid., p. 34.

(2) Ibid., p. 34-35.

(3) Ibid., P. 35.

(4) Doukas, Decline and Fall of Byzantium., p. 38.

ولاشك أن ظهور تيمور لنك فى جنوب غربى آسيا واحتمال اصطدامه بالعثمانيين شجع العالم المسيحى الأوروبى على الاقترب من تيمور، فوجدت الأفكار التى سادت أيضا أوروبا إبان غزوات المغول الأولى فى القرن الرابع عشر، وهى محاولة استغلال هذه القوى العسكرية بتحويلها إلى المسيحية، والانتفاع منها فى تجنب خطرهما وفى تحطيم القوى الإسلامية المجاورة لهذا العالم المسيحى^(١). وشعرت القسطنطينية بالارتياح وتنفتحت الصعداء عند اقتراب الصراع بين بايزيد وتيمور، وبدأ يوحنا الوصى على عرش القسطنطينية المفاوضات مع تيمور، وفعل نفس الشيء شارل السادس ملك فرنسا، بل حتى إمارة طرابزون الصغيرة أرسلت إليه ما يعبر عن تقديرها له، معلنة استعاضتها للسماح له باستخدام مينائها الوحيد، وكذلك وعده أهالى جنوه الذين يديرون منطقة ييرا Pera فى الجزء الذى يقع عند القرن الذهبى من القسطنطينية بإرسال سفنهم، ومنع أى إمدادات عسكرية تركية تحاول العبور من أوروبا إلى آسيا الصغرى^(٢). ولكن كل هذه التعهدات باءت بالفشل، لأن تيمور لم يتحول عن الإسلام، ولأنه كان يدرك أن الممالك المسيحية لا يعنىها شئ سوى أن يقضى بايزيد وتيمور على بعضهما البعض^(٣).

ولما أدرك تيمور أن بايزيد لم يستجب لطلباته، بدأ بالزحف نحو سيواس العاصمة القديمة للقاضى برهان الدين، والتى استولى عليها بايزيد قبل ذلك بوقت قصير، وأسند حكمها لابنه سليمان. ولم يلبث تيمور أن استولى عليها فى ٢٧ أغسطس سنة ١٤٠٠م، وأعمل القتل فى المسلمين والمسيحيين على حد سواء^(٤). ثم بعد ذلك تحرك تيمور جنوباً لتقوية موقفه متنهزاً حالة الضعف التى باتت فيها دولة المماليك الجراكسة، وتقدم فى بلاد الشمال المملوكية، واستولى على ملطية وعينتاب وحلب فى أكتوبر عام ١٤٠٠م، وفى الأخيرة لجأ تيمور لنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب، فهجم أصحاب تيمور عليهن وريطوهن بالحبال وأعملوا فيهن السيف. ثم صارت الأبنكار تفتض من غير تستر والمخدرات يفسق فيهن من غير احتشام^(٥)، كما

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٤٧.

(٢) ديموس: سبع معارك قاصلة فى العصر الوسطى، ص ٢٠١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٣١.

(٥) أبو الهامان: انجم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٢٣، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٣٤ - ١٣٥.

استولى تيمور على دمشق في ديسمبر من نفس العام، وقد سحق الجيش المملوكى عدة مرات، وفتح الآلاف أثناء زحفه^(١). ولتهدى الأمر على هذا النحو، وغادر تيمور بلاد الشام بعد أن دك معالم حضارته دون أن يدخل مصر.

وبينما كان تيمور فى الجنوب، تحرك بايزيد فى مؤخرته فى الأناضول الشرقية، واستعاد ميواس وأرزنجان، بهدف الحصول على ميزة استراتيجية قبل أن يموت تيمور. وفى ربيع عام ١٤٠٢م تناور جيشا بايزيد وتيمور، وجمع الأخير جيشا ضخما جديداً فى جورجيا، ثم دخل الأناضول عن طريق أرضروم وكماخ، وتقدم إلى قيصرية، وفرض الحصار على أنقرة ليفرض بايزيد على الدخول معه فى معركة، فى الوقت الذى حصل تيمور على مساندة معظم التركمان، الذين أعاد إلى أمراءهم أراضيهم وممتلكاتهم، بعد أن أخذها. من العثمانيين^(٢). ويبدو أن تيمور قد حصل على ميزة استراتيجية، وذلك بالتقدم من ميواس إلى أنقرة خلال الطريق الشحالى الذى تتوفر فيه المياه، على حين أن رجال بايزيد كانوا فى منطقة أقل مياه، وكان الوقت صيفاً شديد القىظ، وبذلك أجبر بايزيد على البحث عن المياه والمؤن، والقتال من أجل الحصول عليها^(٣).

وقد أمد بايزيد قيادة ميحة جيشه إلى صهر، لازاريتش ملك صربيا، وأمد ببعض الفرمان الأتراك لمساندة فرسانه ثقيلى العدة، وأمد الميرة إلى ولده سليمان، وتكونت الميرة من قوات من مقدونيا ومن آسيا الصغرى، أما قلب الجيش فقد تكون من الإنكشارية والسباهية، وتحت قيادة بايزيد نفسه^(٤). أما المؤخرة فكانت بقيادة ابنه محمد.

ويميل كثير من الكتاب المعاصرين واخدين إلى الإفراط فى تحديد أعداد الرجال فى كل من الجيشين المغولى والعثمانى. ويذكر المؤرخ جروميه Grusset أن حوالى مليون مقاتل اشتركوا فى المعركة التى دارت بينهما. وكب الفارس شيلتبرج البافارى Bavarian Schiltberger الذى عاصر هزيمة الصليبيين فى نيقوبوليس وانتقل إلى خدمة الأتراك فى

(1) Shaw, op. cit., p. 35, Donkas, op. cit., pp. 80-90.

(2) Shaw, op. cit., p. 35.

(3) Shaw, op. cit., p. 35.

(٤) داهموس، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

مذاكراته أن عدد جيش بايزيد بلغ مليوناً وأربعمائة ألف مقاتل ، وأن جيش تيمور لنك زاد عن ذلك الرقم بحوالى مائتى ألف مقاتل. وأكثر الأرقام اعتدالا كان حوالى عشرين ألف مقاتل تقريبا لكل من الجانبين^(١). وإن كانت المصادر قد اتفقت كلها على أن جيش تيمور كان أضخم^(٢).

وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة فى سهل جوبوق آباد Cubuk بالقرب من مدينة أنقرة فى ٢٧ يوليو عام ١٤٠٢ ، وقد استمرت المعركة حوالى أربع عشرة ساعة، ويبدو أن بايزيد قد أحرز انتصاراً فى أول الأمر، ولكن خيانة بعض فرقه التركمانية التى نزعت إلى إلقاء السلاح والفرار، وكذلك - طبقاً لما يذكره البعض - خيانة قواته العصرية التابعة له، قد غيرت الموقف، وتم سحق الجيش العثماني، وبعد أن تُكِّد بايزيد من هزيمته حاول الهرب، بيد أن جواده تعرض لإصابة قاتلة، ووقع أسيراً فى أيدي تيمور لنك^(٣). ويقال إن تيمور عامل بايزيد بكل إجلال واحترام، وأمر تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه، وأكد له أنه سيقى على حياته، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته، ولكن عندما حاول بايزيد الهرب، احتجز فى غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد. ومرض بايزيد، فدعا تيمور أحسن الأطباء لمعالجته، ومات بايزيد بعد عام من هزيمته^(٤) كمداً فى الأسر فى ٩ مارس سنة ١٤٠٣ ، ودفن فى بروسة فى مقبرة أجداده. ولم يمهل القدر تيمور لنك طويلاً بعد ذلك، إذ لم يكد يصل إلى سمرقند حتى بدأ استعداداته القوية لإرسال حملة إلى الصين، وغادر المدينة فى أواخر ديسمبر سنة ١٤٠٤ ، بيد أنه شعر بالمرصد بعد رقت قصير، ومات ودفن فى سمرقند^(٥).

كانت حروب تيمور لنك ضد الدولة العثمانية ناجحة، وذلك لأن تلك الدولة كانت تحمل فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى بذور عدم الاستقرار، وخاضة نظام الانفصال

(١) داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(2) Shaw, op. cit., p. 35.

(3) Shaw, op.cit., 34, Pears, The Destruction of the Greek Empire pp. 143-144.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥ ص ٦، ص ٥٧ - ٥٨، داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

Schevill, op. cit., p. 130, Creasy, Turkey, pp. 50-51.

(٥) القرطاني: أخبار الدول و آثار الأول، ص ٢٩١، داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(الأبباع) Vassal System ، الذى ترك الأمراء المسيحيين يباشرون مهام حكمهم فى إماراتهم، وبذلك كانوا عندما يصيب السلطة المركزية فى الدولة العثمانية الضعف ويؤنّها، فيوضع يؤكّدون فيه استقلالهم. وقد انهيار جيش بايزيد بسهولة فى موقعة أنقرة، لأنّه تخلى عن تقليد «الغزاة» - وهم الذين يحاربون الكفار - الذى عاد بالنجاح على أسلافه، فأبعد الضباط والجنود الذين قادوا الفتوحات السابقة^(١).

كان الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى يأمل فى أن ما حل بالسلطان العثمانى بايزيد من كارثة، قد ينهى التهديد العثمانى، غير أنه لم يكن من لقوة ما يكفى لأن يتخذ إجراء بدون قاعدة أوربية. فقد التزمت الجمهوريات الإيطالية جانب الحذر، إذ بادر الجنويون إلى عقد معاهدة مع تيمور للمحافظة على تجارتهم الآسيوية. على أن تخوفهم على تجارتهم بالبلقان، وقلقهم على المستقبل، حملهم على أن يساعدوا فى الحفاظ على القوة العثمانية، بأن نقلوا على سفنهم بقايا جيش بايزيد إلى أوروبا. أما البنادقة فالتزموا الاعتزال، وكان لحذرهم ما يبرره^(٢).

والواقع أن غزوات تيمور منعت السلطان بايزيد من شن هجوم مباشر على القسطنطينية، وأبقت على يزنطة لمدة نصف قرن آخر^(٣). فلو أن كل أوروبا بادرت إلى التدخل، لاستطاعت أن تقضى على الإمبراطورية العثمانية. غير أن الأتراك كانوا من التحامك المنصرى فى الأناضول، والاستقرار السياسى فى البلقان ما جعل من العسير طردهم، كما أنه لم يكن لتيمور المجنكيزخان من العبقرية، إذ أن إمبراطوريته أخذت تتجزأ عقب وفاته مباشرة سنة ١٤٠٥. فعجل المماليك باسترداد بلاد الشام، وظهرت فى أذربيجان أسرة «الشاة السوداء» وأقامت ملكاً امتد من شرقي الأناضول حتى بغداد، وظهرت الأسرة الصفوية فى فارس. وظلت سلالة تيمور تحكم إقليم ما وراء النهر نحو قرن من الزمن، على أنهم أقاموا فى الهند وحدها إمبراطورية فى دلهى استمرت أمدس طويلاً^(٤).

(1) Shaw, op. cit., p. 35.

(٢) رنيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٧٤.

(3) Ostrogorsky, op. cit., pp. 556-557.

(٤) رنيمان: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٧٤.

إن النتيجة النهائية لغزو تيمور بلاد الأناضول أنه أدخل بها سيلاً جديداً من الترك والتركمان، وبذا ازدادت جذور الدولة العثمانية رموخاً. فحينما مات تيمور تلمم أبناء بايزيد إرث أبيهم. وما نشب من الحروب الداخلية هياً للقوى المسيحية فرصة جديدة لتوقف النمر العثماني المتزايد للدولة العثمانية، غير أن هذه الفرصة لم يجر اغتنامها. فلما انفرد محمد الأول بالسلطنة سنة ١٤١٣ كانت الإمبراطورية العثمانية متحسكة^(١). وبعبارة أخرى، لقد قضى تيمور على القوة العسكرية للدولة العثمانية، ولكنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها، فما لبثت هذه الدولة أن انبعثت من بين الأنقاض، وانبعثت وصرى في عروقها ماء الحياة، واستأنفت سيرها إلى الأمام في لبات وقوة كمهدها من قبل^(٢).

وبوفاة بايزيد تنتهى فترة على جانب كبير من الأهمية من تاريخ الدولة العثمانية، شاهدت بدء تكوين العثمانيين كقمة ودولة. فإذا كان عثمان وأورخان قد خلقا من الجماعات العثمانية أمة ودولة، فلاشك أن مراد وبايزيد جعلتا من هذه الدولة نواة لإمبراطورية مترامية الأطراف^(٣). وفى عهد بايزيد ظهرت الدولة العثمانية كقوة فعالة فى السيادة الدولية لأول مرة، حيث كانت إحدى المحاور الأساسية للسياسة العالمية فى هذا العصر، فى منطقة امتدت من غربى أوربا، وحتى وسط آسيا، ومن مصر حتى شمالى البحر الأحمر^(٤).

(١) ونسيان: المرجع السابق، ج٢، ص ٧٧٥.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢.

(٣) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٥٢.

(٤) خليل إينالچك: العثمانيون، النشأة والازدهار، ص ٥٦.

الفصل الرابع

إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية

- الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ - ١٤١٣).
- السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١).
- مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١).
- الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشترك صربيا ووالاشيا والمجر فيها.
- الحملة الصليبية على قارنا سنة ١٤٤٤ م.

الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ - ١٤١٣):

وفى أعقاب معركة أنقرة ظل تيمور لنك فى الأناضول حوالى ثمانية شهور من يوليو ١٤٠٢ إلى مارس ١٤٠٣، وذلك لتثبيت سلطته وإعادة الاستقلال للإمارات التركمانية القديمة، فى الوقت الذى كان ينهب الأراضى العثمانية من أجل الغنم، ونتيجة لذلك قتل الآلاف، ودمر المساجد والمدارس، وأحرق المدن والحقول، وأوقع الآلاف فى العبودية، وما لبث تيمور لنك أن غادر آسيا الصغرى، ومات فى أوتتر فى ١٨ فبراير عام ١٤٠٥، وهوى طريقه إلى غزو الصين^(١).

والواقع أن تيمور لنك ترك الأحوال السياسية للأناضول فى حالة مشابهة إلى حد كبير لما كانت عليه فى عهد السلطان مراد الأول (١١٦٠ - ١٣٨٩). فقد وضع تيمور الأمير القرماني محمد على رأس دولة ضخمة تشمل تلك الأناضول، وتحتوى على الأجزاء الشرقية لإمارة حميد، وكرميان، ومدن مثل قيصريه، وأنضاليا وعلايايye، فضلا عن الممتلكات القرمانية السابقة. ومن الواضح أن تيمور لنك فعل ذلك، لكى يعطى إمارة قرمان القوة التى تمكنها من مقاومة أى محاولة يقوم بها العثمانيون لاستعادة نفوذهم فى المنطقة. ولم يكف تيمور بذلك، بل استعاد الإمارات التى غزاها بايزيد فيما وراء إمارة قرمان، وإن كان ذلك قد حدث بصعوبة^(٢).

وكان الإمبراطور مانويل الثانى فى باريس عندما بلغت كارثة أنقرة، ولكنه رجع بعد انقضاء عام تقريبا إلى القسطنطينية، إذ توقف فى طريقه فى جنوة والبندقية. وقبل أن يصل مانويل إلى عاصمته كان ابن أخيه يوحنا السابع قد نظم أموره للتعامل مع الموقف المتغير. فبعد ثمانى سنوات أصبحت القسطنطينية طليقة من الحصار الذى فرض عليها، واختفى بايزيد الذى طالما نشر الرعب والفرع فى قلوب المسيحيين من على مسرح الأحداث السياسية. ولكن أبتاؤه الأربعة تنازعوا حول الوصول إلى العرش، وحملوا السيوف ضد بعضهم البعض. وكان أكبرهم سناً مليحان، الذى سبق إخوته بالتوجه إلى غاليلوى فى أغسطس سنة ١٤٠٢ لكى يسيطر على الولايات الأوربية للإمبراطورية العثمانية المخطمة.

(1) Shaw, The Hist of the Ottoman Empire, Vol. I., p.3 6.

(2) Ibid., p. 36.

وفى أوائل سنة ١٤٠٣ عقد مؤتمر قمة من يوحنا السابع وسليمان وجنرلة خيوس، ودوق جاكوبو الأول كريستب صاحب: ناكسوس Naxos، وفرسان القديس يوحنا (الامر-نصار) برودس، وستيفن لازار يفتش أمير صربيا. وفى حوالى ٢٠ من فبراير سنة ١٤٠٣، قبل وصول مانويل الثانى إلى البدنقية عقد اتفاقية كانت فى صالح البيزنطية بصورة لم يمتدح على الدهشة^(١). وفى هذه الاتفاقية منح البنادقة امتيازات تجارية واسعة، وحصل البيزنطيون على تنازلات هامة، فقد أقسم سليمان على السلام والصداقة مع يوحنا السابع والإغريق، وأعاد سالونيكيا بمضواحيها وقلاعها، وأيضاً خاليدس Chalcidice وجزر مكرويلوس ومكياتوس Skyathos وميكروس، فضلاً عن مساحة واسعة تشمل الساحل التراقى من مسجريا إلى بانيدوس، أى شريط طويل من ساحل البحر الأسود، وكل منطقة مرمرية الساحلية، وفى هذه الاتفاقية لم يعد البيزنطيون يدفعون جزية للأتراك، وأمر سليمان بإطلاق سراح الأسرى الإغريق والمسيحيين الموجودين فى السجون العثمانية، ووعده بتقديم المساعدة الحربية للقسطنطينية فى حالة قيام يسمور لك بشن أى هجوم عليها، كما وافق على ألا تدخل سفنه المضائق دون إذن من الإمبراطور البيزنطى^(٢). وفى مقابل ذلك جرى الاعتراف بسليمان سلطاناً على المناطق العثمانية فى الرومىلى - أروبا - من عاصمته أدونة. ولا ريب أن الأرباح التى حصل عليها البيزنطيون كانت أفضل من التى حصل عليها سليمان، فبعد أن كان البيزنطيون مجرد رعايا يؤمساء تابعين للأتراك العثمانيين، أصبحوا وقتئذ سادتهم. ولم يعد باقياً إلا أن يوافق مانويل الثانى على الاتفاقية، وقد وافق عليها فى يونيو سنة ١٤٠٣ بعد رجوعه من أوروبا بوقت قصير^(٣).

ومن بين إخوة سليمان الثلاثة عيسى - وهو أصغر وأقدر الإخوة - الذى نصب نفسه حاكماً فى بالكسیر Balikesir وبروسة، ومحمد فى أماسيا، وكلاهما اعترفا بسيادة يسمور لك. وبذلك احتفظ العثمانيون بالسيطرة على كل أقاليم الدولة العثمانية التى

(1) Parker, Manuel II Palaeologus, p. 224.

(2) Ibid., pp. 224-225, Nicol, op. cit., p. 73, Ostrogorsky, op. cit., 557, Haki Inal-cik, The Ottoman Empire, p. 17.

(3) Nicol, op. cit., p. 73.

كانت موجودة قبل بلنيزيد. والحقيقة أن الإمبراطورية التي شيدها العثمانيون قد نفكت وانهارت، ولم يعد واضحا إذا كان لديها القدرة على البقاء^(١).

وهنا نكرر القول إن بعض الأوربيين قد ظنوا أنهم لو اتحدوا ونجحوا في تكوين قوة صليبية جديدة، لأمكنهم طرد العثمانيين من أوروبا. ولكن الموقف لم يكن سهلا، فالجيش العثماني الإقطاعي، وجيش «الغزاة» - بقيا - إلى حد كبير - تحت قيادة سليمان. على حين لم تكن أوروبا في حالة تمكنها من استغلال سوء الوضع العثماني لصالحها، فصريريا ظلت معتمدة على سليمان، وانتغل سيجسموند ملك المجر بتقدمه في وسط أوروبا، وأدى غيابه إلى تقوية نفوذ النبلاء الإقطاعيين المجرين، وكان أى هجوم صليبي محتمل دون مساندة مجرية، ميلقى نفس المصير الذى لقيه الصليبيون في نيقوبوليس^(٢).

وهنا نلاحظ أن الوضع الداخلى للعثمانيين خلال فترة الشفور كان معقدا للغاية، فمعظمهم أرادوا عودة تقليد «الغزاة» لمحاربة الكفار وصبغ الدولة بالمؤسسات الإسلامية العالية التي أوجدها السلاجقة. أما المستشارون المسيحيون - أو الحزب المسيحي - فى البلاط العثماني، فقد اقترحوا سياسة مناقضة لسياسة الغالبية العثمانية، وذلك للاحتفاظ بوضعهم الجديد^(٣). وتقوم هذه السياسة على ترجيح السلطان نحو الشرق. ومن ناحية أخرى، فإن المشكلة فى فترة الشفور لم تكن كامنة فى إعادة بناء الاستحكامات ضد أى هجوم أوربي مضاد، بل فى إعادة الزعامة الموحدة، وتأكيد الحكم العثماني فى الأناضول، وفوق ذلك تنظيم الدولة على أسس أقوى من تلك التى جعلت إمبراطورية بلنيزيد فى الأناضول وجيشه يتفكك بسهولة فى مواجهة تيمور لك^(٤).

وفى خلال فترة الشفور - أو الحرب الأهلية بين أبناء بلنيزيد - ظلت الحدود العثمانية على ما هى عليه تقريبا، فيما عدا الأراضى التى استولى عليها تيمور لك، وتلك التى تنازل عنها سليمان فى مقابل حصوله على التأييد المسيحي، إذ لم يحاول أعداء العثمانيين

(1) Creasy, Turkey, p. 52, Shaw, op. cit., p. 36.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 36.

(3) Ibid., pp. 35-37.

(4) Ibid., p. 37.

فى أوروبا وآسيا الصغرى انتهاز فرصة التمزق العثماني، والقيام بأى مجهود للقضاء على الوجود العثماني^(١).

ومهما يكن من أمر، ففى أثناء وجود تيمور لىك على مسرح الأحداث، ظهر النزاع على العرش العثماني بين أبناء بايزيد فى شتاء عام ١٤٠٣ م. فادعى محمد فى بروسه سيادته على الأسرة العثمانية، ولكنه لم يلبث أن رجع عن ادعائه بسبب مساندة تيمور لىك لأخيه موسى. غير أن محمداً قبل دعوة عدد من كبار الشخصيات من منجقية أماسيا، التى أرادت قيادته لطرد أحد قواد تيمور لىك من تلك النجقية، فوافق محمد، واستطاع الاستيلاء على أماسيا فى عام ١٤٠٣، وسرعان ما مد محمد نفوذه إلى المدن المجاورة سيواس وتوقات ونكسار (قيسارية الجديدة) Niksar، وهى المدن التى سبق أن نهبها وخربها تيمور لىك. وبعد أن أحرز محمد عدة انتصارات، تمكن من أن يجتذب إليه أعداداً كبيرة من أنصار ومؤيدى والده السابقين، وبعد مرور سنة على هزيمة أنقرة كان لديه جيش تركماني ضخم قادر على التصدي للأعداء^(٢).

وكان موسى الإبن الوحيد من أبناء بايزيد الذى بقى مع أبيه فى الأمر عقب معركة أنقرة، وبعد موت بايزيد فى ٩ مارس سنة ١٤٠٣، سمح له أن يرافق جثة والده لدفنه فى بروسه^(٣). أما عيسى فقد استقر فى بالكسير، وفى الحروب التى دارت بين الأخوين، انتصر عيسى على أخيه موسى، واستولى على أراضيه، ففر موسى لاجئاً إلى ولاية كرميان^(٤).

أما سليمان الإبن الأكبر لبليزيد فقد ضمن الأمان والاستقرار بفضل مساعدة العناصر المسيحية، وخاصة الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت مصلحتهم فى الوقوف إلى جانب سليمان خلال صراعه مع إخوته من أجل توحيد الأجزاء الآسيوية والأوروبية للإمبراطورية العثمانية، وذلك لأنه سلك معهم سلوكاً طيباً. على أن سليمان استغل العناصر المسيحية لصالحه، وتضح ذلك فى أن متيفن بن لازار (١٣٨٩ - ١٤٢٧) ملك صربيا، قد ناقشه

(1) Ibid., p.37.

(2) Ibid., p. 37.

(3) Barker, Manuel II Palaeologus, PP. 247-248.

(4) Nicol, op. cit., pp. 73-74.

الأخير جورج برانكوفتش، الذي أخذ يحد نفوذه في جنوب صربيا. وكان سليمان سعيداً لأن يرى الأمرين الصربيين يقاتل أحدهما الآخر، واستغل الموقف لزيادة نفوذه على حباهما. في الوقت الذي كان سليمان يتطلع لإعادة ممتلكات أبيه في الأناضول، وإعادة الإمبراطورية العثمانية إلى ما كانت عليه، بعد أن ينجح في الإطاحة بإخوته^(١).

وكما رأينا، فقد تنازل سليمان عن عدد من المناطق، بما في ذلك سالونيك، ومساحات كبيرة من جنوب مقدونيا، ولليرة، وجزء من تراقيا السلطانية، والمدن القريبة من القسطنطينية بحلء بحرمرمرة والبحر الأسود، كما رفع الجزية عن يريزنة. ولاشك أن تلك التنازلات كانت لعنا غاليا دفعه من أجل الحصول على مساعدة المسيحيين ضد إخوته. كما عقد سليمان اتفاقيات مشابهة مع ستيفن ملك الصرب، ومع الجمهوريات الإيطالية في ٣ يونيو ١٤٠٣، فقد تنازل لهم عن امتيازات تجارية في مقابل مساعدته. ونتيجة لذلك، قبل الأبناء محمد وبوسى وعيسى - إخوة سليمان - سيادة يمحور لك، ووعدهم بدفع الجزية، وتقديم المساعدة الحربية ضد أخيه سليمان الذين أطلقوا عليه اسم «عميل الأعداء» Agent of infidels في أدننة^(٢).

ومنذ بداية الصراع بين أبناء باليزد حول الوصول إلى عرش الدولة العثمانية ظهرت طموحات محمد واضحة، ففي الأناضول أحرز مركزاً هاماً، واستولى على الهضبة الوسطى من التركمان، ودخل في حروب مع أخيه عيسى، انتصر فيها محمد انتصاراً ساحقاً، وأضاف بروسه والكبير إلى دولته التي أخذت تتوسع سرهما، ثم اجتاز صاروخان، وأعلن محمد نفسه سلطاناً بتأييد الزعماء الدينيين المحليين، وبدأ في ملك عمله باسمه، وأعلن خضوعه ليمحور لك. أما أخوه عيسى فقد هرب من بروسه إلى القسطنطينية، وهناك رحب به يوحنا السابع، ثم غادرها إلى أخيه بحثاً عن الأمان. وقد حاول عيسى أن يسترجع نفوذه في الأناضول، ولكن محمداً هزمه مرة أخرى، فهرب عيسى إلى الشرق، ولم نعد نسمع عنه شيئاً. وبذلك حكم محمد الأجزاء الأناضولية من الدولة العثمانية مع وجود أخيه

(1) Ibid., p. 75.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, pp. 37-38.

موسى تحت جناحه، على حين حكم مليمان الأجزاء الأوربية من الدولة. حدث ذلك فى سنة ١٤٠٥، وبات واضحاً أن هذا التقسيم من الممكن أن يستمر طويلاً^(١).

وعلى أية حال، كان مليمان - الإبن الأكبر - يحتل رغبة عارمة فى الانفرد بحكم الإمبراطورية العثمانية. ولهذا قاد جيشه إلى الأناضول ضد أخيه محمد، فاستولى على أنقرة، وأصبح أقرب ما يكون إلى إحراز النصر ضد أخيه. وعلاوة على ذلك تخالف زعماء التركمان فى ربيع عام ١٤٠٦ خشية أن يتصر مليمان ويقضى على استقلالهم، غير أن هذا التحالف لم يلبث أن انفض لمجزهم عن القضاء على طموحاتهم الشخصية ومصالحتهم الخاصة، وأصبح مليمان فى وضع يمكنه من إلحاق الهزيمة بهتافيه فى وقت واحد^(٢).

وفى عام ١٤٠٦ حاول محمد أن يستولى على بروسة لمفاجئة أخيه مليمان من الخلف، بيد أنه لقي هزيمة فى بنى شهر، أجبرته على العودة إلى أماسيا. وفى عام ١٤٠٩ رضع محمد خطة جديدة، فقد أرسل أخوه موسى إلى أوربا فى محاولة للسيطرة على ممتلكات مليمان أثناء غيابه. ومن أجل ذلك أراد محمد الحصول على مساعدة مركيا حاكم والأشياء، وستيفن لازاريثش ملك صربيا الذى خشى أن يصبح مليمان فى وضع بالغ القوة يهدد استقلاله. وفى الأناضول تزوج موسى من ابنة أميرها، ثم جهز جيشاً من الترك والوالاشيين والصرب والبغار، وتحرك به ناحية أدرنة، الأمر الذى جعل مليمان يعود مسرعاً إلى أوربا لإنقاذ ممتلكاته، تاركاً الفرصة لمحمد لإعادة الاستيلاء على بقية غرب الأناضول. وهنا حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد خاف قادة «الغزاة» من مليمان الذى سوف يعوق تقدمهم فى أوربا، والتقوا به خلال سير، إلى القسطنطينية وخاضوا معه معركة بالقرب من صوفيا إنتهت بهزيمته وقته فى ١٧ فبراير عام ١٤١١^(٣). وذلك أصبح موسى سيد أوربا دون منازع.

(1) Ibid., p. 38, Barker, Manuel II Palaeologus, pp. 248-249.

(2) Shaw, op. Cit., p.38.

(3) Ostrogorsky, op. cit., pp 558-558, Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 106-107, Shaw, op. cit., p. 38.

وإذا كانت إمبراطورية سليمان قد أصبحت في أيدي أخيه موسى، الذي عرف بنشاطه ومقدرته، فوجه الأهمية هنا أن موسى ألقى بتحالفه مع أخيه محمد عرض الحائط، ورفض الاعتراف بتبعيته، وأعلن نفسه سلطاناً، وسك العملة باسمه. ولكي يرضى موسى قادة الغزاة (الحدود) الذين وقفوا إلى جانبه، عاقب صربيا وبيزنطة لمساندتهم سليمان، وقد أدان موسى أخاه سليمان على تسليم الأراضي التي كانت في حوزة المسلمين من قبل، وتحرك لإعادتها باسم الإسلام، فاستولى على مساحات ضخمة من جنوب صربيا، بما في ذلك مركز نوفو برودو Novo Brdo المشهور بتعدين الفضة، فضلاً عن قلاع برافادى وكوبرو Kopru، وفي نفس الوقت غزا ألباناه أجزاء من مقدونيا. وعندما رفض الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني تسليم الأراضي، إنقلب عليه موسى وأجبره على دفع الجزية، ثم بدأ حصاره للقسطنطينية، وهو الحصار الخامس الذي قام به العثمانيون (١٤١١ - ١٤١٢)، واستطاع موسى أن يستعيد كل الأراضي التي سلمها سليمان للبيزنطيين، فيما عدا سالونيك^(١).

أدرك مانويل الثاني ما عليه موسى من قسوة وكرهية للمسيحيين، فبعث برسالة إلى محمد الذي كان آنذاك في بروسه، يدعوه أن يأتي إلى سكوتاري، ووعد بنقله في سفن إلى القسطنطينية، وذلك لقتال موسى. فاستمع محمد للإمبراطور وقاد جيشه إلى سكوتاري، ثم توجه إلى العاصمة. ودخل محمد مع موسى في معركة، ولكنه منى بهزيمة اضطرته إلى الفرار على سفن بيزنطية. وعاد إلى الأناضول، وأخذ يتآمر ضد موسى، بأن وعد صربيا وبيزنطة بإعادة الأقاليم التي انتزعت منهما. وكان أن نزل محمد على ساحل البحر الأسود شمالي القسطنطينية، وتقدم تجاه أدرنه، وسحق جيشاً بقيادة موسى في فيزا Viza، فهرب موسى، ولكنه لم يلبث أن وقع أسيراً، وجرى قتله في ساماكوف جنوب شرق صوفيا في ١٠ يوليو عام ١٤١٣م^(٢).

وهكذا انتهى الانشقاق الكبير في البيت العثماني، واستطاع محمد أصغر أبناء بايزيد أن يتغلب على إخوته الواحد بعد الآخر، وبصبح السلطان الوحيد للدولة العثمانية، واشتهر في التاريخ باسم السلطان محمد جلبي الغازي. ولاشك أنه بفضل كبار الشخصيات التركية

(1) Shaw, op. cit., pp 38-39.

(2) Shaw, op. cit., p. 39, Doukas, op. cit., pp. 109-110.

والعناصر البيزنطية في المجتمع العثماني، وجيرته المباشرين، استطاع محمد أن يوحد ممتلكات أبيه^(١).

وينبغي ألا نبالغ في تقدير أهمية فترة الرّكود التي شهدتها الدولة العثمانية بين متيّ ١٤٠٢ و١٤١٣. فمن حيث حروب تيمور نلاحظ أنها انحصرت في الأملاك العثمانية في آسيا الصغرى، حقيقة أنها أُرجمت الإمارات التركمانية مرة أخرى إلى الوجود، ولكن يجب ألا نفعل أن الحكم العثماني في هذه المناطق لم يكن مستقرّاً، ولم يكن السلاطين العثمانيون قد صبغوا هذه المناطق بالصبغة العثمانية، ثم يجب ألا ننسى أنها لم تكن في ذلك تكون جزءاً هاماً من الدولة العثمانية، بل بقي قلب الدولة العثمانية سليماً لم تعد إليه يد التلف أو الثورة سواء من ناحية تيمور أو العناصر المسيحية في البلقان. الأمر الوحيد الذي تركته هذه النكسة هو تأجيل الفتوحات العثمانية عامة وسقوط القسطنطينية بالذات لفترة من الزمان^(٢). ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الأتراك الهاربين أمام جيوش المغول، فامتلاّت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية في أوروبا، فازدادت قوة الدولة العثمانية من الناحية الحربية.

عندما صار محمد الأول سلطاناً غير منازع للدولة العثمانية في عام ١٤١٣ كان ماثول الثاني مازال يحكم في القسطنطينية، كما كان الأمير مركيا يحكم والاشيا، ومتيقن لازاريفتش يحكم الضرب. أما البوسنة فكانت ما تزال مستقلة، والباينا في طريقها لأن تكون دولة موحدة، على حين إن المجر التي لم تكن بينها وبين العثمانيين حدود مشتركة، بل كانت دولة قوية يحكمها سيجسموند ولها طموحات في البلقان. أما البندقية فكانت تمتلك أراضي حول شواطئ شبه جزيرة البلقان. وعلى هذا كان تحديد سيد البلقان من بين تلك القوى. أمر في غاية الأهمية ولا بد من تقريره في النهاية^(٣).

(1) Shaw, op. cit, p. 39.

(٢) محمد أنيس؛ المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) يتر شوجر: أوروبا العثمانية، ١٣٥٤ - ١٨٠٤، ترجمة د. هاسم الدسوقي (القاهرة ١٩٩٨)، ص ٤٣.

السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١):

بعد أن صار محمد سلطاناً وحيداً على العثمانيين، اتبع سياسة سلمية مع جيرانه، حتى تسترجع دولته قوتها. فعقد اتفاقية سلام مع الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني، أعاد إليه بموجبها جميع الأقاليم البيزنطية الواقعة حول القسطنطينية وسالونيك، التي أخذها أخوه موسى من الإمبراطورية، وقد فعل محمد ذلك على الرغم من معارضة زعماء التركمان وغيرهم. كما عقد محمد معاهدات سلام مع الحكومات البلقانية المسيحية، والبنديقية وجنوه، حتى لا يظهر يحظر الذي يهدد أن يفرض سيطرته مثلما فعل أسلافه^(١)، وإن كان في الحقيقة كان يعمل على كسب الوقت لإعلاء النفوذ العثماني إلى ما كان عليه. وما يدل على ذلك، أن محمداً حرص على إبعاد التأثيرات البيزنطية والمسيحية في بلاطه، التي جعلت أبيه بايزيد يتخلى عن دور «الفزاة»، فقام بطرد النساء البيزنطيات والمستشارين لبيزنطيين من القصر^(٢).

ولكى يقرى محمد مركزه في الأناضول، قام بسلسلة سريعة من الحملات العسكرية في بداية حكمه. ففي سنة ١٤١٤ أجبر إمارة متشا على الاعتراف بسيادته، واستعاد أزمير بمساعدة ضئيلة قلمتها الأساطيل الجنوبية الراسية في مياه الجزر الإيجية. وأتبع ذلك بحملتين سريعتين ضد إمارة قرمان في سنتي ١٤١٤ و ١٤١٥، وأوقع الهزيمة بأسيروها، وبذلك استعاد المناطق التي أخذت من أبيه بايزيد قبل عام ١٤٠٢ م^(٣).

وبعد ذلك انشغل محمد بوضع حد لمشاكله في أوروبا. فقد انتهز زعماء الألبان فرصة شغور العرش العثماني. وما ترتب عليه من تشوب الصراع بين أبناء بايزيد، وأقاموا مذبحاً في الحاميات العثمانية التي تركت في ألبانيا. واستطاع محمد أن يستعيد نفوذه وذلك بالإستيلاء على كرويا (قره حصار) في الجبال الوسطى، وقالونا على الساحل. كما أخضع محمد لطاعته أمير والاشيا مركيا (١٣٨٦ - ١٤١٨)، الذي وقف إلى جانب أخيه موسى خلال الصراع الدائر بينهما حول التسابق إلى العرش العثماني. ثم قام محمد بسلسلة من

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I., p.41.

(2) Ibid., p. 41.

(3) Ibid., p. 41.

الغزوات في ترانسلفانيا والمجر، حيث كان ملك المجر سيجموند (١٣٨٦ - ١٤٣٧) يندى أطماعه في المنطقة، وأتم محمد غزو دوبرجا. وأدت الغارات المنظمة التي قام بها محمد في البوسنة إلى أن الملك البوسنوي فرتكو الثاني (١٤٢٠ - ١٤٤٣) وكثيراً من النبلاء الإقطاعيين قد اعترفوا بطاعة العثمانيين^(١). وأصبح واضحاً منذ ذلك الوقت فصاعداً أن الإمبراطورية العثمانية سيكون لها نفوذ على شؤون البوسنة يناهض نفوذ المجر، الأمر الذي اضطر الحكام والنبلاء البوسنيين إلى التعاون مع الأتراك العثمانيين، وهو أمر أثار حفيظة بعض المؤرخين المعاصرين، ولاسيما الصربيون منهم، ولكن طريقة هؤلاء الحكام آنذاك لم تكن تختلف كثيراً عن تصرفات أمثالهم الذين التحموا المعونة في الماضي من المجر، ولكن الفارق الرئيسي بين الاستعانة بالمجر والأتراك في ظنهم أن الأتراك قوة أبعد ووجودهم مرهون بلحظة معينة، ولا يرجح أن يفرضوا أى لون من ألوان الحكم المباشر عليهم كما سيفعل المجريون^(٢).

وأخيراً خاض محمد حراً بحرية مع البندقية وقراصنتها المتمركزين في الجزر الإيجية، الذين استعمروا في أسر السفن التركية، ونهب السواحل التركية. وعلى الرغم من أنه كان قد بدأ في بناء أسطول، إلا أن الأسطول البندقي أوقع هزيمة فادحة بالأسطول التركي بالقرب من غاليبولي في ٢٩ مايو عام ١٤١٦ م. وفي النهاية عقد السلام بين البندقية والدولة العثمانية، وقد توسط في هذا السلام الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني، الذي استطاع التأثير في البندقية لتكج جماع قراصنتها، مقابل حصولها على امتيازات إضافية في أنحاء الإمبراطورية العثمانية^(٣).

وبرجع الفضل إلى السلطان العثماني محمد الأول في أنه قضى على الحركات الداخلية التي هددت كيان الدولة العثمانية، ولاسيما حركة الشيخ بدر الدين. وقد ولد هذا الشيخ في قلعة ميمانه إحدى قرى أخرنة زمن السلطان مراد الأول. وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الصرف والنحو، ثم ارتحل إلى مصر، وتلمذ على يده السلطان فرج بن السلطان برقوق^(٤).

(1) Ibid., p. 42.

(٢) مالكولم: البوسنة، ص ٥٣.

(3) Ibid., p. 42., Creasy, Turkey, pp. 56-57.

(٤) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٥٤ - ٥٥، بلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١١٨، محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١٣٣ - ١٣٥.

ذهب الشيخ بدر الدين إلى تبريز للإرشاد الصوفي، وفي أزيق بدأ يدعو إلى مذهبه، فتنادى به على النحر الآتي:

- وحلة الوجود.

- الوجود المطلق هو الله الإله الخالق باعتبار الفعل والتأثير، والعبد المخلوق باعتبار التأثير والانفعال.

- الدعوة إلى الزهد المطلق، وذلك بأن يتجرد الفرد من فخار الثياب، ويكفي بقطعة من الملابس واحدة تستره، وأن يسير عارياً الرأس، وله أن يتخلص من شعره تماماً ويسير حافياً القدمين^(١).

وجعل الشيخ بدر الدين ترك الدنيا وعدم الاشتغال بأمورها من أهم مانادى به، ويعبر عن ذلك بالمبارات الآتية:

- ترك الاشتغال بالدنيا من أعظم أصول الوصول إلى الحق.

- إنكار الجنة والنار ويوم القيامة والملائكة والشياطين.

- صمى مات جسداً، أما روحه هي الحية.

- إنكار حق التحلك، والقول بشيوعية المال والملك.

- قصر الشهادة على نصفها الأول، بمعنى أن تقتصر الشهادة على «لا إله إلا الله» وحذف نصفها الثاني «محمد رسول الله» وكان ذلك طعماً في ضم اليهود والمسيحيين إلى الحركة^(٢).

وساعد على نشر أفكار الشيخ بدر الدين مريدان على درجة كبيرة من النشاط، أحدهما يهودى يدعى طورلاق هود كمال، وكان يدعو لفكر الشيخ في منطقة مغنيصيا، والثاني يدعى بوركلوجه مصطفى ويدعو إلى فكر الثورة بالقرب من أزمير^(٣). وقد كثر أتباع الشيخ بدر الدين، وأخذوا في نشر مذهبهم بالقوة والتعرض للناس والأموال، فقتلوا الآلاف،

(١) محمد حرب، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) محمد حرب، المرجع السابق، ص ١٣٥ - ١٣٧، يلحظ أن لؤنتونا، المرجع السابق، ج ١ ص ١١٨.

(٣) محمد حرب، المرجع السابق، ص ١٤٠.

واجترأوا على أمير أزمير اسكندر بك وقتلوه. وقبض على الشيخ بدر الدين فى دلى أورمان جنوب دوبروچه، وحاكمه السلطان محاكمة شرعية، وأعلم شنقا على شجرة فى مدينة سيريز^(١) فى سنة ١٤٢٠ م.

وكان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون، شأنه فى ذلك شأن كثير من سلاطين الدولة العثمانية الأول. وقد أطلق عليه رعاياه لقب يهلوان (ومعناها البطل). وذلك بسبب نشاطه الدائب وشجاعته. كما أن اعتدال مزاجه وسلوكه وشهائته وحبه للمعالة والحق وسموه باعتباره راعياً فطناً للأدب والفنون، مما خلغ عليه لقباً آخر أعلى مقاماً هو لقب «جلبى» الذى يذكر فون هامر أنه يتضمن نفس المعنى الذى يخلعه الإنجليز على لقب چنتلمان^(٢) The gentleman أى (السيد المهذب) ويعتبر السلطان محمد أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التى يطلق عليها اسم «الصرة» حتى وقت قريب، وهى عبارة عن قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة. وقد ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم الأول هو أول من أرسل الصرة فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧) بعد فتح مصر، ولكن اتفق من يوثق بهم من المؤرخين خاصة صولاق زلفه، على أن السلطان محمد جلبى هو أول من أرسلها^(٣). حقيقة إن بعض الحكام العثمانيين قد فاتوا محمداً شهرة، إلا أن بالإمكان اعتباره من أبيل أولئك الحكام. فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته، وما يدل على إيثاره السلام أنه نقل العاصمة من أدرنة (مدينة الغزاة) إلى بروسة (مدينة الفقهاء)^(٤).

مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١):

يعتبر مراد الثانى واحد من أعظم السلاطين العثمانيين، وهو الذى أسس القوة العثمانية فى أوروبا وآسيا. وقد سار مراد الثانى على نهج أبيه محمد الأول، فى كونه محباً للمعالة، وراعياً نشيطاً للفنون، ومحباً للحياة. وعمل على تطوير مؤسسات الدولة والجيش،

(١) يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج ١، ١١٨، ٦٤. Castellan, op. cit., p. 64.

(2) Schevill, op. cit., p. 192.

أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثماني، ص ٦٢.

(٣) محمد فهد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٤.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٢ - ٦٣.

بطريقة جمعت إبنه وخليفته محمد الثاني (الفاخ) قادراً على القيام بفتوحات جديدة لبناء أعظم إمبراطورية فى الشرق والغرب^(١).

وقبل أن يبدأ مراد الثانى فى إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية، قضى ثلاث سنوات (١٤٢١ - ١٤٢٣) محاربا فى سبيل حقه فى الحكم، فقد كان عمره عند اعتلائه العرش سبعة عشر عاماً، ولكن وجود إخوته الأربعة الأصغر منه أمد أعداءه، بفرصة لمينة لإثارة النزاع داخل البيت العثمانى^(٢). ويظهر لنا التاريخ العثمانى عنف العادة العثمانية وقسوتها، التى أصبحت بعد ذلك قاتونا واقعا، وهى أن الذى يعمل إلى العرش العثمانى ينبغى عليه أن يقتل كل إخوته ليتجنب أخطار الحرب الأهلية، ولسوء الحظ. لم يتخل واحد ممن وصلوا إلى العرش عن تلك العادة الذميمة^(٣). وقبل أن يموت السلطان محمد الأول أراد أن يجنب أولاده ذلك المصير النعس، فأرسل الأمير مصطفى إلى إمارة حميد ليحكم الأناضول، وأرسل الأميرين الأصغر يوسف ومحمود للإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى ليكونا فى حمايته، وليؤكد بقاءهما أحياء بعد أن يتولى أخاهما على السلطة^(٤).

وكان مراد الثانى يأمل المحافظة على السلام مع مانويل الثانى، ليكسب وقتا يسمح له بإعادة بناء الدولة من الداخل، ولكن مانويل الثانى اغتتم فرصة وفاة السلطان محمد الأول وصغر من السلطان الجديد، وبعث برسولين هما لاختانى باليولوجوس وثيولوجوس كوراكس Theologos Korax - وهو فى الأصل من آلاشهر (فيلادفيا) - إلى مراد، لتعزته فى وفاة والده، وفى نفس الوقت لتنهته بولاية العرش. والحقيقة أن مانويل كان غرضه من تلك السفارة، هو تذكير مراد بوصية والده الأخيرة، التى عهد فيها لمانويل بالعناية بولديه يوسف ومحمود وتنشئتهما وتربيتهما فى قصره. فإذا رغب مراد فى استمرار أواصر المودة والصداقة مع الإمبراطور كما فعل والده من قبل، وجب عليه أن ينفذ وصية أبيه، أما إذا رفض تنفيذ تلك الوصية، فإن مانويل هدد بوضع شخص آخر محله حاكما لمقدونيا وخرسون وكل تراقيا. فرد عليه مراد أنه لا ينبغي أن يتلقى أولاد المسلمين العلم على

(1) Shaw, op. cit., p. 44, Schevill, op. cit., p. 192.

(2) Shaw, op. cit., p. 44.

(3) Barker, op. cit., p. 247.

(4) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 44.

أيدي غير المسلمين، وبأى السلطان ذلك على نفسه بطبيعة الحال، لأنه أمر ياباه دينه. وأبلغ مراد السفارة أن الإمبراطور يطلب التحيل^(١).

وتمين على السلطان مراد الثاني أن يحى عرشه من مدع تحالف مع الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى، وزعم أنه مصطفى بن يازيد - عم السلطان - وقد أطلق عليه المؤرخون مصطفى المزيف The False Mustafa^(٢). ويذكر نيقولا فانان^(٣) أن مصطفى من الأشياء التى كان موجوداً فيها فى صيف عام ١٤١٥، وجاء إلى مقدونيا عن طريق بلغاريا، وتبعه الروايات العثمانية بدوومه مصطفى أى «مصطفى المزعوم» (الكاذب). ولم يتمكن المؤرخون من تحديد إذا كان مدعياً أم لا. على أن التأيد الذى حصل عليه مصطفى من مركيا الكبير أمير والأشياء، وجنيد بك الذى أراد استعادة أماليه لمرته الواقعة حول أزمير، ومانويل الثانى، وعدة أعيان عثمانيين، والاتزعاج الذى استبد بمحمد الأول، كل ذلك يشير إلى أن مصطفى كان يتمتع بنفوذ مطالب حقيقى بالعرش، بغض النظر عما إذا كانت دعواه مشروعة أم لا. وعلى أية حال، اعترف الإمبراطور البيزنطى بمصطفى كوريث شرعى للعرش العثمانى، وإذا نجح فى الوصول إلى العرش، عليه أن يتنازل عن عدد من المدن الهامة للإمبراطور بعد الاستيلاء عليها. فلم تلبث أن وقعت غاليلولى فى أيدي مصطفى المزيف بعد مقاومة ضئيلة^(٤). واستقلت إمارة قرمان الفرصة، واستولت على إمارة حميد القديمة مرة أخرى، بينما أطاحت إمارات متشا وأيدى، وصاروخان بروابط تبعيتها للعثمانيين^(٥).

وأثبت السلطان العثمانى الصغير مراد الثانى أنه يمتلك مقدرة حرية ومهارة صياصية جديدة بأسلافه العظام. إذ اسرع بالتوجه إلى بروصة لتجهيز جيش يمكنه من إعادة نفوذه فى الأناضول. وعندئذ عبر مصطفى المدعى إلى أوروبا وزحف على أدرنة، وقد انضم لمساعدته أمراء الحدود وأتباعهم الذين كانوا يأملون آنذاك القيام بفتوحات جديدة فى أوروبا، وخشوا

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 132.

(2) Ibid., p. 136, Shaw, op. cit., p. 45.

(٣) صمو: العثمانيين، ج-١، ص ٨٥.

(4) Creasy, Turkey, p. 57.

(5) Shaw, op. cit., p. 45, Doukas, op. cit., p. 136.

أن يشرع مراد الثاني في السير على سياسة أبيه في التركيز على الفتوحات في الأناضول^(١) دون أوروبا.

على أن مصطفى المدعى لارتكب نفس الخطأ القاتل الذي كلف بلنيزد الأول عرشه، عندما قرر أن يدخل الأناضول لتوحيد الإمبراطورية العثمانية تحت حكمه، وإن كان في الحقيقة أن البيزنطيين هم الذين حرضوه على ذلك، إذ كان يسعدهم جعله بعيداً كلما أمكن، هو وحليفه جنيد بك. ويلاحظ أن النجاح الذي أحرزه مصطفى في أوروبا، جعل مراد يحصل على بعض المساعدات من صربيا وأمراء البلقان الآخرين، الذين خافوا من إعادة تأسيس القوة العثمانية تحت زعامة مصطفى. فزحف مصطفى تجاه بروسه، حيث كان مراد يعد جيشه. وعندما تقابل الجيشان في أولوبات Ulubat لقي مصطفى هزيمة ساحقة، وفر إلى أوروبا، فتبعه مراد على الفور، وقد حصل على السفن التي احتاجها لعبور رجاله من جنوية فوشا Foca، وخرج مصطفى هارباً من أدرنة ومعه كنوزه وحريمه قاصداً والأشياء ولكنه وقع أسيراً وقتل في الطريق، وبذلك انتهت ثورته^(٢).

وأدرك الإمبراطور مانويل الثاني سوء فعله والخطر الذي يهدده، وأراد أن يقلل من غضب السلطان مراد الثاني، فبعث إليه يهشة باتصلوه على مصطفى المدعى، ويمنع له مما بدر منه، ولكن السلطان لم يكثر له. فقد جلب هذا التصرف على عاصمة مانويل الثاني كارثة جديدة، ويظهر ذلك واضحاً في أن مراد الثاني قرر فرض الحصار عليها، ومن ثم جمع جيشاً ضخماً بلغ حوالي عشرين ألف مقاتل، وجهاز الاستعدادات اللازمة لشن هجوم على القسطنطينية. وكان الإمبراطور مانويل الثاني قد صار عاجزاً طاعناً في سن السابعة والسبعين، وقد هدد منذ زمن طويل بمهام الإمبراطورية لابته يوحنا الذي كان يخدم في المورة مع أخيه، وعندما علم مانويل أن مراد يستعد للزحف ضده في أبريل سنة ١٤٢٢ أرسل مبعوثه ليولوجوس كوراكس إلى مراد لمعرفته التامة باللغة التركية^(٣).

(1) Shaw, op. cit., p. 45.

(2) Shaw, op. cit., p. 45.

(3) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 160-161, Pears, The Destruction of the Greek Empire, p. 155.

وعلى أية حال، فرض السلطان مراد الثانى الحصار السادس على القسطنطينية فى ٨ يونيو سنة ١٤٢٢، وكادت أن تقع فى يده، لولا المقاومة العنيدة التى أبدتها سكان المدينة، فقد صدوا الحاصرين، وضجعوا ثورة جديدة فى الأناضول قامت بها إمارتا قرمان وكرميان، إذ أغرى البيزنطيون أخ صغير لمراد يدعى أيضا مصطفى الذى بقى حاكما لإمارة حميد، على الخروج على أخيه ليخفف وطأة الحصار على القسطنطينية. وقد شكل الأطراف الثلاثة - قرمان وكرميان وحميد - جيشا متحالفا، استطاع الاستيلاء على نيقية، وفرض الحصار على بروسة فى أغسطس عام ١٤٢٢، وبذلك هدد نفوذ مراد مرة أخرى. وعندئذ فك مراد الحصار الذى طال شهرين عن القسطنطينية، وتحرك عائداً إلى الشرق، وهناك وجد عدداً ضخماً من القادة التركمان قد انضموا إلى أخيه مصطفى^(١). ودارت معركة بين مراد وأخيه، انتصر فيها مراد، وفر مصطفى، فطارده رجال مراد، وقبضوا عليه بالقرب من شواطئ الدانوب، وهو فى طريقه إلى القسطنطينية بحثاً عن النجاة، وأحضره المظاردون إلى مراد، فقرر أن يعدمه شنقا فى ميدان عام كمجرم عادى أمام الناس^(٢)، فى ٢٠ فبراير عام ١٤٢٣، واستعاد السلطان أتباعه الذين وقفوا إلى جانب أخيه مصطفى لطاعته، كما ضم إليه أتباع أخيه.

حاول محمد الثانى أمير قرمان الاستيلاء على المرفأ العثمانى أنطاليا، ولكنه مات خلال الحصار بقديفة مدفعية أطلقت من القلعة، وكان لذلك وقع طيب على مراد، فقد انتزاع تهديد آخر من أمامه. وقد استغل مراد المنافسين للعائلة الحاكمة لإمارة قرمان لصالحه، فوضع على العرش محمد بك (١٤٢٣ - ١٤٢٦)، وقبلت قرمان سيادة السلطان العثمانى، كما رجعت إمارة حميد مرة أخرى إلى العثمانيين. وأنهى مراد حملته فى الأناضول، وذلك بضم الإمارات التركمانية الغربية آيدين ومتشا وتكه وجزء عظيم من إمارة قسطنطيني^(٣).

وفى أربا عقد الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى اتفاقية سلام دأى مع مراد فى سنة ١٤٢٤، وافق الإمبراطور بمقتضاه على تسليم السلطان المدن الواقعة على البحر الأسود،

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p 45, Hearsey, City of Constantine, p. 232.

(2) Doukas, op. cit., p. 160.

(3) Shaw, op cit., p. 46.

باستثناء القلاع الحصينة مثل صمبريا ودركويا Derkoi، كما تعهد الإمبراطور بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة ألف قطعة من الفضة^(١)، وقبلت صربيا وروالاشيا والمجر السيادة العثمانية، ووافقت على دفع جزية في سنة ١٢١٤^(٢). وبذلك عادت بيزنطة مرة أخرى إلى وضع دولة تابعة للعثمانيين، وهي التبعية التي تخلصت منها لفترة بعد معركة أنقرة، ولم تخلص بيزنطة أبداً من تلك التبعية، حيث بقيت على هذا الوضع حتى النهاية^(٣).

الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشتراك صربيا وروالاشيا والمجر فيها:

وحتى ذلك الوقت كانت الصداقة قائمة بين العثمانيين والبنادقة، فقد أرادت البندقية أن تحمي مصالحها التجارية في الأراضي العثمانية ومنطقة البحر الأسود، وذلك بالحفاظ على علاقات طيبة مع السلطان، خاصة منذ أخذ منافسوها الجنية يحثون عن عقد أواصر الصداقة مع السلطان لإبعاد البندقية. وقد سبق للبندقية أن وقعت اتفاقية تجارية مع السلطان بايزيد في عام ١٣٨٨، كما أنها لم تشترك مع القوى الأوربية في الحملة الصليبية التي قامت بها في كرسوفا. بيد أن التوسع العثماني في مقدونيا تجاه البحر الأدرياتي، وفي اليونان تجاه البحر الإيجي، جعل البندقية تشعر بالقلق، وتخشى المنافسة في مساحة كانت تحت سيطرة نفوذها لبعض الوقت. وقد رأى العثمانيون أنه طالما تسيطر البندقية على الممرات المؤدية للبحر الإيجي، فإن باستطاعتها دوماً تهديد المواصلات بين الأناضول وروميلى (أملاك الدولة العثمانية في البلقان)، وتقف حجرة عثرة في التوحيد الكامل لشطرى الإمبراطورية الرئيسية^(٤).

وقد أرادت البندقية القضاء على النفوذ العثماني في مقدونيا، وذلك بوضع أمير عثماني آخر في العرش، إدعى حقه فيه إسمه مصطفى، وهو المعروف عند المؤرخين باسم مصطفى المدعي، وأرسلت السفن لمساعدته في الاستيلاء على كساندرا Kassandra وكافلا Kavalla، وهما له الحصول على مساعدة هامة من التركمان الموجودين في

(1) Doukas, op. cit., p. 169.

(2) Shaw, op. cit., pp 46-47, Lodge, op. cit., p. 506.

(3) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine State, p. 529.

(4) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 47.

المنطقة سنة ١٤٢٥. وهنا نلاحظ أن الحرب الأولى بين العثمانيين والبندقية قامت على فترات طال أمدها حتى سنة ١٤٣٠. ومن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى طول تلك الحرب، اختلاف المواقف الاستراتيجية عند الفريقين، والبندقية المعروفة بقوتها البحرية، استطاعت الحفاظ على قواعدها الساحلية بقوات برية صغيرة نسبيا. أما العثمانيون الذين كانت قواتهم الفعالة في البر، فقد بدأوا في إنشاء أسطولهم حديثا، ولذلك لم تتوفر لديهم وسيلة لمنافسة قوة البندقية ومقدرتها في استخدام قواعدها^(١). على أن البندقية قد أنهكت قواها في حرب ضد أعدائها في إيطاليا، وهي الحرب التي قادتها ميلان، ولهذا لم يكن بوسع البندقية سوى استخدام جزء صغير من أسطولها ضد العثمانيين. وقد حصلت البندقية على مساعدة المجر والصرب والاشيا في البر، حيث صابروا الأداة الفعالة في نزاعها مع جيوش السلطان العثماني^(٢).

والحقيقة أن غزو الأتراك العثمانيين لصربيا حتى نهر الدانوب، وبلغاريا جنوبى الجبال البلقانية، جعلتهم يدخلون في صدام مباشر مع المجر. أما الاشيا فقد صارت إمارة قوية ومتمدة في عهد مركيا الكبير (١٣٨٦ - ١٤١٨)، ولكن النزاع الذى نشب بعد وفاته من أجل الوصول إلى العرش أضعف قدرتها على القتال إلى حد كبير، وأوهن مقاومتها، فى الوقت الذى استغل كل من المجرىين والعمانيين هذا الوضع لصالحهم الخاص. أما صربيا فقد سمح ملكها ستيفن بن لازار للعمانيين بعبور أراضيهم فى طريقهم لغزو البوسنة فى عام ١٤٢٦. وبعد وفاة ستيفن فى ١٩ يوليو عام ١٤٢٧، دخلت صربيا فى منازعات أسرية لمدة نصف قرن تشبه تماما الموقف فى الاشيا. وعندما أصبح جورج برانكوفتش (١٤٢٧ - ١٤٥٦) - ابن أخت ستيفن - ملكا على صربيا، وقد أخذ على عاتقه منذ البداية التخلص من التبعية التى خضع لها أسلافه منذ معركة كوسوفا، إعترف بسيادة سيجموند ملك المجر فى مقابل الخدمات التى أداها له. وتنازل برانكوفتش عن قلعة بلغراد الدانوبية المنيعة للمجر فى مقابل الحصول على مساعدتها، وبذلك جعل منها القاعدة الرئيسية لمقاومة العثمانيين. ولكن السلطان مراد الثانى رد على ذلك بدعوى أن صربيا تابعة له نتيجة لزواج السلطان بايزيد من أوليغيرا Olivera أخت ستيفن. ولكى يقوى مراد دعواه غزا صربيا مرة

(1) Ibid., pp.47-48.

(2) Ibid., p. 48.

أخرى في عام ١٤٢٨ ، واستولى على عاصمتها كروشيقاتش (ألاجه حصار) الواقعة في وسط بلاد الصرب، وأجبر برانكوفتش على استئناف روابط التبعية القديمة للدولة العثمانية، كما تزوج مراد الثاني من مارا ابنة جورج برانكوفتش لدعم النفوذ السحماني^(١). وتوفيق عرى التحالف بين الدولتين. ويرى البعض أن برانكوفتش قد برهن على أنه دبلوماسي ذاهية وسياسي حقيقي، فلكى يهدىء من نائرة مراد الثاني الذي طلب منه تسليم صربيا، زوجه من ابنته مارا، وأعطاه بعض الأقاليم المصرية دوة لها، كما تعهد برانكوفتش بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدة حربية، وقطع علاقته مع المجر. وبذلك استبقى جورج برانكوفتش عرشه المتزعزع واحفظ به^(٢).

وعلى أية حال، جهز سيجموند ملك المجر جيشا متحالفا من المجر والاشيا وإماراة قرمان ضد العثمانيين في الأناضول وأوربا في وقت واحد. وتحالفت البندقية مع اللاتين في قبرس لمساعدة قرمان، وحث الأمراء التركمان الباقين في الأناضول رحاكم إيران التيموري شاه رخ ضد العثمانيين. وعندما علم السلطان مراد الثاني بذلك عاد إلى أوربا، وبني أمطولا جديدة^(٣). وتقدم الأتراك العثمانيون مندفعين بأعداد كبيرة كالنحل إلى سالونيكيا، وعندما اقتربوا من المدينة نشروا خيمهم وأحاطوا بها. وفي اليوم الرابع ٢٩ مارس عام ١٤٣٠ تقدم الجيش العثماني نحو صور المدينة، يحملون السلالم والألواح الخشبية السمكة، وأدوات الحصار والدروع، وتقلب الأتراك على القلة المدافعة عن المدينة، وقتل وجرح العديد، ودخل الأتراك المدينة باندفاع شديد، وامتألت المدينة بهم، ونهبوا كل شيء صادفهم^(٤). وبعد أن استقر العثمانيون في المدينة أعاد مراد المبحين إليها، ورجعوا إلى كائهم وأديرتهم، واستعادوا كل ممتلكاتهم^(٥). وفي ٤ سبتمبر من نفس العام، أجبرت

(1) Ibid., p. 78, Lodge, op. cit., p. 130.

(2) Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans, p. 153.

(3) Shaw, op. cit., p. 48.

(4) Vryonis (Speros), "The Ottoman Conquest of Thessaloniki in 1430", in Continuity and Change in late byzantine and Early Ottoman Society. ed. by Bryer (Anthony) and lowry (Heath) (U.S.A. 1986), pp. 290-293, Nicol, op. cit., p. 78, Schevill, op. cit., p. 130.

(5) Vryonis, op. cit., p. 302.

البندقية على قبول صلح لابسكى Peace of lapseki، اعترفت بموجبه بسيطرة العثمانيين على مقلوبيا ودفع جزية سنوية، في مقابل سيطرة البندقية على ليبانتو والقواعد الأدرينية الأخرى، بالإضافة إلى استعادة البنادقة لحقوقهم في الإبحار خلال المضائق في البحر الأسود^(١). وبذكر هايد^(٢). أنه حين انعقد الصلح، شعرت البندقية بمساعدة بالغة، إذ حصلت من العثمانيين على وعد بأن يترك سائر ممتلكاتها في أمن وسلام، وأن يمنح التجار في الإمبراطورية العثمانية حرية التنقل ومزولة التجارة.

والواقع أن العثمانيين ظلوا متفوقين في البلقان، يمارسون حكما مباشرا في أجزاء ألبانيا وإيبروس، وأخذوا الجزية والمساعدات الحربية من حكام صربيا والبوسنة وروالاشيا وراجوزا والبندقية وبلغاريا، فضلا عن المورة وأرنا^(٣). ومع ذلك فقد أفلق جورج برانكوفتش ملك صربيا يال السلطان مراد. ففي عهد الملك المجري سيجسموند إستعاد برانكوفتش استقلال صربيا، وبنى قلعة جديدة في سمندريا Semendria (ومعناها القديس أندريا على نهر الدانوب بالقرب من بلغراد) وهي صميدروف الحالية، واتخذها عاصمة له بدلا من كرونيفانس (ألأجه حصار)، كما تنازل عن بلغراد للمجريين رغبة في تأمين مساعدتهم له ضد السلطان، ولكنه قبل أن يحصل على أية مساعدة، استولى عليها السلطان في سنة ١٤٣٩، وبذلك استولى السلطان على كل صربيا تقريبا، وأصبحت ولاية تركية، وهرب جورج برانكوفتش، ولجأ إلى أماكن مختلفة، وانتهى به المطاف أخيرا في دبروفنيك - Dubrovnik^(٤). وعندما استمر الأمير الروالاشي في قبول التبعية للعثمانيين، دير سيجسموند استبداله بحاكم قوى يدعى فلاد داركول الأول (١٤٣٢ - ١٤٤٦) Vlad Drokul I، الذي أطاح بطاعة السلطان مرادواربط مع برانكوفتش وملك البوسنة ثغرأثر الثاني في تحالف في سنة ١٤٣٤م^(٥).

(1) Shaw, op. cit., p.48.

(٢) تاريخ التجارة، ج٣، ص ١٣٩.

(3) Shaw, op. cit., p.49, Diehl, Byzantium, Greariness and Decline, p. 223.

رسمان، تاريخ الحرب العلية ج٣، ص ٧٧٥ - ٧٧٦.

(4) Spinka, op. cit., p.153.

(5) Shaw, op. cit., p. 49, Lodge, The Close of the Middle Ages, p. 506.

وفى تلك الأثناء، كان اهتمام مراد الرئيسى منصبا على احتمال قيام مجهود صليبي أوربي جديد. فقد حاول الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجوس (١٤٢٥ - ١٤٤٨) القيام بمفاوضات لتوحيد كنيسة القسطنطينية وروما، ليضمن الحصول على مساعدة الغرب الأوربي لمقاومة الخطر العثماني، على الرغم من أن شعب القسطنطينية وزعمائها الدينيين رجال الكنيسة الأرثوذكسية قابلوا تلك المحاولة بشعور معارض وتحسكوا بمذهبهم. وبالرغم من الوعود التي بذلها الغرب لمساعدة البيزنطيين في وقرتهم ضد الأتراك العثمانيين، فإن المعارضة البيزنطية كانت تعتقد تماما أن الغرب الأوربي كان يضع كل أمله في القضاء على القسطنطينية ومحو العنصر البيزنطي من الوجود^(١).

وعلى أية حال، فقد خادر الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن عاصمته وتوجه إلى الغرب الأوربي مثلما فعل والده منذ حوالي أربعين عاما، وجده منذ حوالي سبعين سنة. وذهب معه أخوه ديميتريوس، والبطريرك جوزيف، وعدد من الأساقفة والرهبان. ووصل الإمبراطور إلى فيرارا في أوائل سنة ١٤٣٨، حيث دارت مناقشات عنيفة، ثم توجه إلى روما، ودخل الكية الرومانية المقدسة، وفي ٦ يوليو سنة ١٤٣٩ أعلن اتحاد الكنيستين باللغة اليونانية واللغة اللاتينية، وأقيمت صلاة عامة لل شكر رأسها البابا يوجين الرابع، غير أن المعارضة الشديدة في القسطنطينية جعلت الاتحاد الديني أمرا مستحيلا^(٢).

كان الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجوس يعاني من مرض النقرس منذ فترة طويلة، وهي حالة زادها الإحباط الشديد والحزن العميق الذي ألم به بعد عودته من إيطاليا، بسبب ما أثمرته فكرة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية من ناحية، وسبب وفاة الإمبراطورة من ناحية أخرى، فسقط مريضا، ومات خلال أيام. واستدعى كبار رجال الدولة أخاه قسطنطينين إلى القسطنطينية. ولم يلبث قسطنطينين أن أرسل سفارة محملة بالهدايا إلى السلطان مراد الثاني لتأكيد السلام بينهما^(٣).

(1) Doukas, op. cit p. 181. Shaw, op. cit., p. 50,

عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة: ١٩٦٧)، ص ١٨١.

(2) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine State., pp. 562-563.

(3) Doukas, op. cit., p. 186.

غير أن مراد الثاني أمر بشن غارات جديدة في أوروبا لإرضاء البكوات الأتراك وأتباعهم، وما حصلون عليه من غنائم جديدة. وقد أدى موت الملك المجرى سيجموند في ٩ ديسمبر سنة ١٤٣٧ إلى قيام منازعات داخلية حادة في المجر، استغلها مراد لصالحه، فشن غارة دمرت القلعة الدانوبية في سيرلين Severin، وفرض الحصار على سيبو Sibiu - وهي المركز التجارى لترانسلفانيا - في عام ١٤٣٨، وغزا مراد صربيا، واستولى على القلعة التي بناها برانكوفتش في صندريا في سنة ١٤٣٩، وكان هدفه من وراء ذلك إضعاف التحالف الصربي البلغاري. ومارس مراد نفس الأسلوب في البوسنة، إذ استغل الفوضى الداخلية التي سادت البوسنة على إثر موت الملك هنريكو الثاني سنة ١٤٤٣، وأجبر خلفاءه البوسنيين، وحكام الجزء الجنوب المتقل عن البلد وقشند - وهو الذي يدعى حاليا هرزجوفينا Herzegovina - على دفع الجزية^(١).

وعلى أية حال، قام الملك المجرى الجديد لاديسلاس الثالث بتعيين حاكم لترانسلفانيا يوحنا هو نيادى (١٤٠٧ - ١٤٥٦) John Hunyadi في سنة ١٤٤١م، وهو شخصية جديدة ظهرت في أفق أوروبا لتكبح جماح التقدم العثماني لفترة من الزمن حتى أنه أصبح بطلا قوميا، وأطلق عليها بسبب درعه الفضي الذي كان يتلأأ في المعركة «فارس والاشيا الأبيض» White Knight of Wallachia. وصار هو نيادى مصدر رعب للجيش التركي لمدة عشرين سنة، ويمكن وصفه بالمجاهد (الغازي) المسيحي Christian ghazi لأنه كرس جهوده لمحاربة الإسلام^(٢)، وأحرز شهرة واسعة مكته من قيادة حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين.

الحملة الصليبية على فلونا سنة ١٤٤٤م:

دعا مجمع فلورنسة إلى حرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، وبعد ذلك تجول جاناكي تورشلو Janaki Torzello في أنحاء أوروبا، حاملا رسالة تتضمن أنه لو استطاع أسطول مسيحي أن يمد المضائق، فإن العثمانيين سوف يعجزون عن إرسال مجندات من

(1) Shaw, op. cit., p 50, Halil Inalcik, The Ottoman Empire., p. 20.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453, p.53.

الأناضول. كما أوضح أن عدد الجيش المطلوب الذى يحتاجه لطرد الأتراك من أوروبا واستعادة الأراضى المقدسة، لايزيد عن ثمانين ألف رجل^(١).

وقد عهد البابا إيوجين الرابع (١٤٣٢ - ١٤٤٧) بتنظيم تلك الحملة ودعايتها إلى مندوبه الكاردينال سيزلريني Cesarini، واستغرق الأمر بضع سنوات لتجهيزها، وأصبحت على أهبة الاستعداد حوالى سنة ١٤٤٣. وكان الوقت مناسباً لقيام تلك الحملة، إذ كان السلطان العثماني بعيداً فى آسيا الصغرى، فى الوقت الذى كانت هناك علامات يقظة مبيحة: ففى ألبانيا انتقلت ثورة ضد الأتراك، أشعلها - كما قيل - زعيم الباني مسلم خرج على السلطان اسمه جورج كاستريوتس George Castriotes وهو معروف عند الأتراك مكاندنبرج أو إسكندر بك^(٢). وقد وقع جورج فى قبضة المسلمين وهو صغير كرهينة، ولما بلغ مبلغ الشباب، هرب من الأسر التركي، وتوجه إلى بلاده. وهناك اختارته قبيلته زعيماً لها. وقام بأعمال حرية دفعت القوة فى العشار المجاورة، لدرجة أنه ربما للمرة الأولى فى تاريخهم قد نسوا نزاعاتهم القديمة، وارتبطوا فى مجهود حقيقى للحفاظ على حرية تلالهم. وقد استخدم إسكندر بك فى لقاءه بالجيش العثماني حرب العصابات، الأمر الذى ألحق بمراد هزيمة بعد أخرى^(٣).

وفى المرة البيزنطية أيضاً ظهر أمل فى الأفق، إذ أعاد قسطنطين - آخر الأمباطور - بناء سور هيكاميليون Hexamilion عبر المضيق ، وكان الأتراك قد دمروه فى سنة ١٤٢٣، وأرغم ميد أثينا الإيطالى على دفع الجزية^(٤).

وفى تلك الظروف التى تبشر بالأمل، ارتفع شأن يوحنا هونيادى كبطل مجرى وطنى عظيم، بسبب الانتصارات التى أحرزها ضد العثمانيين فى عام ١٤٤٢، ووضع الأوربيون فيه آمالهم، إذ اعتقدوا أنهم وجدوا أخيراً البطل الميحيى القذى الذى يتزعّمهم فى حملة

(1) Shaw, op. cit., pVol. I, p. 51.

(2) Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p.565.

(3) Schevill, The Hist of the balkan Peninsula, pp. 203-204.

يتر شوجر، ألبانيا العثمانية، ١٣٥٤ - ١٨٠٤، ص ٨٠، انظر ص ٢٣٩.

(4) Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p. 565.

صلية ناجحة^(١). ويدل ذلك واضحاً عندما عاود السلطان مراد الثاني غزو ترانسلفانيا في عام ١٤٤٢ هزم في هرومانستد وخسر عشرين ألفاً من القتلى. وفي غضب قام بمحاولة نائلة يائسة للإغارة على المدينة، ولكنه قاسى مثل النتائج السابقة. وأسر هونيادى خمسة آلاف من المحاربين الأتراك، وذهبت أدراج الرياح تلك القصة التى كانت تؤكد أن الأتراك قوة لا يمكن قهرها^(٢).

وعلى أية حال، سارت الحملة من المجر في يوليو سنة ١٤٤٣، وقد أبغت نفس طريق حملة نيقوبوليس، وبلغ عدد جيش الحملة خمسة وعشرين ألف مقاتل بقيادة سيزارنى وجورج برانكوفتش وبوحنا هونيادى بحذاء نهر الدانوب، فى الوقت الذى كان على الأسطول أن يحرق من البحر الأسود لمقابلتهم على الساحل^(٣). واستولى هونيادى على نيش ومعظم جنوب صربيا، وحث إسكندر بك والألبان على توسيع مقاومتهم ضد العثمانيين. ثم توجه الصليبيون بعد ذلك إلى الجبال البلقانية فى بلغاريا، واستولوا على صوفيا على أمل عبور الجبال والوصول إلى الأراضي المنخفضة بحذاء نهر ماريتزا قبل أن يتهمى فصل الشتاء^(٤).

وإزاء تلك الظروف المتغيرة، أسرع السلطان مراد الثاني عائداً إلى أوروبا. وكان جمشه فى روميللى (البلقان) قد تفرق قبل وصوله، وكان يكوات الحدود وكشهر من القيادة الإقطاعيين، قد استغلوا الهزائم التى لحقت بالسلطنة، وأيدوا وضع محمد الإبن الأصغر لمراد على العرش العثماني. وهنا نلاحظ أنه كان مع مراد قوات القابوقولى الجديدة من المشاة وقوات الإنشكارية التى رجعت معه من الأناضول. ولذلك قرر مراد إيقاف تقدم الصليبيين بالاستحواز على أحد الممرات البلقانية كابولو ديرينيدى (بوابة تراجان Trayan Gate)، إذ كان على العدو أن يخترق هذا الممر حتى يصل إلى الأراضي المنخفضة. وقد أحرز الصليبيون انتصاراً ضد العثمانيين فى بداية هجومهم فى ٢٤ ديسمبر عام ١٤٤٣،

(١) هزى سوربال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠١ - ١٠٢.

(3) Nicol, op. cit., p. 82.

(4) Shaw, op. cit., p. 51.

ولكن اقتراب، حلول فصل الشتاء جعل هونيادى يتخلى عن الحملة الصليبية، بعد أن قام بذبح الآلاف من الأسرى المسلمين، ورجع إلى المجر لقضاء فصل الشتاء^(١).

والواقع أن وضع العثمانيين صار محرجاً، فى حين أحس الصليبيون بإمكانية إحراز النصر، خاصة بعد أن تدفقت آلاف أخرى من الصليبيين على المجر، وحملت الدول المسيحية السلاح من جديد، ووجد مراد نفسه عاجزاً عن حسم الموقف، فأقنعه وزيره الأعظم وزوجته مارا الصربية، بضرورة عقد الصلح. ومن خلال وصاية برانكوفتش ملك الصرب عقدت اتفاقية فى أدرنة فى ١٢ يوليو ١٤٤٤ مدتها عشر سنوات. ولكن هونيادى المقاوم العنيد وأتباعه اشتراطوا أن يعود ومعظم جيشه إلى الأناضول^(٢). وبمقتضى هذا الصلح حصل برانكوفتش على أعظم مكاسبه، فقد نال استقلاله، وبذلك عادت مملكة الصرب إلى ما كانت عليه عند موت ستيفن دوشان فى عام ١٤٢٧، وضمت المجر واللاتيا^(٣).

وعندئذ أحس السلطان مراد الثانى أن يومه الحرة إلى الأناضول لمواجهة أعدائه، وفى اعتقاده أن الحلفاء الصليبيين، وهم مسيحيون، لن يخرقوا الاتفاقية، ولكنه أساء التقدير. إذ استطاع المنسوب البابوى المرافق للجيش الصليبي التحالف الكاردينال سيزارىنى، أن يقنع قادة الجيش على أن كل يمين قبذل لكافر تعتبر باطلا، وحشهم على مواصلة الزحف، واستغلال ما لديهم من ميزة. غير أن ملك الصرب جورج برانكوفتش الأرثوذكسى لم يوافق على نقض الاتفاقية، ولم يسمح لإسكندر بك أن يبقى مع الجيش، واحتج على نقض الاتفاقية يوحنا هونيادى، على أنه بقى فى قيادة الجيش، بعد أن وعده الكاردينال سيزارىنى بتاج بلغاريا بمجرد تحريرها نهائياً من نير الأتراك^(٤).

على أية حال، تحرك جيش صليبي ضخم بجنوده من جميع أنحاء أوروبا إلى بودا Buda تحت زعامة الملك المجرى لاديسلاس، وقد غادر هذا الجيش سزجدين فى أول

(1) Shaw, op. cit., p 51.

(2) Shaw, op. cit., pp 51-52, Pears, op. cit., p. 161.

(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٧.

(2) Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p. 565, Shaw, op. cit., pp. 52-53,

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٧٦ - ٧٧٧، عزيز سوزال: المرجع السابق، ص ١٠٢.

سبتمبر عام ١٤٤٤، وانضم إليه هونيادى فى أروسوفا الواقعة على الدانوب، ومعه قوة من فرمان ترانسلفانيا، ثم زحف الجيش الصليبي غربا بحذاء الدانوب تجاه فارنا^(١)، وهى مدينة جميلة تقع فى بلغاريا اليوم على شاطئ البحر الأسود.

وعندما علم السلطان مراد الثانى بما أقدم عليه الصليبيون من انتهاك الاتفاقية عاد مسرعاً، وبمساعدة السفن الجنوية نقل الجيش العثماني الأناضول إلى أوروبا فى أكتوبر عام ١٤٤٤، وقد بلغ هذا الجيش ثلاثة أميال جيش الصليبي، ونشبت المعركة فى ١٠ نوفمبر من نفس العام بالقرب من فارنا، فاستبسل الصليبيون فى المقاومة، وفى أثناء اشتداد حدة المعركة، كان السلطان الذى أمر بأن ترفع على لوائه المعاهدة التى جرى انتهاكها، يصبح هاتفاً فأبها المسيح إذا كنت إليها حسباً يقول أتباعك، فلتزل العقاب بهم لما ارتكبه من خيانة. ونقلب مراد، وانتصر انتصار ساحقاً بفضل حماسة وأعداد جيشه، فلقى الملك المجرى لاديسلاس مصرعه ومات الكاردينال سيزاريني، وهرب يوحنا هونيادى مع قلول جيشه الضئيلة^(٢).

وتعتبر معركة فارنا علامة بارزة فى تاريخ العلاقات التركية الأوروبية. فقد حطمت اعتقاد المسيحيين أنهم قادرون على طرد الأتراك إلى آسيا، وهى آخر محاولة يقوم بها الغرب الأوروبى لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من الغرق، وهو المصير الذى سنراه بعد تسع سنوات^(٣). وقد أثبت فشل حملة فارنا تأسيس السيطرة التركية فى كل شبه جزيرة البلقان، تلك السيطرة التى استمرت حوالى أربعة قرون^(٤).

والمهم أن حملة فارنا الصليبية هى آخر محاولة قام بها الغرب الأوروبى لتخليص القسطنطينية، ولم يشترك الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن فيها، وشعر البعض أن فقدانهم

(1) Shaw, op. cit., p 54, Pears, op. cit., p. 169.

(2) Nicol, op. cit, p. 92. Ostrogorsky, op. cit., pp. 565-566, Eliot, Turkey in Europe., p. 40.

رنسيمان: المرجع السابق، ج ٣١، ص ٧٧٧، هنري سوربال: المرجع السابق، ص ١٠٢.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 51.

(4) Halecki (O.), The Crusades of Varna. A Discussion of Controversial Problems (New York, 1943) P. 5.

حريتهم على أيدي الأتراك، أفضل من الحصول عليها على أيدي اللاتين. صحيح أن آلاف المسيحيين صاروا وقتئذ تحت سيطرة الحكم الإسلامي لمدة جيل أو أكثر، ولكن بإمكان عقد مقارنة بين عدالة وتسامح سادتهم الأتراك بمجرقة واستبداد الفرنسيين والإيطاليين في مستعمراتهم الإغريقية، فالحياة كانت صحية في ظل الأتراك، ولكنها كانت مفعمة بالإستقرار، بدلا من المصير المجهول تحت وطأة اللاتين، أى أن المسيحيين كانوا يفضلون الخضوع لحكم السلطان العثماني على الإذعان لسيطرة اللاتين^(١).

لم يقتصر الاحتفال بانتصار تركيا على الصليبيين وحدها، بل امتد إلى العالم الإسلامي أجمع، وفي الجمعة الأولى من وصول الخبر إلى القاهرة في أبريل سنة ١٤٤٥، أمر السلطان المملوكي جقمق بذكر إسم السلطان بعد رسم الخليفة العباسي، والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين في الأقطار المملوكية، وأقيمت الاحتفالات بهذا النصر في مصر^(٢).

وقضى السلطان مراد الثاني بقية سنوات عمره في القيام بسلسلة من الحملات العسكرية، لإقرار الحكم العثماني في البلقان، وذلك بالضغط على أتباعه وأفعاله الذين ثاروا عليه، واشتركوا في الحملة الصليبية السابقة. ففي سنة ١٤٤٦ اجتاح مراد المرة، وأجبر البيزنطيين على الدخول في طاعته، وفرض حكما عثمانيا مباشرا على معظم أراضي اليونان الرئيسية، وإن كانت البندقية وجنوة والبيزنطيون لازالوا يسيطرون على حلقة من الموانئ والجزر المعتدة في كل الطريق من كورفو إلى ليجروونت. كذلك جعل مراد بلغاريا تحت السيطرة المباشرة للعثمانيين، وأقصى أمراءها الوطنيين، وأخذ في «تتريكها» و«عثمتها»، بصورة نفوق ما حدث في أي ولاية بلقانية أخرى. واستوطن عدد كبير من القبائل التركية في الشمال والشرق، ولهذا ففي أقل من قرن أصبح الأتراك يمثلون غالبية السكان. وقام مراد أيضا بحملة هامة ضد الثائرين في ألبانيا في سنة ١٤٤٧م، ولكن أخبار تقدم هونيادي جنوبا ومعه جيش صليبي جديد، أرغمه على التخلي عن جهوده التي كان يضطلع بها^(٣).

(1) Nicol, op. cit., pp. 82-83, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 644. Runciman, The Fall of Constantinople, p. 21.

(٢) يلمز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١٢٧.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I, P. 53, Pears, The Destruction of the Greek Empire. pp.

وكان هو نياى بعد موت لاديسلاس ملك المجر قد حين وصيا على طفله، وبذلك عزز قوته على القيام بتنظيم جهد صليبي جديد ضد العثمانيين. ولم يلبث أن استدعى هونيادى الفرسان الصليبيين من جميع أنحاء أوروبا. وعبر الدانوب فى شمال صربيا على رأس خمسين ألف جندى، على الرغم من أن برفكوفتش رفض التعاون معه أو تقديم مساعدة له. وفى أثناء رحف هو نياى جنوبا انضم إليه الجنود التى أرسلها اسكندر بك، وتلك التى أتت من الاشياء، ولكن مرارجع على وجه السرعة من ألبانيا وتقابل الفرمان فى الموقع القديم كوسوفا هولاي Kossovo - Polye (كوسوفا الثانية)، وكانت المرة الأولى سنة ١٣٨٩ م، فلم تتقد بطولة هونيادى وشجاعة أتباعه وقوع الكارثة بجيشه، إذ أن قلة عدد المسيحيين عن أعدائهم، واضطراب نظامهم، وعدم إحكام خطط الألبانيين والمجريين، ونفاذ البارود من أيد مشاة الألبان والبوهيميين مما جعل بنادقهم غير ذات قيمة، والشك فى ولاء الوالاشيين، كل هذه كانت العوامل التى ساهمت فى مأساة المعركة الثانية فى كوسوفا (١٧ - ١٩ أكتوبر ١٤٤٨)، والتى أنهت الصليبية المجرية بإبادة كاملة لم تستطع تجنبها. وبذلك تأكد الحكم العثماني فى جنوبى الدانوب مرة أخرى. وعندئذ أرسل مراد «الغزاة» إلى الاشياء، وامتداد سيطرته عليها^(١). ولم تبق على قيد الحياة إذ ذاك إلا القسطنطينية كقلعة منيعة وكرمز للإمبراطورية البيزنطية الطاعنة فى السن. ويذكر الأستاذ شو^(٢) Shaw أن النتيجة الوحيدة الأكيدة لهذا الفصل المؤلم فى تاريخ الحروب الصليبية إطالة عذاب الإمبراطورية البيزنطية المتشرة سنوات قليلة أخرى.

وفى ٣١ أكتوبر سنة ١٤٤٨ مات الإمبراطورية البيزنطى يوحنا الثامن فى القسطنطينية يائسا دون وريث من صلبه، وقد أوصى بأن يخلفه أخوه قسطنطين، وكما هو متوقع تقريبا فى عائلة باليولوجوس، فإن اثنين من إخوة قسطنطين وهما ديميتريوس ولوماس نازعا على العرش. ولم ينفذ الموقف إلا أنهم الإمبراطورة العجز الحازمة هيلينا، فقد أكدت حقها فى الوصاية على العرش حتى وصول قسطنطين من المورة إلى العاصمة. وقد توج قسطنطين

(1) Shaw, Hist, of the Ouoman Empire, Vol, I. pp. 53-54.

(2) Ibid.,p. 53.

أمبراطورا في مسترا - بالقرب من مدينة إسبرطة القديمة - في يناير سنة ١٤٤٩، باسم قنستطين الحادى عشر، وهو آخر إمبراطور ييزنطى^(١).

وكان من الواجب أن يحاط السلطان العثمانى مراد الثانى علماً باعتلاء قنستطين الحادى عشر بليونجوس، عرش الدولة البيزنطية، ولكنه لم يد أى اعتراض، إذ صار متقدماً فى السن ومنهكاً، وعهد بمعظم سلطاته إلى ابنه محمد، وتوفى السلطان بالكنة القلبية فى بروسة فى ٥ فبراير سنة ١٤٥١، قبل أن يرى القسطنطينية قد أضيفت إلى إمبراطوريته^(٢). ولكنه قبل أن يموت عمل على أن يجب ذلك أية منازعات داخلية جديدة حول الوصول إلى العرش بعد وفاته، ولذلك ترك وصية مكتوبة عين فيها ابنه محمداً خليفة له، وكان فى سن التاسعة عشرة، وأرسل الوصية إلى كل الولايات والوزارات، واختار الصدر الأعظم جندرلى خايل باشا وصياً عليه^(٣).

وكان محمد الثانى ساعة وفاة والده فى إمارته مغنياً بآسيا الصغرى. فوصلته رسالته على وجه السرعة جاء بها نعى والده، ويدعوه كبار رجال الدولة بسرعة الحضور إلى أدرنة، وهناك استقبله كبار رجال الدولة والعلماء، وفى ١٨ فبراير سنة ١٤٥١ تولى محمد الثانى عرش آبائه. وعندما علم الإمبراطور البيزنطى قنستطين الحادى عشر بوصول محمد إلى العرش أرسل سفارة لتقديم العزاء فى وفاة أبيه، وتهيئته بالعرش، فرحب محمد بالسفارة^(٤).

وسجل عهد السلطان مراد الثانى نهاية الثقافة العثمانية القديمة، فقد واصلت الحياة الدينية فى عهده درائها فى فلك الصوفية التى فرضت طابعها على الحياة الفكرية. فقد كانت قصائد الشاعر التركى الشرقى المتصوف أحمد يسوى، معروفة فى الأناضول منذ القرن الثالث عشر بواسطة لطرق الصوفية التى نشرت تعاليمه. وفى بلاطه فتح أبوابه

(1) Nicol, op. cit., pp. 83-84.

(2) Ibid, p. 84.

(3) Shaw, op. cit., p. 54.

(4) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 187-191, Kritavoulos, Hist of Mohamed the Conguerer, Trans from greek by charles T. Riggs (New Jersey, 1954), p. 13.

للملحاء والشعراء والموسيقين، وأخذت اللغة التركية محل لغتي الأدب الرفيع: العربية والفارسية^(١).

ويعتبر مراد الثاني من أكبر المهتمين بالبناء والتشييد، فالجوامع والكليات الموجودة في بروسه وأدرنة من إنجازاته، وكذلك دار الحديث (١٤٣٥)، والجامع ذو الثلاث شرفات وكنياته (١٤٤٧)، وأوزون كوبرى على نهر أركنه الذى استغرق تنسيده ستة عشر سنة، وكان طوله ٣٩٢ متراً، وهو من الإنجازات الهامة التى شيدها بأموال الفئام، وافتتح فى سنة ١٤٤٣ (٢).

ويقول المؤرخ الألماني فون هامر Von Hammer: «حكم السلطان مراد الثانى فى إمبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ثلاثين سنة. كان عادلاً مليماً النية مع رعيته دون التفرقة بين الأديان، وعرف بوفائه بوعده فى الحرب والسلام، يفضل الصلح، لكنه لم يكن يتردد فى الحرب إذا دعت الضرورة لذلك. كان انتقامه شديداً من الذين لا يوفون بمهودهم، فلا ضير عنده فى هذه الحالة من إبادةهم، ولم يفقد دهاءه حتى نهاية سلطته»^(٣).

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نية أمين فارس، منير البلطكى (بيروت ١٩٦٥)، ص ٤٢٩.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٣٠.

(٣) نفس مرجع السابق والصفحة.

الفصل الخامس

محمد الفاتح

(١٤٥١ - ١٤٨١)

- فتح القسطنطينية.
- فتح صربيا والبوسنة وهرزوجيفنيا (الهرسك).
- حروب محمد الفاتح في المورة.
- حروب محمد الفاتح في ألبانيا.
- حروب محمد الفاتح في الاشيا (الأفلاق) ومولدافيا.
- حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان.
- حصار رودس والاستيلاء على أوترانتو في جنوب إيطاليا.

ورث محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) إمبراطورية أفضل حالا من تلك الإمبراطورية التي كان يحكمها أبوه قبل ذلك بثلاثة عقود، إذ كان مطلق اليد في أخذ زمام المبادرة دون أن يرضخ لأية ضغوط داخلية أو خارجية. بيد أن محمد الثاني عقب توليه العرش شعر هو ومستشاروه وخاصة شهاب الدين شاهين وزغنوس باشا أنهم في حاجة إلى إحراز نصر مشير يقوى مركزهم ضد النبالة التركية، التي لازالت في حاجة إلى الهدوء والاستقرار لمنع القايى قولو Kapikulu والدوشرمة من القيام بفتوحات لبناء قوتهم^(١).

ولاشك أن الاستيلاء على القسطنطينية كان ضرورة سياسية واستراتيجية، ذلك أن وجود قلعة مسيحية وسط أراضى السلطان وفي موقع استراتيجي غاية في الأهمية، كان أمراً يهدد أمن السلاطة من الداخل والخارج. كما أن وجود إمبراطور مسيحي وبطريك للكنيسة داخل الدولة مستقلين عن السلطة العثمانية، كان من شأنه أن يجعل من رعايا السلطان المسيحيين والذين كانوا يمثلون أغلبية السكان، عناصر للثورة المضادة^(٢).

وأحرى محمد الثاني أنه طالما ظلت الإمبراطورية البيزنطية باقية، فسوف يكون هناك احتمال لقيام حملة صليبية جديدة تقلق بال العثمانيين، واستعوق توحيد شطرى الإمبراطورية العثمانية وتجعل منه أمراً متحيداً. ومن الأحلام التي وادرت العثمانيين تأسيس إمبراطورية عالمية تكون القسطنطينية مركزها الطبيعي. ونجفى ألا ننسى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تأوى المايعين المسلمين في أحقيتهم في العرش العثماني^(٣).

ومن الواضح أن مدينة القسطنطينية تحتل موقعاً فريدا بين مدن العالم، وتتميز بأهمية جغرافية واستراتيجية، فمن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء القارتين آسيا وأوروبا إذ يحاذيها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبي من جهة الشمال، وبحر مرمرة في الجنوب، ولا يمكن الوصول إليها يراً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثاً تحمي المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته الأسوار المنيعة التي

(1) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire. Vol. 1, p. 55.

(٢) شوجر: أوروبا العثمانية، ص ٨٤.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I. p. 55.

أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، فقد سيطرت سيطرة نامة على كل تجارة البحر الأسود، فمنها تتجه طرق التجارة شمالا إلى روسيا، وشرقا إلى آسيا حيث تؤدي الطرق البرية إلى الهند والصين ووسط آسيا، وغربا إلى وسط أوروبا، وجنوبا إلى الشام ومصر وأفريقية. وما يجدر ذكره أن القسطنطينية بفضل مزاياها التي نحتدنا عنها، ظلت قادرة على الوقوف في وجه أعدائها، وخط دفاعي أول ضدهم، والحفاظ على الإمبراطورية البيزنطية لمدة تربو على الألف عام^(١).

وقد نوه نابليون بونابرت بوجه خاص في المصور الحديثة بأهمية القسطنطينية وخطورتها، فقال في شأنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»، وأشار في مذكراته التي كتبها في منفاه بحزيرة سانت هيلانة أنه حاول عدة مرات الاتفاق مع روسيا على اقتسام الإمبراطورية التركية، ولكن وقفت القسطنطينية في كل مرة العقبة الكؤود دون الاتفاق، فقد كانت روسيا تلح في امتلاكها، ونابليون بعصر على عدم تسليمها، إذ أن هذه المدينة وحدها كانت في نظره نساوى إمبراطورية، وهي بعد بمثابة مفتاح العالم، من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه^(٢).

وقد أدرك الفزا والفائحون منذ وقت بعيد أهمية مدينة القسطنطينية وخطورة موقعها، فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات كثيرة، غير أن هذه المدينة استطاعت بمناعة موقعها وقوة حصونها وأسوارها أن تصد عن نفسها أعظم الفزا والفائحين. وكان للمسلمين نصيب كبير من هذه المحاولات، وقد وردت أحاديث شرفة كثيرة بشهرهم بفتح القسطنطينية، منها «لقتحن القسطنطينية، قلنم الأمير أميرها ولنم الجيش»، الأمر الذي زادهم تعلقا وأملا في فتح هذه المدينة. وأولى محاولات المسلمين ما كان في عهد خلافة معاوية بن أبى سفيان عندما وجه إينه يزيد إلى القسطنطينية في القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى)، على رأس حملة ضخمة كان نصيبها الإخفاق، وكان من شهدائها أبو أيوب الأنصارى، الذى أوصى وصيته التى صارت منارا يهتدى به المسلمون التواقون لحرب البيزنطيين على مر المصور. لقد قال أبو أيوب ليزيد بن معاوية وقد عاده حين نقل عليه

(١) محمود محمد الحورى: رؤية في مقوط الإمبراطورية لرومانية (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٤٣.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاخ، ص ٢٧.

المرض: «إذا مت فاركب يى، ثم صُغ يى فى أرض العدو ما وجدت مساعاً، فإذا لم تجد مساعاً فادفتى ثم ارجع». وتوفى أبو أيوب الأنصارى سنة ٥٢هـ فنفذ المسلمون وصيته، ودفن تحت أسوار القسطنطينية، حيث صار قبره مزاراً للبيزنطيين والمسلمين على السواء، إلى أن كان فتح العاصمة على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد، فوجدوا ضريحه ونوا عليه قبة، وأقاموا إلى جانبه معجداً يباع فيه سلاطين آل عثمان، حيث يقدرون سيف عثمان مؤسس الدولة العثمانية، من يد إمام مسجد أبى أيوب الأنصارى.

ومن أعظم المحاولات التى قام بها المسلمون لفتح القسطنطينية ما كانت فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨هـ، فقد جهز جيشاً ضخماً، عهد بقيادته إلى أخيه سلمة بن عبد الملك. وبالرغم من ضخامة هذا الجيش وعظم العدة فى البر والبحر، وما أظهره المسلمون من البسالة فى الحصار والقتال، فقد ردتهم القسطنطينية بأسوارها المنيع ونيرانها الإغريقية الفتاكة.

وفى تراث الأتراك كانت القسطنطينية تدعى أحياناً كيزيل إلما Kizil Elma أى.. التفاحة الحمراء، بمعنى أنها الحلم الذى يتوق المسلمون الوصول إليه^(١). ولذا كان من الطبيعى بعد أن استقر العثمانيون فى آسيا الصغرى، وأقاموا بها دولتهم، ولاصقوا الدولة البيزنطية أن يزنو بأبصارهم إلى القسطنطينية، وقد حاصرها السلطان بايزيد الأول، وكان من المحكن أن يقرر مصيرها، لولا أن تيمور الأعرج حوّل انتباه السلطان إلى آسيا الصغرى، كما حاول السلطان مراد الثانى فتح القسطنطينية، ولكنه لم يصل إلى غرضه، حتى جاء السلطان محمد الثانى، فشغل نفسه برسم خطط لفتحها، وذلك منذ اللحظة الأولى التى اعتلى فيها العرش.

حاول العثمانيون مراراً الاستيلاء على المدينة لأنهم كانوا يشعرون بأنها العاصمة الطبيعية لإمبراطوريتهم، إذ أن بقاءها فى أيدي غيرهم من شأنه أن يهدد المواصلات التى تربط أملاكهم الأوربية والآسيوية، كما أن الاستيلاء عليها كفيل بتشديد قبضتهم على الأراضي التى يحكمونها، ويخلق المهابة والعظمة اللتين كانتا لازماً لتكثان حول تلك الأموار التى أحاطت بقاعدة الإمبراطورية الرومانية الشرقية حوالى أحد عشر قرناً^(٢).

(1) Hearsy, City of Constantine, p. 230, Shaw, op. cit., p. 55.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٦٥.

وعلى أية حال، كانت الظروف مهيأة تماما لفتح القسطنطينية، فقد صارت حطاما، وظلا واهيا، وكما قال عنها المؤرخ ديبل Diehl «القسطنطينية جسم مريض وضعيف وبائس برأس ضخمة، وتحيط بها دولا إما مستقلة أو عدائية، حتى أطلق على الإمبراطورية البيزنطية «رجل العصور الوسطى المريض»^(١).

غير أنه كانت ثمة مصاعب لا بد أن يعالجها السلطان العثماني محمد الثاني قبل الإقدام على فتح القسطنطينية. فقد استغل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر باليولوجوس (١٤٤٩ - ١٤٥٣) صفر من السلطان واختار أحد الأمراء العثمانيين لينافسه على تولي العرش. وحدث في البلقان والأناضول أن بدأ أتباعه في استغلال الفرصة بحجة عدم خبرته وثاروا عليه. كما عرف محمد الثاني أن النبالة التركية اتى يترجمها الصدر الأعظم جندرلى خليل تعارض خططه الرامية إلى فتح القسطنطينية. ولم يتطع محمد أن يتخلص من نفوذ وزيره الأعظم^(٢). ولكنه قام بقتل إخوته الصغار، خوفا من منافستهم في الملك إذا كبروا، وكان منهم طفل رضيع هو ابن زوجة أبيه الشرعية ابنة أمير سينوب، فأمر بقتله في الحمام، وأرغم أمه أن تتزوج مملوكا من البطانة يدعى إسحق باشا. ولكن واحدا من أولئك الإخوة الصغار يدعى كلابين، أنقذ وحمل إلى روما، حيث نصر وسمى «كالستوس أوتوماتوس»، وأقطعه الإمبراطور فردريك الثالث ضيعة في النساء، فماش هنالك حتى مات^(٣). وكإجراء أمن داخلي أمر محمد الثاني بترحيل زوجة أبيهما إلى موطنها الأصلي صربيا ومعهما معظم مستشاريها، وأحل محلهم في المراكز المناصب الهامة رجاله المقربين إليه^(٤).

وحتى يركز محمد الثاني جهوده على فتح القسطنطينية، ولا يشغله شيء عنها، كان لابد أن يتحرك لتهدئة جيرانه، فجدد اتفاقيات السلام مع صربيا والاشيا. ولكن الوضع مع إمارة قرمان أشد صعوبة، إذ كانت لاتزال تخكم قطاعا ضخما من وسط وشرق الأناضول

(1) Lamerle (Paul), A Hist. of Byzantium. Trans. by Antony Matthew (New York, 1964), pp. 119-120.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol I, pp. 55-56.

(١) محمد عبد الله هتان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢)، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(4) Shaw, op. cit, p. 56.

ومعظم قبايلية، وتستخدم نفوذها في إثارة القلاقل في الأقاليم المجاورة ضد العثمانيين، -
وتبث عدم الثقة فيهم. فيمت السلطان جيشه بقيادة إسحق باشا لقتال إبراهيم بك أمير قرمان
الذى كان يريد الاستفادة من فترة الانتقال من عهد إلى آخر، وسار إسحق باشا في إثره،
ولم يكد الجيش العثماني يصل إلى اكشهر Aksehir، حتى فوجئ به إبراهيم، ووجد أنه
أضعف من الوقوف ضده، فاضطر إلى الصلح والإذعان، ووافق إبراهيم على إعادة الحدود
القديمة وتمهد ألا يخرج بجيوشه إلى ما وراءها، وزوج إبراهيم إحدى بناته لمحمد الثانى
لتقوية العلاقة بينهما، وتوكيداً لطاعته^(١).

وعندما عاد محمد الثانى من قرمان، شرع فى مارس سنة ١٤٥٢م فى بناء قلعة
حصينة على الضفة الأروبية لمضيق البوسفور، فى الموقع الذى يتميز فيه المضيق بأقل اتساع
له، حيث ينخفض العرض إلى ٦٦٠ متراً، فى مواجهة قلعة أناضولو حصارى التى كان
السلطان بايزيد الأول قد شيدها على الضفة الآسيوية، فكان باستطاعة محمد الثانى
بسيطرته على هذين الموقعين أن يفلق حسب مشيئة كل إتصال بين القسطنطينية والبحر
الأسود، أى تجويع أهالى القسطنطينية. وكان للقلعة أربعة عشر برجاً، منهم خمسة أبراج
مغطاة بالرصاص، وعرفت تلك القلعة بروميللى حصار، وقد تم بناء هذه القلعة فى
أواخر أغسطس سنة ١٤٥٢م. وعندئذ بعث الإمبراطور البيزنطى بمفرائه للاحتجاج على هذا
العمل، فأمر محمد الثانى بهم ققطعت رؤوسهم، وأصدر أوامره إلى قائد القلعة فيروز أغا بأن
يوقف كل السفن الأجنبية التى تمر أمامه، سواء كانت آتية من جنوة أو البندقية أو
القسطنطينية أو كافا أو طرايزون أو أميوس أو سينوب، وأن يفتشها وتؤدى ضريبة المرور، فإن
رفضت فعليه أن يطلق عليها المدافع ويحرقها. ولاشك أن هذا الإجراء عاد على التجارة
الإيطالية بالضرر الجسيم^(٢).

(1) Shaw, op. cit., p. 56, Kritovoulos, Hist. of Mohamed the Conqueror, p. 14, Eliot, Turkey in Europe., p. 42.

(2) Nicolo Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople 1453. Trans. by Jones (J.R.), (New York, 1969), p. 9, Shaw, op. cit., p. 56, Nicol, op. cit., pp. 34-35, Kritovoulos, op. cit., pp. 15-16, lemerle, op. cit., p. 130.

وهدى أن ثلاثة من القباطنة البنادقة كانوا عائدتين من البحر الأسود فى سفينة، فمروا على مرأى من روميللى حصار فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٤٥٢، ورفض الثلاثة الاستجابة للإنذار العثمانيين، وامتناع إثنان منهم الهروب دون أية خسائر، ولكن الثالث واسمه انطونيو ريزو Antonio Rizzo كان مئى الحظ، فغرقت سفينه، وانتشل من الماء وسبق إلى حاكم أدرنة، وحكم عليه بالإعدام «بالخازوق»^(١)، وضربت أعناق معظم بحارته. وصارع مندوب البندقية فى القسطنطينية جيرولامو مينوتو Girolamo Minotto بإيفاد مبعوث إلى السلطان لمحاولة إنقاذ حياتهم، ولكنه وصل متأخراً^(٢).

ولكى يتم محمد الثانى عزل القسطنطينية ويحكم تطويقها، بث قائده طرخان على رأسى جيش قوى فى بداية شهر أكتوبر سنة ١٤٥٢ إلى شبه جزيرة المورة لمناجزة حاكمها توماس وديميتريوس باليولوجوس ومنعهما من مساعدة أخيهما قسطنطين إمبراطور القسطنطينية، كما أرسل فرقاً من جنده لتطهير المناطق المجاورة لهذه المدينة^(٣)، وتمكن من وقف أى إمدادات تتجه إليها.

وأقبل الشتاء، ودلت بوادره على أنه سيكون قارصاً شديد البرودة، وفرح قسطنطين بذلك، وظن أن البرد سيعوق الأعمال الحربية، وبعث إلى محمد الثانى يحاول صرقه عما

(١) الخازوق هو عمود من الحديد الأملس له رأس مذهب كالقلم الرصاص، ويؤذى بالضحية فيطرح أرضاً على بطنه وتنزع ليابه. وبدأ خبير الخوزقة فى إدخال الخازوق فى فتحة الشرج والدق على قاعدته بلطف حتى يأخذ طريقه إلى أحشاء الضحية بطريقة إنسيابية. ومع كل دقة تتعالى صرخات المعضب إلى عنان السماء من شدة الألم، وتمثل براعة خبير الخوزقة فى قدرته على إيلاج الخازوق إلى جوف الرجل دون أن تصرق أعضاؤه فيموت سريعاً ويتغى الغرض من التعذيب. فإذا نجح فى مهمته وتم إدخال الخازوق كاملاً، رفعوا الضحية ليأخذ الوضع جالاً على الخازوق فيضاعف آله وكأه قاعدته على قرن ملتهب. لم يشدون وثاقه إلى عمود قائم تحت حراسة مشددة. وتركوه هكلاً فى العذاب المقيم حتى يلفظ أنفاسه، وبعدها تبدأ الكلاب والضباع والصقور والحشرات فى نهش جيفته. أنظر: جمال بدرى: جريدة الوفد، «نظرات فى التعذيب»، ٢٩ يونيو ١٩٩٥، ص ١٤.

(٢) هابذ: تاريخ التجارة، ج٣، ص ١٦٣.

شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب د. أحمد عزت، عبد الكريم، لوفيق أسكندر (القاهرة ١٩٤٧)، ص ١٣٦.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٤٨.

هو سبيله للاستعداد للحرب، فقال محمد الثانى للرسول: «إذا كان إمبراطوركم يخشى الحرب، فليسلم لى القسطنطينية، وأقسم أن جيشى لن يتعرض لأحد فى نفسه أو ماله، ومن شاء بقى فى المدينة وعاش فيها فى أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها وذهب حيث أراد فى أمن وسلام أيضاً»^(١).

أدرك الإمبرطور البيزنطى نوابا السلطان العثمانى، ومثل أخيه استجد بالغرب الأوروبى، غير أن البابا فى روما يقولوا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) طلب فى مقابل الدفاع عن المدينة أن تخضع له الكنيسة الشرقية البيزنطية، وحين وافق الإمبراطور على ذلك استشاط رعاياه المتسكون بمذهبهم الأرثوذكسى غضبا^(٢). أما أوروبا آنذاك فقد كانت منهكة فى منازعاتها الخاصة، ذلك أن فرنسا وإنجلترا أنهكهما عندئذ الصراع الطويل الذى انتهى بضباع ممتلكات إنجلترا فى القارة، فى حين كانت ألمانيا دولة ممزقة لاستطيع الوقوف على قدميها إلا فى صعوبة، مما ترك الإمبراطور البيزنطى وحيدا دون معونة تذكر^(٣). ومع ذلك فقد أعدت البندقية عشر سفن بقيادة جاكوبو لوردانو Jacopo Loredano، ثم بعث البابا بثلاثين سفينة، وأبحرت هذه السفن معا وكانت تحمل الزاد والعتاد والجند، ووصلت إلى جزيرة حيوس، ثم استأنفت سيرها، ولكنها ما كادت تمضى قليلا حتى التقت بها بعض السفن الفارة من القرن الذهبى تنهبها بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك. أما سفن البندقية التى كانت راسية فى القرن الذهبى من قبل ضرب الحصار، فقد اشتركت كلها فى الدفاع عن القسطنطينية، كما اشترك جميع البنادقة فيها فى القتال وعلى رأسهم الفصل البندقى، وقد قاتلوا جميعا بشجاعة^(٤).

أما حثوة، فقد غلبت عليها المصالح التجارية، فعندما رأت أن الحرب على وشك الاندلاع بين محمد الثانى والقسطنطينية، لم تجاهر بالوقوف إلى أى من الجانبين، وأصدرت تعليماتها إلى مستوطناتها فى جالاتا بأن تتخذ موقف الحياد المشوب بالحدور^(٥).

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: للرجع السابق، ص ٦٦.

(3) Lodge, op. cit., p. 509.

محمد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٧٨)، ج ١، ص ٦٤٤.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٥١.

(5) Nicol, op. cit., p. 36.

وفى ٢٩ يناير سنة ١٤٥٣ وصل إلى القسطنطينية جيوفانى جويستينيانى Giovanni Guistiniani المغامر الجنوى الشجاع ومعه سبعمائة من رفاقه المغامرين الجنويين المسلحين على ظهر سفيتين كبيرتين يمتلكهما. وفى طريقه إلى القسطنطينية توقف فى جزيرتى خيوس ورودمس، وجمع الرجال من هناك. وكان جويستينيانى رجلاً نبيلًا، نشيطًا ذكيًا، شجاعًا إلى أبعد حد، له خبرة بشئون الحرب، وقد أبى من تلقاء نفسه، عندما علم بخطورة وضع القسطنطينية، والحصار الذى فرضه محمد الثانى عليها، وذلك لمساعدة البيزنطيين والإمبراطور قسطنطين والعقيدة المسيحية. وقد سر الإمبراطور لمحبه، واحتفى به ومعه الحكومة والنبل، ووعده الإمبراطور بأن يكافئه بجزيرة لمنوس نظير مساعدته، إذا رفع العثمانيون الحصار عن القسطنطينية، وعهد إليه بالقيادة العامة للدفاع^(١).

وعندما اطمأن البابا نيقولا الخامس إلى أن الإمبراطور البيزنطى سينفذ قرار مجمع فلورنسة سنة ١٤٣٩ بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، أرسل الكاردينال إيزيدور Isi-dore فى مائتين من الجنود المختارة لتوحيد الكنيستين والدفاع عن القسطنطينية. وفى ١٢ ديسمبر ١٤٥٢ قام الكاردينال إيزيدور فى كنيسة آيا صوفيا بإجراء مراسم الاتحاد، وأدى الصلاة على الأصول الكاثوليكية حضرها الإمبراطور ومؤيدوه. وقد أثار هذا العمل غضبا عارما فى نفوس المعارضين للاتحاد، وهم غالبية الشعب ومعظم رجال الدين بزعامة جورج سكولاريوس الذى أصبح البطريرك جناديوس. وفى وسط الاضطرابات التى عمت القسطنطينية، صاح الدوق لوكاس نوناراس - وهو ثانى رجل فى الدولة بعد الإمبراطور من حيث المكانة - قائلاً: «إنه من الأفضل لنا أن نرى فى القسطنطينية حكم عمارة الأتراك، خير من أن نرى فيها قلنسوة البابوية»^(٢).

(1) Barbaro, op. cit., p. 22. Ostrogorsky, op. cit., p. 569, Kritovoulos, op. cit., p. 39, Nicol, op. cit., pp. 36-37, Doukas, op. cit., pp. 211-212, Guerdan (René), Byzantium: its triumphs and tragedy. Trans. by D.F.B. Hartley. (New York, 1957), p. 190.

(2) Guerdan, op. cit., pp. 192-193, Creary, Turkey, p. 74, Diehl (Charles), Hist of Byzantium (New York, 1945), p. 159, Diehl, Greatness and Decline, Trans. from french by Naomi Walford (U.S.A., 1957), p. 223, Imerle, op. cit., p. 134, Ostrogorsky, p. 568, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 647. Runciman, The Fall of Constantinople, 1453 (Cambridge, 1965), p. 21.

عزیز صریال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٣٨.

ونتيجة لانقسام الشعب بين مؤيد ومعارض لاتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، واشتداد الجدل، ونفاقم الخلاف، وتفرق الكلمة، وغلب التعصب على الحكمة، فقد سيطرت هذه الحقنة الكلامية على عقول المدافعين عن المدينة، فزادت قواهم المنوية ضعفا على ضعف، ومازالت هذه المناقشات البيزنطية الشهيرة مضرب الأمثال للجدل المقيم الذى يضطرم وقت الجدد والخطر والدامم^(١).

وفى تلك الأثناء انشغل السلطان محمد الثانى فى الاستعداد والتأهب لحصار القسطنطينية، إذ كان كل همه الاستيلاء على تلك المدينة، وبينما كان محمد الثانى يوجه تعليماته الخاصة بمحاصرة المدينة، جاءه مهندس مجرى يدعى أوربان، وبعد أمهر صانع للمدافع، وكان قد ذهب إلى القسطنطينية ليقدم خدماته للإمبراطور، ولكن أحدا لم يأبه له، فتوجه إلى السلطان محمد الثانى، وسأله السلطان إذا كان باستطاعته صنع مدفع ضخيم يدك به أسوار القسطنطينية، رد المهندس بالإيجاب. فغمره السلطان بالأموال، وأمدّه بما يحتاجه، وانتهى المهندس من صنع المدفع الذى لم ير مثله قط فى ضخامته وكبر حجمه، وذلك فى خلال ثلاثة شهور^(٢). وعندما استخدم المدفع لأول مرة، أهتم السلطان بتحذير الأهالى منه، وذلك لتجنب إخافه النساء الحوامل، وسمع صوته المدوى الصاعق على بعد خمسة عشر ميلا، ويطلق قذائف زنة الواحدة منها ستامة رطل. وبذلك كان محمد الثانى أول حاكم فى التاريخ يمتلك مدفعية حقيقية.

وعلى أية حال، استولى على بال السلطان فكرة فتح القسطنطينية، وسيطرت على جميع حوائه، فكان يقضى الليالى فى التخطيط لمهاجمة المدينة، مستخدما الورق والحجر، وتبع تحصينات المدينة، وبعين لها الماهرين فى عملية الحصار، وأخذ يفكر فى الأماكن التى يضع فيها المدافع، والأسوار التى مىجرى وضع السلاالم عليها، لقد كان يرسم الخطط بالليل، ويصدر أوامره لتنفيذها فى الصباح^(٣).

(١) عبد الله عتاش: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٧٩.

(2) Doukas, op. cit., p. 200, Guerdan, op. cit., pp. 194-195, Castellan, op. cit., p.

76. Runciman, The Fall of Constantinople, pp. 77-78.

(3) Doukas, op. cit., pp. 202-203.

كان عدد الإغريق والأجانب المدافعين عن مدينة القسطنطينية لايزيد عن حوالى سبعة آلاف مقاتل، وقد وقع عليهم عبء الدفاع عن الأسوار ضد القوات العثمانية التى لا تقل عن خمسة عشر ضعفا، وجيش نظامى بلغ حوالى مائة وستين ألف مقاتل، يقوده السلطان ومعه عشرة آلاف من الإنكشارية، ونصب السلطان أمام السور الذى للمدينة المدافع، وكلفت هناك أربع عشرة بطارية، فى كل واحد منها أربعة مدافع^(١)، وضعت فى نقاط متقاربة، واصطف من روائها حملة السهام. أما أكبر مدفع عرفه العالم آنذاك، فقد أمر محمد الثانى بنقل المدفع الضخم من أدرنة إلى القسطنطينية، فجرى ربط ثلاثين عربة معا يجرها متون ثورا ضخما. وانتشر على الجانبين مائتا رجل لمساندة المدفع ومنعه من السقوط فى الطريق. كما استخدم خمسون نجارا ورجلا لمساعدتهم، وذلك فى مقدمة العربات، لإنشاء كبرى خشبية على الطريق الوعر غير المستوى. واستمرت رحلة نقل المدفع من ١٤٥٣، إلى مارس سنة ١٤٥٣، ثم نصب المدفع العملاق فى مكان يبعد خمسة أميال عن المدينة أمام باب القديس رومانوس، وعهد السلطان لكراجه بك وقواته بحراسة المدفع^(٢).

وبالغ بعض المؤرخين المعاصرين مثل دو كاس وغيره فى تقدير القوات العثمانية المحاصرة، ويقولون إنها بلغت ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف. ويذكر المؤرخ خير الله التركى أنها لم ترد على ثمانين ألف من الجند النظامية والباقي من غير النظامية (الباشا، بوزرق) والدرأيش والحمالين، ويقدرها باربارو سفير البندقية وصاحب يوميات الحصار بمائة وستين ألف. ولكن فرانتزا وهو مؤرخ معاصر أيضا يقدرها بمائتين ثمانية وخمسين ألفا، وهو أرجح التقديرات. وكان من ذلك العدد مائة ألف فارس مختشدين فى المؤخرة، ومائة ألف راجل فى الجناح الأيمن من ناحية الباب الذهبى، وخمسون ألف فى الجناح الأيسر حتى قصر بلاشترنى (بلا شيمار) وكان السلطان يحتل القلب، ومعه خمسة عشر ألفا من الإنكشارية، وربط القائد زغنوس باشا ومعه بعض القوات على مرتفعات ضاحية جالانا لمراقبة حركات الجنويين. واحتشد الأسطول التركى فى مياه البوسفور، وكان يضم حوالى أربعمائة سفينة

(1) Doukas, op. cit., p. 213, Nicol, op. cit., p. 87. Kritovoulos, op. cit., p. 36.

Doukas, Deline and fall of Byzantium., p. 207.

منها نحو عشرين سفينة حربية كبيرة. وكان يرابط بقيادة أمير البحر بلطة أوعلى فى الخليج الذى يحمل إسمه حتى اليوم^(١).

وفى داخل المدينة، قابل الأهالى الاستعدادات التى قام بها محمد الثانى بشعور ملئ باليأس، واستمرت الانقسامات الدينية والسياسية فى نصف جهود الدفاع عن المدينة، فى الوقت الذى لم تأت إلا مصاعبات قليلة من الخارج، الأمر الذى أدى إلى انهيار الروح المعنوية للقوات البيزنطية، حتى أنه لم يعد ثمة رجل تكفى لتغطية الدفاع عن سور المدينة الضخم. ولم يعد للبيزنطيين ما يدافع عنهم سوى الأسوار والنار الإغريقية، ومسلحة طويلة ممتدة فى مدخل القرن الذهبى لمنع دخول الأسطول العثمانى^(٢). وعهد بحراسة ميناء القرن الذهبى إلى الجنود.

وفى يوم الإثنين ٢ إبريل سنة ١٤٥٣، نصب محمد الثانى معسكره خارج أسوار المدينة وسط ضربات الطبول وصياح آلاف الرجال الثائرين. وبعد ذلك بثلاثة أيام وصل السلطان على رأس جيشه، وبدأت مدافع العثمانيين تطلق قذائفها لأول مرة يوم الجمعة ٦ أبريل. وكان لاصطدام القذائف بالسور وخاصة قذائف المدفع الضخم دويا هائلا وژیبرا يمت الرعب فى قلوب أهالى القسطنطينية ويصم الآذان. وأسرع الرجال القادرون إلى أسلحتهم، ورأت أعينهم منظرا مفرعا، فعلى طول السور البرى، من بحر مرمره إلى القرن الذهبى، فى أى مكان يمت إليه البصر، فى الأفق أو على الساحل، جيشا عدده كحبات الرمل، ومدافع ضخمة تتحرك ببطء إلى مواقعها، وآلاف الثيران تخور بصوت عال، إنها إحدى اللحظات الحاسمة فى التاريخ، وقد لحق بأسوار المدينة كشيء من الدمار، ولكن خلال الليل استطاع المدافعون أن ينسلوا إلى الأسوار، وقاموا بترميمات سريعة^(٣).

لم ينقطع العثمانيون عن رمى قذائفهم على سور المدينة من اليوم الثانى عشر من أبريل حتى اليوم الثامن عشر. وأبدى الإنكشارية شجاعة نادرة، لا يبالون الموت، ولا يخافون الخطر، واقتحموا السور كالوحوش الكاسرة، وعندما كان يموت واحد أو اثنان منهم فى

(١) عبد الله هنان، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٧٦.

(2) Kritovoulos, op. cit., p. 36, Shaw, op. cit., Vol. I, pp. 56-57.

(3) Nicol, op. cit., p.87.

الهجوم، ففى الحال كان يأتى مزيداً من الأتراك، ويأخذون اللوتى، ويحملونهم على أكافهم، دون أن يعابوا بخطر الاقتراب من أسوار المدينة^(١).

وفى أھيل اليوم الثامن عشر من أبريل، استطاعت المدافع العثمانية بقذائفها المتواصلة أن تهدم جزءاً من السور الخارجى، واندفع عدد كبير من الأتراك إلى السور، واشتد القتال بينهم وبين البيزنطيين، وارتفعت الصيحات التى أطلقها العثمانيون عندما أتوا إلى السور، حتى بدت أعدادهم أكثر من حقيقتها، واستمر القتال الضارى العنيف إلى أن أعظم الليل، ولكن المغامر جويستينيانى استطاع أن يصد المهاجمين بعد أربع ساعات من النضال العنيف، فأمر محمد الثانى جنوده بالانسحاب^(٢).

وفى نفس ذلك اليوم حاولت بعض السفن التركية تخطيم السلسلة الفليظة (موجودة بالتحف العسكرية حالياً) القائمة على مدخل ميناء لقرن الذهبى واقتحامه، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية استطاعت أن تردّها عن محاولتها. وفى صبيحة اليوم العشرين من أبريل ١٤٥٣ ظهرت فى بحر مرمرية خمس سفن قادمة من الغرب الأوروبى تحمل الطعام والمعدات والرجال، أربع منها بمت بها البابا وجنوه لمساعدة القسطنطينية، والخامسة للإمبراطور كانت تحمل جنوداً ومؤنّاً وأسلحة، وحاولت السفن العثمانية الاستيلاء على تلك السفن، ولكنها عجزت عن ذلك، لأنها كانت مجهزة بمدفعية حنة وبحارة مدربين، واستطاعت السفن الخمسة أن تفلت من بين السفن العثمانية، وتجنّبت الحصار العثمانى، إلى أن دخلت لقرن النهى، حيث أنزلت السلسلة الحديدية الضخمة، ثم شدها البيزنطيون مرة أخرى، ووصلت إلى ملاذ أمين^(٣). أما أهل القسطنطينية، فقد غمرتهم موجة من الفرج، وانتعشت آمالهم، وارتفعت روحهم المعنوية، وزادت نفقتهم فى المستقبل، وأقيمت مواكب الأفراح فى المدينة، ودقت أجراس الكنائس^(٤).

(1) Barbaro, op. cit., p. 32.

(2) Barbaro, op. cit., p. 32. Guerdan, op. cit., pp. 195-196. Stavrianos, op. cit., pp. 56-57.

(3) Kritovoulos, op. cit., p. 52.

سالم الرشيدى، محمد الفايح، ص ٦٠ - ٦٢.

(٤) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ٦٢ - ٦٣.

وفى ٢١ أبريل سنة ١٤٥٣ لم تكف المدافع الثمانية، عن إطلاق قذائفها على أسوار القسطنطينية بالقرب من بوابة القديس رومانوس، وسوى برج بالأرض، وخاف البيزنطيون أن يشن الأتراك هجوما عاما، واعتقدوا أن العمامات التركية سرعان ما ستظهر فى المدينة. ويذكر المؤرخ باربارو أنه لو حدث أن الأتراك قد هاجموا المدينة فى هذا اليوم بعشرة آلاف جندى فقط، فلما لاشك فيه أن المدينة ستقط فى أيديهم، ولكن البنادقة أصلحوا السور. ولم يتوقف الأتراك عن قصف بوابة القديس رومانوس، وهى التى جرت فيها الإصلاحات، بل ركزوا إرسال قذائفهم من مدفعهم الضخم والمدافع الأخرى على هذه البوابة، بحيث كان من الصعب حصر تلك القذائف، وامتألت الأرض بجثث الأتراك، خاصة الإنكشارية بعماماتهم البيضاء. أما الأتراك العاديون، فكانوا يرتدون العمامة الحمراء^(١).

أخذ السلطان محمد الثانى يبحث عن وسيلة لإدخال سفنه فى القرن الذهبى وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها، وإضعاف الدفاع عن السوربرى، وتشديد المراقبة على الجنرية فى جالاتا، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته فى رومبلى حصار. وقد حاولت السفن العثمانية عدة مرات تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل القرن الذهبى، ولكن التوفيق لم يحالفها. ولاحق محمد الثانى فكرة حربية هائلة جديدة بذكائه لنقل السفن من مرساها فى يشكطاس إلى القرن الذهبى، وذلك بحجها على الطريق البرى، وإنزالها خلف السلسلة، وكانت المسافة التى يبنى أن تقطعها السفن نحو ثلاثة أميال، وذلك فوق أرض ليست سهلة، ولكن تخللها مرتفعات وواد وتلال وعرة مترجة^(٢).

وعد أن مهد الأتراك الأرض المنحدرة وسورها، أنوا بألواح من الخشب وطلوها بالزيت والدهون والشحم، ورموها على الطريق، لسهولة زلق المراكب عليها، وهذه الطريقة البتكرة أمكن إنزال نحو سبعين سفينة فى مياه القرن الذهبى فى جنح الظلام فى خليج يدعى المياه الباردة بعد جالاتا بقليل، بعد أن استخدمت التيار لجرها^(٣). واستيقظ أهالى القسطنطينية فى صباح ٢٢ أبريل على صيحات الملسى المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة،

(1) Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople, pp. 36-37.

(2) Barbaro, op. cit., p. 37, Creasy, Turkey, p. 77. Runciman, op. cit., pp. 101-103.

(3) Kritovoulos, op. cit., Guerdan, op. cit., pp. 201-202.

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٠، سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٦٤.

وأناشيدهم العالية، وموسيقاهم المكربة الصاخبة عقب نزولهم فى ميناء القرن الذهبى، فانتابهم الهلع والفرع^(١). وهكذا تحت أول نغمة خطيرة فى خطوط الدفاع البيزنطية، وتم إحكام الحصار فى البر والبحر. ويصف المؤرخ دوكلس وهو بيزنطى عاصر الحادثة، دهشة من هذه العملية قائلا: «إنها لمعجزة لم يسمع أحد بمثلها من قبل، ولم ير أحد مثلها من قبل»^(٢).

وفى اليومين الأول والثانى من عام ١٤٥٣، لم يحدث أى نشاط حرمى فى البحر أو البر، فيما عدا القذف المتواصل للمدافع المشائية، والصياح طبقا لعادة الأتراك. وكنت القسطنطينية فى حالة حزن وألم، بسبب النقص المتزايد فى المؤن، وبخاصة الخبز والنبذ، وأشياء ضرورية أخرى للحفاظ على الحياة^(٣). ولما اشتدت الضائقة بأهالى القسطنطينية، أمر الإمبراطور بأن تؤخذ أنية الكتاس من الذهب والفضة وأن تصهر وتمك نقوداً حتى يأتى الإنقاذ.

وفى اليوم الثانى عشر من مايو، وفى منتصف الليل، أتى إلى أسوار القصر خمسين ألف جندي مزودين بالأسلحة، وأحاطوا به، وأطلقوا صرخاتهم التى أثارت الرعب، وعلت أصوات الصنج والدقوف. وفى الليل شنوا هجوما قويا ضد أسوار القصر، جعل سكان المدينة يظنون أن المدينة وقعت فى أيدي الأتراك فى الليل. ولكن المدينة لم تقع - كما يذكّر المؤرخ باربارو وصاحب يوميات الحصار - لأن الرب شاء ألا تقع فى أيدي الأتراك، تحقيقا للنبوة التى قالها الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) بأن القسطنطينية التى شيدها وحملت اسمه سوف لا تقع أبداً^(٤).

وفى اليوم الثامن عشر من مايو ١٤٥٣، فاجأ محمد الثانى البيزنطيين ببناء برج شامخ استغرق بنائه ليلة واحدة، فطوال الليل ظل عدد ضخم من العمال يعملون فيه، وقد بنى هذا البرج بارتفاع يزيد على أسوار المدينة بالقرب من مكان يدعى كريسكا Cresca، وهو

(1) Barbaro, op. cit., p. 43.

(٢) محمد حرب: الممثانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٧٢.

(3) Barbaro, op. cit., p. 43.

(4) Barbaro, op. cit., pp.48-49.

مكون من ثلاث طبقات كسيت كلها بالجلود، وفي كل طبقة منها عدد من الجنود يحملون معدات القتال، وقد هال أهل القسطنطينية ضخامة هذا البرج، ووقف الإمبراطور البيزنطي ومن معه من أهل المدينة ينظرون إليه في دهشة، وقال المؤرخ باربارو^(١)، الذي شهد هذا البرج بنفسه: «وفي الحقيقة، لو اجتمع كل المسيحيين في القسطنطينية، وأرادوا بناء مثل هذا البرج، لاستغرق منهم ذلك شهرا، وقد بناه المسلمون في ليلة واحدة».

وفي وسط الظروف الصعبة التي شهدتها القسطنطينية بعد شهر من الحصار العثماني، وضع البيزنطيون أملهم في مساعدة الأسطول البندقي، خاصة أن سفير البندقية قد وقع اتفاقية مع الإمبراطورية في ٢٦ يناير ١٤٥٣م، تتضمن أن حكومته سوف ترسل المساعدة عند الحاجة إليها، فإذا ظهر الأسطول البندقي في البوسفور فإن المسلمين ميلونون بالقرار، ولو تأخر في انجاء لنحلة القسطنطينية قلن يجد إلاجشًا لتحريرها. وفي ٣ مايو استدعى الإمبراطور البيزنطي قادة المجتمع البندقي في القسطنطينية وخاطبهم قائلا: «أيها الأقباطة المهذبون، وأنتم كلكم نبلاء البناقية، لقد صار من الواضح أن حكومتكم سوف لا ترسل أسطولا لمساعدة تلك المدينة البائسة، ويبدو لي أنه ينبغي أن ترسل سفينة سريعة إلى المياه القريبة لتحاول أن تجد أسطولكم»، فوافق الجميع على ذلك^(٢)، ولكن البندقية لم ترد الدخول في الحرب بين العثمانيين والبيزنطيين لضمان مصالحها الاقتصادية.

وعلى أية حال، قطع البيزنطيون كل أمل في مجيء النجدة من الغرب الأوروبي، ووضعا كل أملهم في سور المدينة الضخم الذي لم تنقطع مدافع الأتراك عن قذفه ودكه. وامتحذ اليأس على بطريك القسطنطينية، فاعتزل منصبه، واختفى في أحد الأديرة ليقتضى بقية حياته في الصلاة والعبادة^(٣).

وعندئذ طلبت الحامية من الإمبراطور البيزنطي أن يغادر المدينة، على أمل أن يجمع جيش في البلقان لمساعدته ضد العثمانيين، ولكنه أدرك ما رمى إليه الحامية ورفض بإباء قائلا: «أنا لا أوافق أبداً على أن أفارق رجال كيستي وكنتاس العامة المقدمة، وعرضي

(1) Barbaro, op. cit., p. 52.

(2) Guerdan, op. cit., pp. 206-207.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٢.

وشعبى. وماذا سوف يقول العالم؟ أتوصل إليكم ألا تسألونى مغادرتكم، فليس لى من رغبة إلا فى الموت معكم^(١).

وفى ٢٣ مايو ١٤٥٣م أعتقد السلطان محمد الثانى أن الوقت قد حان للقيام بالهجوم الشامل، فبعث برسالة إلى قسطنطين الحادى عشر بالولوجوس بدعوه فيها إلى تسليم المدينة قبل أن تهدر الدماء، وأوفد إليه صهره إسفنديا أرغلو داماد قاسم بك الذى كان يربطه بالإمبراطور ود قديم وصداقة قوية، وعرض عليه أن يسلم المدينة بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الخراب والبؤس، وتهدمت أسوارها، وأن يجنب الأطفال والنساء والشيخ أهوال الحرب ويلائها، وأن الدفاع عبث لايجدى. وعرض عليه باسم السلطان أن يكون حاكما على المورة كما كان من قبل، وسوف يمنح إخوته ولايات أخرى. أما مكان المدينة فمن أراد الرحيل رحل عنها بما شاء من أمواله، ومن أتر البقاء فيها فقد ضمن لهم السلطان على أنفسهم وأموالهم، فإن أبى قسطنطين هذا فلا يتظرن غير الحرب والدمار^(٢)، واجتمع قسطنطين برجاله ومشاريه يأخذ رأيهم فى هذا الأمر، ومال بعضهم إلى تسليم المدينة، ولكن جويتينى وجماعة من أهل الحبر رفضوا هذا العرض، وأصروا على مواصلة القتال مهما كانت نتائجه. وكان ذلك رأى قسطنطين، فقال لرسول السلطان: وأنه بشكر الرب إذا جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية، أما القسطنطينية، فإنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس فى حياته، فإما أن يحتفظ بعرضها أو يدفعن تحت أسوارها^(٣).

وعندما علم السلطان بإجابة الإمبراطور البيزنطى، وانتابه اليأس من الاستيلاء على المدينة بدون حرب، أعطى تعليماته للمنادين ليبلغوا الجيش عن اليوم الذى حدده لشن الهجوم العام على المدينة. وأكد السلطان بأنه لايرد لنفسه غير مبانى المدينة وأسوارها، أما بالنسبة لكنوز المدينة الثمينة وأسوارها فميتركها مكافأة للجنود، فاستحسنوا ذلك وصاحوا فرحين^(٤).

(1) Guderdan, op. cit., p. 202.

(2) Doukas, op. cit., pp. 217-218,

سالم الرشيدى: محمد الفاخ، ص ٧٤.

(3) Creasy, Turkey, p. 77-78, Doukas, op. cit., p. 218.

سالم الرشيدى: المرجع السابق والمضفة.

(4) Doukas, op. cit., p. 230., Runciman, The Fall of Constantinople, p. 126.

وهنا نلاحظ أن ملك المجر أراد أن يضغط على السلطان محمد الثانى وهو فى هذا الوقت الحرج، فأرسل يقول له فى ٢٦ مايو ١٤٥٣ إنه فى حالة عدم توصل العثمانيين إلى اتفاق مع الإمبراطور البيزنطى فإنه - أى ملك المجر - سيقود حملة أوربية لحق العثمانيين. ولم تغير هذ الرسالة شيئا من الموضع القائم، وإن كان محمد الثانى قد صفى حيايه مع ملك المجر^(١).

وبعد أن مضى على الحصار خمسون يوما اشتد فيها الضيق بالمدينة، وظل القصف فيها دون انقطاع، أمضى السلطان محمد الثانى استعداداته الأخيرة فى يوم الإثنين ٢٨ مايو ١٤٥٣، فأمر بنفخ الأبواق فى معسكره، وأمر جميع قواده أن يكونوا على أهبة الاستعداد فى مراكزهم، إذ قرر أن يوجه هجوما عاما على المدينة فى اليوم التالى. وعندئذ أسرع الجميع إلى مراكزهم، ولم يفعل الأتراك شيئا بقية اليوم سوى إحضار السلالم ووضعها على الأسوار لاستخدامها فى اليوم التالى، وقد تم وضع حوالى ألفين من السلالم^(٢).

وفى نفس اليوم ركب السلطان ومعه عشرة آلاف فارس إلى مرسى أمطوله فى بشكطاش ليتفقد، وطلع بنفسه على ما اتخذه من الاستعدادات، ثم وضع مع أمير البحر حمزة باشا التنظيمات حول الطريقة التى سيقتممون بها المدينة ثم رجع السلطان إلى معسكره^(٣).

وفى مساء ذلك اليوم (٢٨ مايو) أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل، وتعلت صيحات المسلمين وهم يهتفون بأعلى صوتهم «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ودقت الطبول، ونفخ فى الأبواق، وارتفعت الأناشيد الحمائية، وأخذ فريق من الشيوخ والعلماء يقرأون القصائد والأذكار الدينية. واستخف بعضهم الطرب والفرح، فأخذوا يتزأبون ورقصون^(٤).

(١) محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٧٢ - ٧٣.

(2) Barbaro, op. cit., p. 59

(3) Barbaro, op. cit., p. 60.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٩.

(4) Guerdan, op. cit., p. 211.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٨.

وبعد أن عاد محمد الثانى إلى معكره، دعا إليه كبار رجال جيته، وأصدر إليهم التعليمات الأخيرة، وأعلن إليهم أن هجوما عاما سيقع على المدينة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: «إذا تم لنا فتح القسطنطينية نحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا المماكر فرداً فرداً، إن الظفر العظيم الذى منحز به ميزيد الإسلام قدرا وشرفا، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنايس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعو القس والضعفاء والمعجزة الذين لا يقاتلون» (١). فتمهد رؤساء الإنكشارية بتحقيق النصر، ووعد السلطان الشجمان الذين يصعدون إلى الأسوار فى المقدمة بأعظم الصلات، وأنه سيعينهم رؤساء وسناجق، ولكنه أئذر الجبناء بشر الجزاء، وطايف المشايخ بالمعكر، حاثين على الجهاد فى سبيل الله (٢).

وقبل ظهور الفجر بثلاث ساعات فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م، أئى السلطان محمد الثانى إلى أسوار المدينة، وبدأ أشد الهجوم وأعنفه. وقد قسم السلطان الذين يقاتلون إلى ثلاثة أقسام، يضم كل منها خمسين ألف مقاتل، فالقسم الأول مؤلف من جنود الرومىلى، وأمرى المسيحين الذين احتفظ بهم السلطان فى معكره، والقسم الثانى مؤلف من رجال ينتمون إلى رتب متواضعة من الفلاحين وما شابه ذلك، والقسم الثالث يتألف من الإنكشارية يمحاهم البيضاء، وهم جنود السلطان، وخلفهم ضباط السلطان، وخلف هؤلاء السلطان (٣).

وقد أسند إلى رجال القسم الأول - أو المجموعة الأولى - مهمة وضع السلاالم على الأسوار لتسلفها - ورد المدافعون على هؤلاء المهاجمين بأن قاموا بقلب هذه السلاالم بمن كان عليها، ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلق السور مرة أخرى، ونجح بعضهم فى ارتقاها، وحدث قتال عنيف استمرات فيه جويستينائى وجنوده. وعندما رأى بعض

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٩.

(٢) عبد الله عتات: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٣) Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople, p. 62.

المهاجمين الذين يرفعون السلاالم كثرة الموتى، وحاولوا التفهقر، ردهم الترك إلى الأسوار مرة أخرى^(١).

وكان السلطان العثماني يرمى بهذا الهجوم إلى إرهاب الحصورين واستزاف طاقتهم، واستهلاك ذخيرتهم، قبل أن يوجه إليهم الضربة القاضية، فأمر جنوده بعد نحو ساعتين من القتال العنيف بالانسحاب، ودفع إلى الهجوم القسم الثاني من جنوده وهم جنود الأناضول. أما المدافعون فقد ظنوا لأول وهلة عند انسحاب المهاجمين أن الأتراك ارتدوا على أعقابهم، وعدلوا عن مواصلة القتال، ولكنهم فوجؤا بهجوم أشد وطأة وعنفًا قام به جنود الأناضول، وهم أشد مراساً في القتال^(٢). ويذكر المؤرخ باربارو^(٣) أن القسم الثاني من الجنود اندفعوا كالأسود على الأسوار الواقعة في بوابة القديس رومائوس، وعندما رأى أهالي القسطنطينية هذا الهجوم العنيف للمرعب، جرى كل رجل طلباً للنجاة.

وبينما كان القتال يجري عنيفاً عند السور البيري، كان هناك قتال آخر لا يقل عنفاً على جانب البحر. فقد أخذت السفن العثمانية التي يقودها أمير البحر حمزة باشا في بحر مرمره أمكنتها من السور، والتحم الجنود العثمانيون في صراع عنيف مع المدافعين الذي هبوا إلى قذف السلاالم إلى البحر وإطلاق النيران على الأتراك^(٤). وقد أثّر هذا الهجوم الشديد من ناحية البحر الفزع بين أهل القسطنطينية، وجارت أصواتهم بالدعاء والضراعة، ودقت أجراس الكنائس دقات شديدة متوالية. على أن هذا الخطر قد أثار في الأهالي من جهة أخرى روح المقاومة والكفاح، ولم تخلف للنساء عن الإشتراك في أعمال الدفاع، فأخذن يغلن الزيتون ثم يحملنها إلى الأسوار لتصب على المهاجمين والذين يتسلقون السور منهم خاصة، ولكن ذلك لم يضعف عزيمة الأتراك^(٥).

لما جنود الأناضول الذين كانوا يقومون بالهجوم، فقد أمرهم السلطان بالانسحاب، وكان المدافعون قد بلغوا من الإعياء أقصاه، ولم يكن للسلطان يرمى من هذه الهجمات المتواصلة إلا إرهاب المدافعين قبل الإجهاز عليهم. واعتبط جويتاني وجنوده بالانسحاب

(1) Ibid., p. 62.

(2) سالم الرشيدى: محمد الفاع، ص ٨٥.

(3) Barbaro, op. cit., p. 62.

(4) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ٨٤.

(5) المرجع السابق، ص ٨٥.

الأتراك، واعتقدوا أنهم سينالون قسماً من الراحة، ولكن السلطان لم يدهم ينعمون بالراحة^(١). إذ جاء بالقسم الثالث من جنوده وهم الإنكشارية، وقد قاد السلطان بنفسه هذا الهجوم. وفي ذلك يقول المؤرخ باربارو^(٢): «هجمت الإنكشارية على سور المدينة البائسة كالأسود صائحين، ووصلت أصواتهم بعيداً إلى الأناضول على بعد إثنى عشر ميلاً من معسكرهم، ولبت أصواتهم العالية شجاعتنا، وانتشر الإنكشارية في المدينة، وتعالّت أصوات السكان تطلب الرحمة من السماء، حتى لا يحكم الوثنيون (الأتراك) إمبراطورية قسطنطين، وركع كل الرجال والنساء، وصلوا للرب وأمه العذراء، لكي يمنحنا النصر ضد العنصر الوثني...».

وذكر المؤرخ باربارو^(٣)، أن البيزنطيين فعلوا المعجزات من أجل الدفاع عن المدينة، واستبلوا في القتال، ولكن الأتراك ركزوا هجومهم، وقدموا أروع صور البسالة والطولة. ورأى البيزنطيون أنه له تعدد فائدة، لأن الرب قرر أن المدينة لا بد أن تقع في أيدي الترك، وذلك هي مشيئته. وضاعف الترك قوتهم في الهجوم، وانتهالت القذائف من المدفع الكبير، وانطلق الترك كالوحوش الكاسرة، وفي مدى ربع ساعة كان هناك حوالي ثلاثين ألف تركي داخل الحصون، وقد أطلقوا صرخاتهم العالية التي بدت كالجحيم تماماً، ووصلت... إلى الأناضول، ومرعان ما أصبحت التحصينات على مسافة ستة أميال ملوثة بالترك.

وأدرك البيزنطيون أن المعركة في ساعتها الأخيرة، فانتابهم الرعب والفرع الشديدين، وأسر الإمبراطور بدق ناقوس الخطر في جميع أنحاء المدينة، وظهر نشاط مكثف في المدينة، ولكنه نشاط ذات صفة دينية. ففي كل مكان جماعات صغيرة من القس والأساقفة والرهبان والنساء والأطفال يصلون ويكونون، ويرفمون الأيقونات. وقفى الأهالي الوقت في الصلاة في كنيسة أياموفيا، وأقيم قداس في تلك الكنيسة، وجثا جميع الحاضرين على ركبهم: الإغريق والجنوية والبنادقة والأرثوذكس والكاثوليكية، والقس والجنود، والنبلاء والعامّة، الإمبراطور والشحاذون. وقد وحدث النكبة بينهم، وأصبحوا متساوين أمام المصير الذي تلقاه المدينة، والموت الذي يحوم حولهم^(٤).

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٨٥.

(2) Barbaro, Diary of the Scige of Constantinople., p. 63.

(3) Ibid., pp. 64-65.

(4) Guderan, Byzantium: Its triumphs and 'tragedy., p. 212.

وفي عنفوان الهجوم أصيب جويستيانى الجنوى بجرح عميت من سهم مشتمل بالنار
 اخترق صدره، وقرر أن يهجر مركزه ويهرب إلى سفينته، حيث قضى فيها نحيه بعد يومين،
 وبموته سرى اليأس إلى قلوب القوات الأجنبية، ودخل الأتراك المدينة من بوابة القديس
 رومانوس، حيث سويت الأسوار بالأرض من شدة قصف المدافع^(١). ويصف أحد أوائل
 شهود العيان الذين وصلوا إلى البندقية، وهو جاكوبو تيدالدى Jacopo Tedaldi شدة
 القصف، وكيف تاجراً من فلورنسة، وحارب خلال الحصار، وفر في اللحظة الأخيرة، حيث
 التقطته إحدى السفن السبعة التى أنقذت حوالى أربعمائة، ووصل إلى البندقية فى ٥
 يوليومنة ١٤٥٣، ومنها إلى فلورنسة. وقد روى أن السلطان حاصر المدينة بحوال مائى ألف
 مقاتل، وضرب أسوارها بمدافع ضخمة، وخاصة المدفع الحلاق الذى كان يطلق أكثر من
 مائة قذيفة فى اليوم، ونحت القذف المتواصل تهشمت الأسوار القديمة كالطين^(٢).

وإزداد هجوم الإنكشارية عنفاً، وصعد البعض منهم برجاً كان يعلوه راية القديس مارك
 Saint Mark وراية الإمبراطور، فأنزلوهما ووضعوا مكانهما راية السلطان العثمانى، وعندئذ
 أبقن الأهالى أن الأتراك قد استولوا على المدينة، وأنه لم يعد ثمة أمل فى استردادها^(٣).

فلما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف فى المدينة، واندفاع جموع الأتراك
 كالسيل فى أرجائها، نزل عن حصانه، وخلع ملابسه الإمبراطورية، وسل سيفه، وأخذ
 يخطب به ذات اليمين وذات الشمال، حتى أصابه أحد الجنود الأتراك بضربة سيف قاتلة،
 ومات ميتة الأبطال، ولم يقف شيء بعد ذلك فى وجه الأتراك لدخول المدينة، فقد تفتحت
 لهم جميع الأبواب والمنافذ، وتزاحم الناس كل يطلب النجاة لنفسه^(٤).

وبعد أن دخل الأتراك المدينة، ترك الجنود الاستحكامات ومراكزهم بحثاً عن الأمان،
 واندفع البنادقة إلى سفنهم، وأبحروا على وجه السرعة، وامتلات مطوح السفن بالفارين،

(1) Barbaro, op. cit., p. 65, Kritovoulus, op. cit., p. 70.

عزيز موريال عليه: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٣٩.

(2) Schwoebel (Robert), The Shadow of the Crescent, (New York. 1967), p. 4.

(3) Barbaro, op. cit., p. 66, Doukas, op. cit., pp. 222-223, Guerdan, op. cit., p. 215.

(4) Guerdan, op. cit., pp. 216-217.

ويعهم عدد من السفن الجنوية، بعضها كان يحمل أعضاء من الأرستقراطية البيزنطية من ال باليولوجوس وكثنا كوزين، الذين كان لديهم الوقت ليجموا عائلاتهم، وهربوا من العقاب الذى كان سينزل بهم، وكلوا محظوظين فى ذلك، فهرب البعض إلى خيوس، والبعض إلى كريت، والبعض إلى البندقية وغيرها. أما نهب المدينة وملكها الذى وعد به السلطان قواته المنتصرة، فقد استمر ثلاثة أيام ليلا ونهارا. فقد نهبت ودمرت المنازل الخاصة والكنائس والأديرة، وتعرض القصر الإمبراطورى للتلف، وحطمت الأيقونات والتحف، والمخطوطات النادرة الثمينة، وانتزعت أطر الأيقونات الثمينة من الذهب والفضة، وألقى بالأيقونات للنيران. وقتل الأتراك كل شىء حى وفد، فى طريقهم، وجرت الدماء فى الشوارع. وقد سمع الجنود الأتراك أن أغلى ما يستحق النهب يوجد فى كنيسة أباصوفيا، وكان الإنكشارية أول من توجه إلى هناك، وكانت الكنيسة مزدحمة بالخائفين والمذعورين الذين فرروا إلى هناك، وأغلقت الباب عليهم. ولكن الجنود سرعان ماشقوا طريقهم إلى داخل الكنيسة، وحطموا التحف الثمينة^(١). ومع هذا فإذا أخذنا وجهات النظر المتعارضة والأدلة القائمة، فإن معاملة الأتراك لسكان القسطنطينية كانت أرحم من معاملة الصليبيين. لهم أثناء احتلالها سنة ١٢٠٤م^(٢).

وما أن انتهت كل مقاومة فى المدينة، حتى ركب السلطان محمد - الذى أطلق عليه لقب الفاع - صهوة جواده الأبيض، وكان عمره آنذاك ثلاث وعشرين سنة، وتوجه إلى كنيسة آياصوفيا (سانت صوفيا)، وطاف بأرجائها، وقد بهرت ررعتها وأعمدتها الرخامية الرائعة، وصلى شكراً لله، وأمر بتحويل هذه الكنيسة إلى مسجد، وطلب إلى أحد العلماء أن يؤذن للصلاة، ثم صلى السلطان لله الذى اختصه بتحقيق نبوة الرسول ﷺ القائلة إن القسطنطينية متعير يوما مدينة إسلامية^(٣).

(1) Nicol, op. cit., 89-90, kritovoulos, op. cit., p. 72, Schwobel, op. cit., p. 7.

(2) Ostrogorsky, Hist. of Byzantine State, p. 571, Stavrianos, op. cit., p. 60, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 653.

عزيز صريال عطية: المرجع السابق، ص ٤٠، عبد القادر أحمد لايسف: الإمبراطورية البيزنطية (بيروت

١٩٦٦)، ص ١٨٤.

(3) Nicol, op. cit., p. 90 Hearsey, City of Constantine, p. 245.

ولما كانت مدينة القسطنطينية قد فتحت عنوة أو أخذت بالحرب، فإن الشريعة الإسلامية كانت تبيح نهب المدينة والامتلاء على أموال سكانها. ولكن محمد الفاتح سيطر على رجاله، وبذل كل ما في وسعه للاحتفاظ بالمدينة مليمة، حتى يجعل منها مركزاً لإمبراطوريته العالمية. وعندما لجأ كثير من السكان إلى مستعمرة جالاتا الجنوبية عبر القرن الذهبي، عقد زغنوس باشا إتفاقية بمقتضاها ضمت جالاتا إلى الإمبراطورية العثمانية، وهدمت أسوارها ودفاعاتها وتحصيناتها، في مقابل أن يسمح السلطان لسكانها بممتلكاتهم، وضمان حرية العبادة، وممارسة التجارة في جميع أرجاء الدولة العثمانية، على أن يدفعوا جزية سنوية^(١).

وفي اليوم الخامس من الفتح زار محمد الفاتح جالاتا، وأمر بإجراء تعداد للسكان، فوجد أن كثيراً من البيوت قد أغلقت لأن أصحابها اللاتين فروا في السفن. فأصدر أمراً أن يرجع السكان في غضون ثلاثة شهور، وإذا لم يرجعوا مبعادر بيوتهم. ثم أمر بإزالة أسوار جالاتا، وعين عبده سليمان حاكماً عليها. وحول الكنيسة الكبيرة إلى مسجد، ولكنه ترك بقية الكنائس على حالها، ورجع متصراً إلى أدرنة في ١٨ يونيو ١٤٥٣ ومعه عدد ضخم من الأسرى وكميات كبيرة من الغنائم^(٢).

وعندما انتهت القوضى التي أعقبت فتح القسطنطينية، كانت البطريركية شاغرة إذ ذاك، فالبطريرك المعين جريجورى الثالث كان متغيباً في إيطاليا، وكان لابد من وجود شخصية دينية تقود المجتمع المسيحي في الإمبراطورية العثمانية^(٣). فاختار محمد الثاني رجل دين بارز يدعى جناديوس Gennadius ليكون بطريركاً للكنيسة الأرثوذكسية، وأكد له «كل امتيازات أسلافه». وعفى محمد الثاني الكنية من الضرائب، وسمح لها باستقلال تام في إدارتها، والاحتفال بحرية الخدمات الدينية، حتى أنه قام بزيارات للبطريرك الجديد، وناقشه في اللاهوت، وطلب إليه أن يكتب كراسة عن المسيحية، مما يدل على تسامح وعقلية متيرة^(٤).

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 57, Kritovoulos, op. cit., p. 76.

(2) Doukas, op. cit., pp. 240-241.

(3) Nicol, op. cit., pp. 90-91.

(4) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 60.

وكان سقوط القسطنطينية حادثاً جليلاً اهتزت له أوروبا المسيحية من أقصاها إلى أقصاها. ففي خلال صيف عام ١٣٥٤ انتشرت أخبار سقوط القسطنطينية، فقد وصلت إلى جزيرة كريت في أوائل يونيو ثلاث سفن تحمل الفارين من المدينة المنكوبة. وروى راهب دير أجاثاثوس Agarathos الذي سجل الحدث أنه «لا شيء أسوأ مما حدث، ولن يحدث مثله»، وتضرع إلى أن يخلص جزيرته من براثن الأتراك^(١). وكتب المؤرخ ليونتيوس مخاريس Leontis Makharis قائلًا إن «كثيراً من الرجال الطيبين والرهبان أموا إلى جزيرة قبرس قادمين من القسطنطينية، وأن ملكة الجزيرة شارلوت دي لوزجان انتابها الحزن العميق، وأنفقت على حالة اللاجئين، وبنّت لهم ديراً، ومنحتهم قرى وأموالاً كثيرة». وفي نهاية يونيو كتب جين دي لاستيك Jean de Lastic مقدم منظمة الاستتارية في رودس إلى الأمير الألماني فرديريك الثاني صاحب براندنبرج الذي كان يؤدي فريضة الحج في بيت المقدس، يخبره بما حدث. فوصف دي لاستيك رعب الحصار العثماني، ولهب الدموى الذي أعقب سقوط المدينة، وحث فرديريك والحكام المسيحيين على أن يتوحدوا ويقاوموا السلطان الطاغية الذي أقسم بتحطيمهم^(٢).

وقد أوضح البنادقة شدة الرعب الذي استولى على جمهوريتهم في رسالة بعثوا بها إلى البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥)، وحذروا من عواقب النصر العثماني وخطره الداهم. وأقر البنادقة خطأ أن يبرا وقعت في ٢٨ مايو، وتم ذبح كل سكانها من مت مئتين فصافوق، وجعل الملطان من القسطنطينية عاصمة له، ومن الصعب إيقافه، إلا إذا قام الرب والبابا والدول المسيحية بمد يد المساعدة، وقد تنبأ السناتو في البندقية بخضوع الجمهورية للترك يوماً يترتب على ذلك من نتائج خطيرة للمسيحية. وتوكل البنادقة للبابا أن يستخدم كل نفوذه لمد يد المساعدة قبل أن يفوت الأوان. ولم يلبث السناتو أن أرسل جيوفاني مورو Giovanni Moro إلى بلاط نابولي، لتبليغ ألفونسو الخامس، وتذكيره «أن السلطان العثماني لا زال صغيراً، وأنه يكره المسيحية من كل قلبه». وأكد مورو حاجة أوروبا الملحة للاتحاد والوثام بين الحكام المسيحيين. وأخيراً وصل الرسول إلى روما في ٨ يوليو،

(1) Schwoebel, The Shadow of the Crescent, p. 1.

(2) Schwoebel, The Shadow of the Crescent, p. 1.

وأبلغ الشعب الروماني بالكارثة التي ألمت بالقسطنطينية، فانبهر الشعب يتحب في الشوارع^(١).

وكتب الكاردينال يساريون Bessarion إلى درج البندقية بعد سقوط القسطنطينية قائلاً: «المدينة التي كانت مزدهرة، رمز الفخامة والعظمة في الشرق، وموطن كل ما هو جيد. هذه المدينة قد سقطت وخربت ونهبت تماماً على أيدي أكثر البرابرة همجية وروحية. حدث لها هذا على أيدي القساة غلاظ القلوب، ذوى الطباع الحيوانية. وثمة أخطار تهدد إيطاليا - ولن أذكر مناطق أخرى - إذا لم نكبح جماح الهجوم المدمر لأكثر أنواع البرابرة الهمج ضرراً»^(٢).

كما قام الهاريون الذين فروا من أيدي السلطان العثماني بنشر خبر سقوط القسطنطينية في بلاد البلقان المجاورة. وسافر أسقف إغريقى يدعى صمويل وصحبه رجل دين أرفوذكسى خلال والاشيا وترانسلفانيا، وعندما وصلا هرمانشتاد Hermanstadt فى أغسطس، حذر الإغريق من هجوم يوشك أن يحدث فى المنطقة، كما وصلت أخبار الكارثة إلى ألمانيا وأوروبا الشرقية^(٣).

وأبلغت البندقية روما بقية أوروبا بأحداث القسطنطينية، فعلم فيليب الطيب صاحب بورجنديا، وكان من أشد الناس تحملاً لقتال الأتراك قبل سقوط القسطنطينية، من البابا نيقولا الخامس، ومن إمبراطور ألمانيا فريدريك الثالث، وعندما علم ملك البرتغال بالخطر الرشيك، وعد بمساندة البابا. كما وصلت أنباء الكارثة الأليمة إلى أبعد مكان فى العالم المسيحى، فعندما علم كرستيان الأول ملك الدانمارك والنرويج بالحادث، أعلن أن السلطان العثماني وحش خرج من البحر^(٤).

أما فى الشرق الإسلامى، فقد كان الفتح العظيم على عكس ذلك، إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين فى أرجاء آسيا وأفريقية لهذا الفتح الإسلامى. وما أن وصل رسل

(1) Ibid., p. 1.

(٢) بول كولنز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(3)Schwoebel, The Shodow of the Crescent., p. 3.

(4) Ibid., pp. 3-4.

السلطان محمد الفتح إلى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح، حتى هلك المسلمون وكبروا، وأذهبت البشائر من منابر المساجد، وأقيمت صلوات، الشكر، وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت، وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المختلفة الألوان، وأمضى الناس في هذه البلاد أياماً كآحسن ما تكون أيام الأعياد الإسلامية روعة وبهاء^(١).

ويصف المؤرخ المصري المعاصر أبا المحاسن شعور الناس في القاهرة، بعد أن وصل إليها رسول السلطان محمد الفتح ورقفته في ٢٣ شوال سنة ٨٥٧ هـ (٢٧ أكتوبر ١٤٥٣) نبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا وأسيران، قال: «قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم، وجاء القاصد المذكور ومعهم أسيران من عظماء استانبول، وطلع بهما إلى السلطان (السلطان، إينال) ومما من أهل القسطنطينية، وهى الكنيسة العظمى باستانبول، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً، ثم طلع القاصد المذكور، وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورقفته بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزيئة الحوانيت والأماكن، وأمعنوا في ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل...».

ويقول ابن إيسر في هذه الواقعة: «فلما بلغ ذلك، ووصل وقد الفتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودى في القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباى أمير آخرد ثانى رسولا إلى ابن عثمان يهته بهذا الفتح»^(٢).

والواقع أن الانتصار الذى حققه الممثمانيون ضد الإمبراطورية البيزنطية في ٢٩ مايو ١٤٥٣، يعتبر علامة بارزة على نهاية إمبراطورية وبداية أخرى. فقد توج محمد الفتح إنجازات أسلافه، وما أنجزه في إيجاز كما قال المؤرخ ويتك Wittek كان «عملا إمبراطوريا، تحدى به الفتح كل الغرب الأوروبى، وأثبت أنه صار سيذا على الأرض الممتدة من البحر الأسود حتى البحر المتوسط، وهو وحده الذى يقرر مصيرها»، وهذا يعنى أن التجارة التى

(١) سالم الرشيدى: محمد الفتح، ص ١٠٥.

(٢) ابن إيسر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٢، ص ٣١٦.

كانت تمر خلال الأراضي السابقة، والتي سيطر عليها الإيطاليون بصفة خاصة، أنه بحث حيث تحت تصرف السلطان العثماني^(١).

وكان فتح القسطنطينية من وجهة نظر العثمانيين ليس مجرد نصر عسكري عظيم، فلم تكن القسطنطينية مدينة عادية، بل عاصمة كبيرة ومركزاً لشبكة مواصلات تجارية واسعة وممتدة، وقاعدة إدارية، غير أنها تفشت في القرون الأخيرة. وما هي بعد أن رقت في أيدي العثمانيين، أضحت من الممكن بعثها من جديد لخدمة أهداف السادة لجدد (العثمانيين) ومصلحتهم. ولوقوع القسطنطينية موتاً وسطاً بين آسيا وأوروبا، أصبحت هي العاصمة الطبيعية للإمبراطورية العثمانية التي تعند ولاياتها في القارتين^(٢).

ومن النتائج الهامة لفتح القسطنطينية بالنسبة للغرب الأوربي أنه ترك أثراً بعيداً في سيرته الفكرية، فقد هاجرت جماعات عديدة من المفكرين والعلماء إلى الغرب وبخاصة إيطاليا، حاملين معارفهم وبقايا مكتباتهم^(٣). وكان ذلك من بواعث النهضة الحديثة في أوروبا.

وعلى أية حال، أصبحت مدينة القسطنطينية بعد فتحها على أيدي محمد الثاني عاصمة للإمبراطورية العثمانية، تعرف باسم إستانبول أو إسلامبول أو الآستانة، وإستانبول كلمة تركية معناها دار الإسلام. وكنت الخطوة التالية للسلطان هو إعادة المدينة إلى سابق عظمتها، فقبل الفتح بوقت طويل اختفى كثير من مكان المدينة، وانهار أزدهارها الاقتصادي، وتركت المدينة فقيرة بائسة وخالية من السكان إلى حد كبير، وبلغ عدد سكانها حوالي مئتين أو مئتين ألف. وقد حاول محمد الثاني بعد الفتح مباشرة أن يجنب النهب والسلب قدر الإمكان، ولكن كثيراً من الناس هربوا من شدة الخوف. ومن ثم كان أول عمل قام به محمد الثاني هو إعادة مكان إستانبول، وإغراء سكانها الفارين بالعودة إليها^(٤). وقد أراد بذلك أن يجعل من عاصمته الجديدة عالماً صغيراً يمكنه مناعة لف الشعوب والعناصر الدينية المتنوعة في الإمبراطورية^(٥).

(1) Schwobelbe, p. cit., p. 10.

(2) بول كورلي: العثمانيون في أوروبا، ص ٣٤.

(3) Lemerle, A Hist of Byzantium., p. 135.

(4) Shaw, Hist of Ottoman Empire, Vol.. I. p. 59.

(5) Ibid., p. 59., Runcintan, The Fall of Constantinople., p. 159.

وقد اتخذ محمد الثاني إجراءات لإعادة تكيين المدينة التي غادرها سكانها الإغريق إلى أدرنة وبروسة وبلوفديف Plovdiv وغالبولي، ودعا إغريق المورة وأزمير وطرابزون، ويهود سالونيك، وأرمن توتات وأساقية قيصرية، وأتراك الأناضول، للإقامة باستانبول، وقدم لهم شروطاً مغرية للغاية، منها المنازل المجانية، والإعفاء المؤقت من الضرائب، ومدّهم بأدوات العمل اللازمة^(١). وعندما رأى السلطان أن سياسة التهجير التطوعي لم تأت بالفرض المنشود، ابتكر حلاً جذرياً، وهو تهجير رعاياه ممن يحتّمون بالمهارة في الحرف والتجارة إلى استانبول بالقوة الجبرية، فأتى بالمهاجرين من الأناضول، والبلقان، ومنحهم الأراضي وتنازلات في الضرائب، على أمل استعادة الحياة الاقتصادية للمدينة. وقد تم تنفيذ هذا الإجراء فيما بعد في القرن السادس عشر الميلادي على أيدي السلطان سليم الأول، بمد استيلائه على تبريز ودمشق والقاهرة، كما اتخذ السلطان سليمان القانوني بعد غزواته في البلقان ووسط أوروبا^(٢).

لم يكن كافياً إعادة تكيين استانبول أو جعلها عاصمة الإمبراطورية حتى تصير مزدهرة، إذ كان ينبغي أيضاً جعلها مركز تجارة البحر الأبيض المتوسط، وملقى تجارة العالم الإسلامي مع العالم المسيحي. ومن الواضح أن العثمانيين كانت خبرتهم قليلة في مجال التجارة، ولذلك فقد احتاجوا إلى خبرة التجار الأجانب، ونظراً لأن أهالي القسطنطينية قد غادروها أثناء الفتح العثماني بها، فقد عملت الإمبراطورية العثمانية على إحضار غيرهم ليحلوا محلهم في العاصمة: الإغريق، وخبراء أرمن في التجارة الدولية، واليهود وخاصة يهود سالونيك. وعندما تعرض اليهود والمسلمون في أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، اجتذبت العاصمة العثمانية عدداً كبيراً من اليهود لتميز الحرف والتجارة والشؤون المالية^(٣).

(1) Mantran (Robert), "Foreign Merchants and the Minorities in Istanbul during the Sixteenth and Seventeenth Centuries". in Christians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard Lewis, Vol. I (New York, 1982), p. 128.

(2) Ibid., p. 128.

(3) Ibid., p.128.

وبما يجدر ذكره أن السلطان محمد الفاتح وجه نداءات لختلاف أنحاء العالم الإسلامي، --
رحب فيها بالهجرة إلى عاصمة الإسلام الجديدة للعيش فيها، والعمل على النهوض بها.
كما أطلق السلطان سراح أسرى الحرب ومنحهم حريتهم، شريطة العمل في بناء الطرق
وتمهيدها. أما الفلاحون الذين يتحمن إلى مناطق البلقان، فقد أقاموا في المدينة وحولها،
وغرماً فيها البساتين وأشجار الفاكهة. ونتيجة لذلك، ففى خلال وقت قصير أصبحت
إستانبول مزدهرة بالسكان، ومليئة بالحياة والنشاط^(١).

وبعد فتح القسطنطينية إعترف العالم الإسلامى بالسلطان العثمانى محمد الفاتح زعيماً
للحرب المقدسة ضد المسيحيين، ووجد السلطان نفسه متفوقاً على كل الحكام المسلمين،
بما فيهم جيرانه سلاطين الممالك، وطالب بأن يحل محلهم فى الإشراف على الحجاز.
وشجع على كتابة التراث التركى الذى يظهر أن أسرته تنحدر مباشرة من أوجوزخان Oguz
Han، لمواجهة أطماع منافسه الرئيسى أوزون حسن حاكم تركمان «الشاة البيضاء» فى
إيران، الذين بدأوا يتحدونه فى حكم الأناضول الشرقية^(٢).

وبفتح القسطنطينية اعتبر السلطان الشاب فاتح روما الجديدة، واعتبر نفسه الوارث
للوحد والفعلى لواحدة من إمبراطوريات العالم آنذاك، وهى الإمبراطورية الرومانية الشرقية
(الإمبراطورية البيزنطية)^(٣). وأحاط به البحالة البيزنطيون والإيطاليون، وشجعوا على اعتناق
الأفكار المبالغ فيها التى تتمم بالعظمة الرامية إلى سيطرته على العالم^(٤).

وقد اتخذ من عند الفاتح من الشريعة الإسلامية قاعدة لحكمه، فقد ترك -- كما ذكرنا
-- أهالى البلا: المنتوحة من المسيحيين على عقيدتهم وتقاليدهم، ومارسون حياتهم
الخاصة، وتمتعون بأموالهم تحت حماية الدولة، بشرط أن يدفعوا الجزية، فضلاً عن
الضرائب النظامية المفروضة على الإنتاج والدخل سواء المسلمين أو المسيحيين.

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 59.

(2) Ibid., p. 60.

(٣) خليل إينالبك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٦٢.

(4) Shaw, op. cit., p. 60.

لقد قدر للمدينة التي شيدها الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) أن تطوى آخر صفحاتها في عهد سميه قسطنطين الحادي عشر باليولوجرس^(١). ومن المفارقات حقا أن المدينة التي جعلها قسطنطين الكبير رمزا للإمبراطورية المسيحية، أصبحت متاراً إسلامياً، منطلقاً لتوجيه الدعوة الإسلامية على يد العثمانيين إلى جهات أوروبا الشرقية^(٢).

ونصل إلى القول إن فتح القسطنطينية كان بداية لسلسلة من الانتصارات العثمانية الرائعة في البر والبحر، فلم تأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع الأتراك أن يسطوا نفوذهم على مناطق شاسعة في أوروبا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوب بولونيا وأجزاء من شرقي النمسا. وحلف العثمانيون على مدينة فيينا وحاصروها لأول مرة في سنة ١٥٢٩، ثم حاصروها للمرة الثانية في سنة ١٦٨٣ م. وبالرغم من قتل العثمانيين في هذين الحصارين الشهيرين، فإن مجرد وصول الفتوحات العثمانية إلى قلب أوروبا المسيحية على هذا النحو، أثار الرعب والفرع في دول أوروبا، وكان في أحيان كثيرة عاملا في جمع كلمة الدول الأوروبية، واتخاذها على مقاومة الخطر المشترك، وكان ملوك أوروبا وحكامها يشجعهم على مقاومة هذا الخطر نزعة صليبية لاشك فيها، ولو أنها لم تكن يومئذ من وحي البابوية أو صنعها^(٣).

فتح صربيا والبوسنة وهرزوجيفينا (الهرسك):

ظن بعض الأوروبيين في الغرب أن سقوط القسطنطينية في أيدي السلطان محمد الثاني سيضع حداً لآماله، وقتنعه بالاكشفاء بما وصل إليه من جهد توجه بامتلاك عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وبعبارة أخرى فإن السلطان الصغير سيحول انتباهه عن أية فتوحات أخرى في أوروبا. ولكن هذا الظن كان مجرد وهم، فقد اعتبر محمد الثاني أن استيلائه على القسطنطينية ليس نهاية أعماله الحربية، بل بدايتها ومستقبل تاريخه^(٤).

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 571.

(2) عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٨٤.

(3) عبد الله هنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(4) Stavrianos, op. cit., p. 60.

ومما يجدر ذكره أن العثمانيين فرضوا سيادتهم على كثير من أجزاء البلقان، ولكنها كانت سيادة مزعومة تقوى حيناً وتضعف حيناً. ولكن بعد أن وضع محمد الفاتح يده على القسطنطينية مفتاح أوروبا الشرقية توطلدت سيادة العثمانيين، وبدأت حقاً إمبراطوريتهم فى أوروبا، وكان أول هدف قصده الفاتح هى صربيا^(١).

ففى سنة ١٤٥٤ قام محمد الفاتح ببعض الجهود لغزو ساحل البحر الأسود لمولدافيا. ولكنه لم يلبث أن وجد أن مصلحته الأولى آنذاك تتركز فى غرب البلقان، فهناك صربيا الضعيفة التى كانت تمارس الحكم الذاتى قاعدة ينطلق منها المجرىون - أو أى حملة صليبية - للزحف ضد السلطان. وكذلك كان الوضع فى إمارات المورة البيزنطية، حيث من الممكن أن تستولى عليها البندقية، وتستخدمها قاعدة تمكنها من إزاحة العثمانيين من أوروبا^(٢). ولإزاء تلك الأخطار التى تهدد محمد الفاتح، قام بسلسلة من الحملات بين سنتى ١٤٥٤ و ١٥٦٣ ليمد حكمه المباشر إلى نهر الدانوب من جهة، والبحر الإيجى من جهة أخرى، وبذلك يقيم خطاً دفاعياً حرياً قوياً^(٣).

وكان ملك صربيا إذ ذاك جورج برانكوفتش يقوم بدفع الجزية للعثمانيين وتابعا لهم، ولكنه فى الحقيقة لم يكن مخلصاً فى تلك التبعية. ومما يدل على ذلك أنه لما جاءه رسول يوحنا هونيادى يعرض عليه الاشتراك فى الحلف الذى، متعقده بعض الدول الأوروبية ضد محمد الثانى الذى عظم خطره على أوروبا يعد امتيلائه على القسطنطينية، يادر إلى الموافقة عليه وتأييده. ولتفادى خطر هذا الحلف يادر محمد الثانى إلى غزو صربيا، قبل أن تتخذها القوات المتحالفة قاعدة للهجوم. فلما علم جورج برانكوفتش بزحف السلطان أمر الأهالى أن يلجأوا إلى الأماكن الحصينة، وفرهوا إلى المجر بعد أن وعدهم أنه سيأتيهم بالمدد من هناك^(٤). وقد أحرق الأتراك الأراضى فى تلك الحملة، ونهبوا، وذبحوا الأهالى بقموة ووحشية، حتى ظهر كأن شيئاً لا يمكن أن يشبع عطشهم إلا دماء الميحين، وقتلوا كل الذكور فوق أربعين سنة، وساقوا النساء والشباب إلى الأسر^(٥).

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٣.

(2) Shaw, op. cit., p. 63.

(3) Shaw, p. 63.

(٤) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(5) Schwoebel, The Shadow of Crescent., p. 36.

وقبل أن يعود محمد الفاتح من حملته الصربية، عقد مهادنة سلام مع البنادقية في ١٨ أبريل ١٤٥٤م، منحت بموجبها امتيازات تجارية في القسطنطينية، منها احتكار تجارة الشب في فوسيه، واستغلال مناجم النحاس وصناعة الصابون ومصانع ملك العملة وجباية رسوم الجمارك^(١). وفي تلك الأثناء كرس السلطان كثيراً من جهده لإعادة تنظيم دولته، وعين عدداً جديداً في المناصب الإدارية، ومنح الإغريق وثيقة توضح حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم رعايا له. كما أصدر وثيقة مشابهة للسلطان اليهود المقيمين في المدينة، وعين موسى كابسالي Moche Kapsali رانيا أعظم، وعهد إليه بمهمة مسئولية سلوك شعبه^(٢).

وفي ربيع عام ١٤٥٥ جمع محمد الفاتح جيشه في السهول الواقعة أمام أدرنة، ثم قادها إلى ولاية كراتوفو Kratovo، وهناك لحقت به قوة بقيادة عيسى بك بن إسحق بك، حاكم الجزء الشمالي الغربي من الولاية، وزحف الجيش المتحد بقيادة السلطان وضربتها بعنف، وحاصرت نوفو برودو Novo Brdo، وهي أحد أعظم المدن التجارية الهامة في البلقان، لوفرة مناجم الذهب والفضة بها، وبعد أربعين يوماً من الحصار سقطت المدينة في أيدي السلطان الفاتح في أول يونيو سنة ١٤٥٥، وجعل عليها والياً وقاضياً وقائداً للقلمة، ومن المعروف أن مناجم تلك المدينة قد ساهمت في ازدهار النشاط الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية. وقضى القائدان العثماني قراجة بك وعيسى بك بتمية صيف هذا العام في إخضاع كل الجزء الجنوبي الغربي من صربيا، وبذلك أمن العثمانيون الاتصال المباشر مع مقدونيا من الشمال، ثم توقف السلطان في سالونيك، ومنها عاد إلى القسطنطينية في أكتوبر^(٣)، من نفس العام، ولم يبق أمامه من قلاع في صربيا غير بلغراد التي تعتبر «باب المجر».

وفي غضون ذلك نجحت جهود البابا نيقولا الخامس في شمالي جبال الألب في ألمانيا. ففي خلال سنتي ١٤٥٤ و ١٤٥٥ استدعى فريدريك الثالث إمبراطور ألمانيا أمراءه للاجتماع به، وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يحضر شخصياً أولى تلك الاجتماعات

(١) شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٧.

(2) Schwoebel, op. cit., p. 36.

(3) Shaw, op. cit., p. 36, Schwoebel, op. cit., p. 36.

التي انعقدت في راتسبون في أبريل عام ١٤٥٤، وقد حضره فيليب الطيب، فقد استحوذ هذا الاجتماع على الأهمية في أوروبا. وفي هذا الاجتماع أظهر دوق بورجنديا مدى الأزمة التي أمسكت بخناق المسيحية، وأعلن أنه لا بد من المحافظة على العقيدة المسيحية وحرية المسيحيين وحياتهم، وأعلن رغبته في وضع نفسه وموارده للعمل المقدس، ولو أن أي أمير آخر لديه قوة مناسبة فسوف ينضم إليه^(١).

وبينما كان محمد الفاتح يقود قواته لحصار نوفو يردو، مات البابا نيقولا الخامس زعيم المعارضة ضد الأتراك في ٢٤ مارس عام ١٤٥٥ بعد مرض طويل ومعاناة شديدة، واختار مجلس الكرادلة في ٨ أبريل الفونسو بورجيا الذي توج بابا بإسم كالكس الثالث (١٤٥٥ - ١٤٥٨) Calixtus II في ٢٠ أبريل. ومنذ اللحظة الأولى لاعتلائه كرسي البابوية، أعلن أنه سيبذل قصارى جهده لإعلان الحرب ضد الأعداء (الأتراك)، ووعد بتخليص المسيحيين من عبوديتهم، وأكد على ضرورة إرسال حملة صليبية ضد الأتراك. وبدأ كالكس مشروعه الصليبية ضد الأتراك بانتهاز فرصة وصول سفراء الدول الأوروبية لتهته بمنصب البابوية لفتح باب المفاوضات، والتعرف على القوى والخطط والتوقعات. وعندما ظهر مبعوثو فلورنسا برئاسة رئيس الأساقفة أنطونينوس في البلاط البابوي في ٢٤ مايو، تحدث كالكس عن رغبته في القيام بعمل حزين ضد الأتراك، وعبر عن أمله أن تكون فرنسا أول من يأتي لتقديم المساعدة للديانة المقدسة^(٢). وبعد ذلك بيومين وافق أنطونينوس في مجلس كنسي واسع باستحان مدو على برنامج البابا. وبعد مضي طويل لفضائل البابا وصلاحيته لمصعب البابوية، توسع أنطونينوس في مشكلة العثمانيين، وأنهى على البابا الجديد لرغبته في القيام بعمل مقدس، وإتهم الأتراك كوحوش قاسية، يسيون الرب، ووصفهم بأعداء المسيح، كما وصف محمد الثاني بأنه ابن الشيطان، والعدو اللدود للجنس البشري، وأساس الشر في العالم^(٣).

وعلى أية حال أخذ الراهب الفرنسكاني يوحنا كابستراتو John Capistrano يجوب أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبولندا والمجر يلهب الحماس في صدور الناس بخطبه البليغة،

(1) Schwoebel, op. cit., p. 32.

(2) Schwoebel, op. cit., pp. 36-37.

(3) Schwoebel, op. cit., p. 37.

ويدعوهم إلى شن حرب صليبية على الأتراك. واختار البابا كالكتس الثالث المجرى يوحنا هونيادى ليتولى قيادة الحملة الصليبية، يعاونه الراهب كابسترانو وكثير من رجال الدين، وتكون حلف صليبي ضد الأتراك اشترك فيه ملك المجر وملك أرجونة وعدة من أمراء إيطاليا ودوق بورجنديا والبنادقة والجنويون وفرسان الاستار فى رودس وألمانيا وبرهيميا وبولندا وصربيا^(١).

وفى يوم ٧ أبريل سنة ١٤٥٦ وصلت الأخبار إلى بودا أن محمد الفاتح سار على رأس جيش ضخيم بلغ تعداده ١٠٠ ألف مقاتل، ناحية الحدود الجنوبية للمجر. فمضى أن استولى على القسطنطينية رأى أن المجر تمثل تهديداً خطيراً لإمبراطوريته فى أوروبا، حتى أن الحملات التى قام بها ضد صربيا فى سنتى ١٤٥٤ و ١٤٥٥ كان الغرض منها تمهيد الطريق للقيام بحملة رئيسية ضد المجر. وفى شتاء سنة ١٤٥٥ رأى السلطان أن الوقت قد حان للقيام بعمل حاسم، فاختار بلفراد التى تعتبر بوابة المجر من الجنوب هدفاً رئيسياً له. ووضع السلطان فى حسانه أنه بمجرد أن تقع بلفراد فى يديه، فلن يأخذ الأمر منه إلا شهرين لفتح بقية المجر^(٢). وفى خلال شهور شتاء (١٤٥٥ - ١٤٥٦) ركز السلطان كل جهوده لإعداد الحملة، فجمع قوات من جميع أنحاء الإمبراطورية. ووضع أسطولاً ضخماً فى وِدين Vidin على نهر الدانوب. وفى كروشيفاز Krushevac، كان لديه مسبك، صنع له مدفعا ضخماً. وقد كتب المندوب الكاردينالى إلى فرانكو سفورزا، معلناً أن الخطر لم يعد قاصراً على المجر وحدها، فلو سقطت المجر، فالإمبراطورية الألمانية والعقيدة المسيحية الصحيحة، وميلان، سيحيط بهم خطر ماحق. وأوضح أن السلام مع عدو كالأتراك أمراً مستحيلاً، فالأتراك لا يشغلهم فقط إخضاع المجر، ولكن تدمير ديانتهم أيضاً. وتدرد الأمراء الصليبيون بكلمات ووعدوا، واعتقدوا أن الحرب لن يسمح للأتراك بالانتصار والنجاح، وأن المساعدة البشرية غير ضرورية^(٣).

وقد بدأ الهجوم التركى الأخير على بلفراد فى مساء يوم ٢١ يوليو سنة ١٤٥٦م، وقلم المدافعون بشجاعة، وصدروا عدة هجمات. وتكبدت الوحدات المتقدمة التركية خسائر

(1) Lodge, The Close of the Middle Ages, p.412,

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٥.

(2)Schwoebel, op. cit., p. 43.

(3) Ibid., p. 44.

فادحة أثناء مرورها على الخنادق ومهاجمة الأسوار. وقد قام بعض الأتراك باختراق الدفاعات والتحصينات الميحية من خلال ثغرات أحدثتها قذائف المدافع، ولكن الصليبيين قابلوهم بشجاعة فى شوارع بلغراد الضيقة، ودخلوا معهم فى قتال وجها لوجه. وكان كاميرانو خلال المعركة واقفاً يلوح بعلم الصليبيين، ويحرض المقاتلين، ويهتف باسم المسيح. وواصل الصليبيون القتال على الأسوار وفى الشوارع، الأمر الذى أدى إلى مصرع كثير من الأتراك. ولم يعد القادة الأتراك قادرين على إعادة النظام بين الجند وتوحيد صفوفهم، وأدت الفوضى إلى هروب الجند الأتراك إلى خطوط دفاعهم لحماية أنفسهم^(١).

وفى ضوء النهار ظهرت آلاف من جثث الأتراك، وعندئذ قرر محمد الفاتح أن يفك الحصار عن بلغراد ويتراجع عنها، خاصة أن يوحنا هونيادى قد جاء بسفنه من بودا، وكانت تعادل السفن التركية فى الكثرة، ولكنها كانت أشد صلابة وإحكاماً فى الصنع. وقد انتفضت على السفن التركية، فمزقتها كل ممزق. ولما رأى الفاتح ما أصاب أسطوله من دمار، أعطى أوامره بحرق بقية سفنه لكيلا تقع غنيمة فى أيدي عدوه. وهرب الأتراك من مواقعهم وتركوا وراءهم مدافعهم وانسحبوا من القتال، وتم إنقاذ بلغراد، حيث ظلت فى أيدي المجرىين لنصف قرن آخر، إلى أن سقطت فى النهاية فى سنة ١٥٢١ على أيدي السلطان العظيم^(٢) سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦).

وسرعان ما أن وصلت أنباء النصر إلى روما فى ٦ أغسطس سنة ١٤٥٦، حيث اقتنع الباب كالكستس الثالث أن الرب قد استجاب لصلوات المخلصين، وأعلن أن ذلك أسعد لحظة فى حياته، وأمر بإقامة الاحتفالات، وأن تدق جميع أجراس روما، وإقامة صلاة الشكر فى كل الكنائس. كما وصلت أخبار النصر على العثمانيين إلى جميع أنحاء أوروبا، فعم الفرح والسرور، وتردد أن الصليبيين فى بلغراد لم يتخذوا المجر فقط، بل المسيحية. وشاركت أماكن أخرى فى الاحتفالات مثل سينا وفيترابو وبولونا والبندقية^(٣). وقد كتب الراهب

(1) Ibid., p. 47.

(2) Ibid., p. 47, Shaw op. cit., p. 63, Lodge, op. cit., p. 412, Schevill, The list of the Balkan Peninsla. p. 201, Osterhanver, (M. Eugene), Transylvania. (U.S.A., 1968) pp. 16-17.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٦.

(3) Schwoebel, 'The Shadow of Crescent., p. 48.

كابستراتو للبابا أن الوقت قد نان، «وأن يوم تخلص المسيحية قد ظهر فجره»، وحاتت اللحظة التي يتميدون فيها أوروبا، وليس هذا فحب، بل أيضا غزو الأراضي المقدسة وبيت المقدس. وتوصل كابستراتو للبابا أن يرسل له عشرة آلاف أو إثني عشر ألف فارس إيطاليين مسلحين ليقوا معه على الأقل ستة أشهر، حيث يمكنهم هم والصليبيون والنبلاء المجريون الاستيلاء على ثروات العدو لدفع نفقات الحملة الصليبية لمدة ثلاث سنوات. وفي نفس هذا المعنى كتب هونيادي إلى أوروبا موضحا أن السلطان قد اندحر تماما، وأنه لو نهض المسيحيون، فبإمكانهم الإطاحة بالمملكة التركية كلها^(١).

واظب البابا كالكتس الثالث على مواصلة جهوده ضد العثمانيين، وقد دفعه إلى ذلك انتصار بلغراد من ناحية، واعتقاده أن التيار قد تحول ضد الأتراك من ناحية أخرى. فازداد حماسا، ودعا الأمراء المسيحيين لمقاومة التوسع الإسلامي، واستمر نوابه ودعائه في الإنضمام للصليبيين الذين تجمعوا في بلغراد في جموع ضخمة في خلال الأشهر الأخيرة لعام ١٤٥٦م. وفي تلك الأثناء تفاوض البابا مع جيران الأتراك المسيحيين والمسلمين الذين باتوا يخشون قوة السلطان الصاعدة. كما ساند البابا مباشرة اسكندر بك قائد الألبانيين الشجاع الذي قاوم الاعتداء التركي بنجاح في سنتي ١٤٥٦ و١٤٥٧م. ولكن تفاؤل البابا لم يستمر طويلا، ففي أقل من شهر بعد انتصار بلغراد، مات قائد المقاومة المجرية يوحنا هونيادي في ١١ أغسطس سنة ١٤٥٦م، ضحية رداء مربع قضى على حياة كثير من المسيحيين الذين ساهموا في إنقاذ المدينة^(٢). ويرى البعض أن هونيادي لم يعيش طويلا بعد انتصار بلغراد، بسبب ما أصابه من جهد وإعياء، فضلا عن كبر سنه، كل ذلك لم يساعده على تحمل الجرح الذي أصابه، ثم انتابته حمى عنيفة قضت عليه. وقد يكى البابا عندما بلغه نفيه، وأقيمت له صلاة خاصة في كنيسة القديس بطرس بروما. وكتب إنجيلس سلفيوس، الذي صار بابا فيما بعد باسم بيوس الثاني، موضحا فداحة الخسارة التي تربت على موت هونيادي، فكتب يقول: «لقد ماتت آمالنا بموته»^(٣). وبعد فترة طويل من المعاناة

(1) Ibid., p. 49.

(2) Ibid., p. 49.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٨.

مات حنا كابسترانو في ٢٣ أكتوبر سنة ١٤٥٦، فقد العليون رجلا كان مصدر نقتهم الكاملة وطاعتهم التامة. لقد فعل البابا كالكسز أقصى ما بوسعهم، ولكن أيامه السعيدة المرفقة قد ذهبت، ففي ٦ أغسطس ١٤٥٨ مات البابا دون أن يحقق غرضه وهو القضاء على الأتراك^(١)، وخلفه في كرسى البابوية بيوس الثاني (١٤٥٨ - ١٤٦٤)^(٢).

وبعد أن عاد السلطان محمد الفاتح إلى استانبول، مات جورج برانكوفتش ملك الصرب في ٢٤ ديسمبر عام ١٤٥٦م، تاركا بلاده في حالة سيئة من الفوضى الداخلية ساهمت في انهيارها^(٣). وترك برانكوفتش خلفه زوجته إيرين وابنته مارا أرملة السلطان مراد الثاني وأبناء الثلاثة، وكان لازار أصغر الأبناء الثلاثة، ولكنه كان أكثرهم طموحاً وأشدهم جرأة وطعماً في الحكم والتفرد به، فوضع السم لوالدته وطرده أخويه، وخشيت مارا على نفسها من بطشه، فقررت إلى السلطان محمد الفاتح ولاذت به، وقد أكرمها ورحب بها^(٤).

غير أن لازار مات بعد شهرين في ٢٠ يناير سنة ١٤٥٨، وقد أوصى قبل مماته بتزويج ابنته من ولي عهد البوسنة ستيفن توماشيفيتش Stephen Tomashevich، وانصوبت زوجته هيلين هذه الفكرة، كما رأى ملك المجرم ماتياس كورفان في هذه المصاهرة بين يتى صربيا والبوسنة ما يقوى جبهة المسيحية ضد الأتراك. ولم تكف هيلين بذلك، بل رغبت

(1)Schwoebel, op. cit., p. 49.

(٢) كان البابا الجديد بيوس الثاني شخصية هامة، وصل إلى مكانة عالية في الدراسات الإنسانية، وهو صاحب تجربة واسعة في السياسة والدبلوماسية. فقد انغمس إينيل سلبوس الذي عرف فيما بعد بإسم البابا بيوس الثاني لمدة ثلاثين سنة في شؤون أوروبا السياسية، وحضر المجمع الكاثوليكية الهامة. وقد امتلك عقلاً موسوعياً مفكراً لا يعرف الراحة. ومن بين الموضوعات العديدة التي جذبت انتباهه مبكراً، وظلت موضع اهتمامه خلال حياته الوظيفية، هي المشكلة = التركية، فقبل أن يحتل كرسى البابوية، وقبل سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين، ناقش مع الحكام المسيحيين حول الوقوف ضد الأتراك واستغل كل مهارته في الدراسات الإنسانية والسياسة والإدارة الدينية، في الضغط على الأمراء والشعوب. وقد سار بيوس الثاني على مساهمة سلفه كالكسز الثالث العدائية للأتراك، وكتب عن نفسه: «الشيء أعز عندي من حق المسيحيين على عداوة الأتراك، وإعلان الحرب ضدهم».

Schwoebel, The Shadow of the Crescent., p. 57.

أنظر:

(3)Shaw, op. cit., p. 83.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٩.

فى تأمين بلادها ضد الأتراك الذين يتطلمون إلى الاستيلاء عليها، فوضعتها تحت حماية البابا كالكس الثالث، فوافق وأرسل مندوبه الخاص إلى صربيا. وما يجد ذكره أن أهل صربيا لم يكونوا أقل عداء للكاتوليكية من أهل القسطنطينية، فلما وضمت هيلين بلادها تحت حماية البابا نار الصرب عليها، وفضلوا حكم الأتراك على حكم البابا^(١).

ولم يستمر الوضع على ذلك، ففي صيف سنة ١٤٥٩م، تحرك العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح إلى بلاد الصرب، وقام بطرد المجرين، واستولى على كل بلاد الصرب، فيما عدا بلغراد، وبذلك قضى العثمانيون على استقلالها، وصارت منذ ذلك الحين ولاية عثمانية. وقام العثمانيون أيضا بدمج نظام الإقطاع السابق والتشريع والنظم المالية - بعد تغيير قليل - فى التنظيم الإدارى العثمانى^(٢). وكتب السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر المملوكى الأشرف إينال يبشره بفتح صربيا، وأهدى إليه بعض الأسرى وأصنافا مختلفة من الأقمشة^(٣).

أما البوسنة فقد ظلت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى قرينة للمتنافسين الطامعين فى العرش، والصراع بينهم وبين النبالة القوية. فقد حدث أن استعاد الملك البوسنى ستيفن توماس (١٤٤٣ - ١٤٦١) عرشه بمساعدة المجر. وفى سنة ١٤٥٧ طلب السلطان من توماس أن يلمحه أربع مدن على نهر الدانوب، وذلك لتعطيه سهولة الوصول إلى الإقليم الواقع فيما بعد نهر الساف. وعندما أحس توماس بخطر العثمانيين طلب مساعدة البابا كالكس الثالث، فقام البابا بتنظيم حملة صليبية من قوات مجرية وبوسنية ضد الأتراك. ولكن لسوء حظ البابوية، فإن موت ملك المجر لاديسلاف وضع نهاية لهذه الحملة^(٤).

وكانت البابوية فى روما قد بدأت تهتم اهتماما بالغا بالبوسنة فى أثناء السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، خاصة أن الرهبان الفرنسكان قد تمتعوا بفترة من النشاط الفعال هناك فى ظل رثلة جاكوب دى مارتشيا Jacob de Marchia، أسقف البوسنة النشط، فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر. ولكن البابوية ظلت أيضا شديدة الانشغال بمساعدة

(١) سالم الرشيدى، المرجع السابق، ص ١٢٩.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol I. p. 63.

(٣) ابن الأثير، بلقيع الزهور، ج ٢، ص ٣١٦.

(4) Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans, pp. 179-180.

الهرطقة البوسنية، وانهزم منها ميل من الوثائق في أربعينيات هذا القرن، تتهم فيها الكنيسة البوسنية بارتكاب أخطاء مذهبية قاتلة من بينها الماترية. وبذل الرهبان الفرنسيكان جهوداً دائبة في خمسينيات القرن الخامس عشر لمكافحة الهرطقة. وما يدل على ذلك التقرير الذى كتبه قاصد رمرلى فى البوسنة فى عام ١٤٥١م، يذكر أنه بمجرد أن وصل الإخوة الرهبان إلى الأماكن التى يسكنها الهرطقة، «ذابوا كالشمع إذا اقترب من النار»^(١). واعتق الملك البوسنى ستيفن توماس الكاثوليكية، ثم وافق فى سنة ١٤٥٩، على أن يتحول إلى سياسة الاضطهاد المباشر، فامتدعى رجال الدين فى الكنيسة البوسنية المنشقة وخبرهم بين التحول إلى الكاثوليكية أو النفى من البوسنة، فقبل التحول ألفان منهم، ولم يبق إلا أربعون لاذوا بالفرار، وبذلك قصم طهر الكنيسة البوسنية على يد ملك البوسنة نفسه، وقد حدث ذلك قبل أربع سنوات فقط من تدمير المملكة البوسنية نفسها^(٢).

ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار الهرطقة فى البوسنة، أن النفوذ المجرى فيها عاد - إلى حد كبير - إلى النبلاء أصحاب الملكيات الكبيرة، وكذلك المزارعين الذين اعتنق منهم هرطقة البوجوميلية رداً على الضغط الكاثوليكي^(٣). وقد رأينا من قبل أن ستيفن توماشيفيتش - إبن ستيفن توماس ملك البوسنة - قد تزوج من حفيدة الملك الصربى جورج برانكوفتش، وبذلك ضمن بقايا الإقليم الصربى الذى يتركز حول مدينة سمندريا - Se mendria (سميدرفو الحالية)، ولكن مكان تلك المدينة فضلوا أن يعطوا مفاتيح القلعة للسلطان محمد الثانى، بدلا من أن يمحروا المجرى كاثوليكي أن يفرض سيادته عليهم.

وما يذكر أن ملك البوسنة ستيفن توماس لقي مصرعه على أيدي إبنه ستيفن تومافيتش وأخوه راديفوى Rdivoy فى سنة ١٤٦١. وقد صعد توماشيفتش إلى العرش فوق جثة والده، وكان فى موقف لا يحسد عليه، ذلك أن الشعب كان منقسما من الناحية الدينية، والبلد مهدد كل لحظة من الفاجئ العثماني الكبير. ولذلك أبلغ توماشيفتش البابا بيومر، الثانى أن السلطان العثماني يخطط لغزو البوسنة فى المستقبل. القريب. وفى أوائل سنة ١٤٦٣م طلب المساعدة من المجر والبندقية، إذ أنه بدونهما لن يتمكن من إنقاذ نفسه.

(١) مالكولم: البوسنة، ص ٥٤.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(3) Spinka, op. cit., p. 180.

وأخذ توماشيفتش يذكر البايا أن السلطان العثماني لن يتوقف أعماله الحربية على غزو البوسنة، ولكن غزواته تمتد إلى أبعد من ذلك، إلى روما نفسها^(١). وعلى الرغم من ذلك لم نصله المساعدة المنشودة.

وعلى أية حال، دعا البابا القيام بحملة صليبية ضد الأتراك، وطبقا للوعد الذي قطعه المجريون على أنفسهم بتقديم المساعدة، رفض ملك البوسنة توماشيفتش أن يدفع الجزية السنوية لمبعوث السلطان، الأمر الذي جعل محمد الفاتح يصر على غزو البوسنة، وتأهب للزحف عليها، ولكنه كان عاجزاً عن أن يضع خطته موضع التنفيذ حتى سنة ١٤٦٣^(٢).

ففى أوائل ربيع هذا العام، خرج السلطان محمد الفاتح على رأس جيوشه الضخمة من أدرنة متجهاً إلى البوسنة. وأصيب ملك البوسنة توماشيفتش بدهشة بالغة لتقدم السلطان في زحفه دون أن يعترضه أحد، حتى وصل إلى العاصمة الملكية القديمة بوبوفاتش Bobo-vats، وحاصرها يومن إلى أن استسلمت. وسقوط تلك المدينة ضاع كل شيء أمام الملك البوسنى^(٣). وعندئذ فر الملك شمالاً إلى ياييه Jajce على أمل الحصول على مساعدة المجر، واعتصم بقلعة كليونش Kljuc على نهر السانا، وهناك أدركه الأتراك، وحشوه على تسليم القلعة مقابل منحه وعد بالأمان، ولكنهم نقضوا وعدهم، فقد ساقوه إلى ياييه وحزوا رأسه، ودفن هناك^(٤). ثم تابعت سائر القلاع والحصون في الاستسلام للمعتمانيين فى غضون أسابيع قليلة، ففى منتصف يونيو سنة ١٤٦٣ إنتهت الحرب بين السلطان والبوسنة من الناحية المحلية، وفقدت البوسنة استقلالها، وصارت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية^(٥). ولا شك أن عدم وجود التعارون بين النبلاء، وفيما بينهم وبين الملك، والمقاومة العاجزة، وهبوط الروح المعنوية، كل ذلك كان من الأسباب التى أدت إلى سقوط البوسنة فى أيدي المعتمانيين، بسرعة أدهشت الجميع^(٦).

(1) Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans, p. 180, Babinger (Franz), Me-lanned the Conqueror and his time (Piinceton, 1978), p. 216.

(2) Ibid., p. 181.

(3) Ibid., pp. 181-182, Babinger, op. cit., p. 219.

(4) Fine, The Bosnian Church, p.339, Clissold, A Short Hist of Yugoslavia, pp. 62-63, Babinger, op. cit., p. 221.

(5) Spinka, op. it., p. 182.

(6) Fine, op. cit., p. 339.

ثم حول محمد الثاني انتباهه بعد ذلك إلى هرزجوقينا (الهرسك) ، لئلا حصرنها وقلاعها وموقعها الاستراتيجي الهام المشرف على البحر الأدرياتي. ولكن ذلك البلد الجبلي الصعب صمد أمام هجمات السلطان العثماني ، واستعصى عليه ، ولذلك اضطر إلى العودة إلى استانبول، دون أن يحقق غرضه. وقد حصلت هرزوقينا على استقلالها الذاتي حتى سنة ١٤٨٣م، عندما ضمت نهائيا إلى الإمبراطورية العثمانية على أيدي السلطان بايزيد الثاني^(١) (١٤٨١ - ١٥١٢).

حروب محمد الفاتح في المورة:

كان بحكم المورة قنسطنطين قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية، فلما آلت إليه هذه الإمبراطورية سنة ١٤٤٨م، عهد بحكم المورة إلى أخويه توماس وديميتريوس، وقسمت بينهما، فكان الأول يقيم في بتراس، والثاني في إسبرطة. وقد أخذت عليهما الأيمان والعهود في القسطنطينية قبل رحيلهما إلى المورة أن يعيشا في وئام، وأن يتركا المنازعات القائمة بينهما، وقد كانا في المورة بمثابة نائبين للإمبراطور قنسططين الحادي عشر باليرولوجوس^(٢).

وعندما بلغ الأخوان سقوط القسطنطينية، استولى عليهما الفرع، وخشيا على ملكهما، فبادرا إلى طلب السلام من محمد الفاتح، فأبقاهما في الحكم وفرض عليهما حصة سنوية. غير أن أحدا من الأخوين لم يكن على شيء من الدراية بالحكم والإدارة، واشتدت المنافسة بينهما، فطلب توماس المساعدة من البنادقة، في حين طلب ديميتريوس المساعدة من العثمانيين^(٣). ولم تمتص الأمور في المورة، بل عمتها الفوضى والاضطرابات، مما أدى إلى تدخل محمد الفاتح، فغزا الجزء الشمالي من المورة خلال صيف سنة ١٤٥٨م، وأضاف إلى ممتلكاته أثينا في يناير عام ١٤٥٩، ثم غزا الجزء الجنوبي من المورة

(1) Spinka, op. cit., p. 1w82, Babinger, op. cit., p. 223.

(2) Lodge, op. cit., p. 511.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٣٦.

(3) Hali Inalcik, The Ottoman Empire, p. 27.

فى يوليو سنة ١٤٦٠ ، وبذلك قضى السلطان على المورة، ولم يعد باقيا إلا طرايزون من الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأسود، كأخر أثر للإمبراطورية البيزنطية. وهذا يعنى أن اليونان كلها صارت تحت السيطرة العثمانية المباشرة، فيماعدًا موانئ المورة كورنث ومودون وبيبلوس، التى جرى الاستيلاء عليها فيما بعد فى عهد السلطان بايزيد الثانى^(١).

أما عن مصير الأخوين حاكما المورة ديميتريوس وتوماس، فإن السلطان محمد الفاتح قد جعل للأول مقراً فى مدينة إينوس وعين له راقبا سنوياً ضخماً، وقضى الأمير البيزنطى بقية حياته فى عيشة هادئة، ثم ارتدى سوح الرهبان فى آخر عمره، إلى أن توفى بأدرنة سنة ١٤٧١م. أما توماس فإنه ما أن علم بدخول السلطان الفاتح لإسبرطة، حتى فر على إحدى السفن إلى كورفو، وظل هناك يترقب الموقف، إلى أن فقد كل أمل فى العودة إلى المورة، فأقلع فى أواخر سنة ١٤٦٠ إلى روما ليطلب المساعدة من البابا بيوس الثانى ودوق ميلان وغيرهما من أمراء المسيحية، ولكنه لم يلق شيئاً مما كان يريد، فغلبه اليأس، وعاد أدراجه إلى دررازو بألبانيا، وظل بها حتى مات فى ٢ مايو سنة ١٤٦٦^(٢).

حروب محمد الفاتح فى ألبانيا:

أصر محمد الفاتح فى حوالى سنة ١٤٦١م على وضع حد لشاعبه فى أرباء، حتى يمكنه أن يركز جهوده على السيطرة على الأناضول. فبعد أن بسط نفوذه على صربيا واليونان، بقيت ألبانيا تشكل له صعوبة بالغة فى الغرب الأوروبى. وكان أن دارت المفاوضات بين السلطان وإسكندر بك ملك ألبانيا، انتهت إلى عقد هدنة بينهما فى ٢٢ يونيو سنة ١٤٦١م مكنت إسكندر بك من إعادة سيادته على الجزء الغربى من ألبانيا وإيبروس، فى مقابل أن يحجم عن توجيه هجمات ضد الممتلكات العثمانية فى الشمال^(٣).

على أن الهدنة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات، إذ فى سنة ١٤٦٣ دعا البابا بيوس الثانى إلى شن حملة صليبية ضد العثمانيين. ووصلت دعوة البابا هذه إلى إسكندر بك عن

(1) Shaw, op. cit., p. 63.

(2) Lodge, op. cit., pp. 513-514.

(3) Shaw, op. cit., pp. 63-64.

طريق صديقه الحميم بول أنجيلو مطران دورازو، ونجح في حمله على نقض عهده مع السلطان، وأقنعه بأن هذا العمل لا يعد ذنباً بل هو قرينى إلى الرب. ولما علم محمد الفاعح بما حدث، بعث إلى إسكندر بك يذكره بما بينهما من عهد وميثاق، فما كان منه إلا أن سخر من السلطان، ورد عليه قائلاً إنه لن يحافظ على أى عهد معه إلا إذا ارتد عن دينه المزيف (الإسلام) (١).

ولم يشأ إسكندر بك انتظار الجيوش الصليبية، بل بادر بالإغارة على أملاك الدولة العثمانية وتخريبها. فانتاب السلطان الغضب لذلك، وأرسل إلى ألبانيا جيشاً ضخماً يقدر بخمسة عشر ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة بالابان بك، وهو ألبانى الأصل، سبق أن أظهر فى حصار القسطنطينية بسالة نادرة، وكان أول جندى رفع الراية العثمانية على أسوار هذه المدينة، وقد كافأه السلطان على ذلك بأن رقاؤه إلى منصب القيادة (٢).

وقد اختار إسكندر بك للملاقاة بالابان وادى فالحاليا حتى لا تنطفى عليه كثرة الجيش العثماني. وقد توقع أن يكون وراء هذا الودادى كمين للعثمانيين، فحذر جنوده إلى ذلك قبل نشوب القتال ونهاهم عن مطاردة العدو إذا ما كتب لهم النصر فى القتال. وعندما التحم الجيشان إنهمز العثمانيون وارتدوا على أعقابهم. ولم تستطع تحذيرات إسكندر بك أن تمنع نمانية من أشجع قواده من الاندفاع وراء المهزومين، فوقعوا فى شرك وأحيط بهم من كل جانب، وأسروهم العثمانيون، وأرسلهم بالابان إلى القسطنطينية. وكان لفقد هؤلاء القواد أثر عميق من الحزن فى نفوس أهل ألبانيا، واشتد الغضب باسكندر بك وجنوده، فانقضوا على العثمانيين، واشتبكوا معهم فى معركة حامية فى أرونيج بالقرب من دبرا العليا أرعمت بالابان على الانسحاب، ولكنه لم يلبث أن عاد بجيش جديد أرسله له السلطان الفاعح، غير أن اسكندر بك استطاع أن يعزق صفوف هذا الجيش، ولم ينج بالابان نفسه إلا بصعوبة (٣).

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاعح، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٤ - ١٥٥.

على أن هذا الفشل الذى منى به العثمانيون لم يوهن عزم السلطان محمد الفاتح ولا عزم قائده بالابان. واقترح هذا القائد أن يعد جيشان جديداً قويان يزحفان إلى ألبانيا فى وقت واحد من طريقين مختلفين. وتولى قيادة أحد الجيشين يعقوب أرناؤوط، وكان عليه أن يدخل ألبانيا من الجنوب متبعاً ساحل البحر، ويقود بالابان الجيش الثانى، فيسير من تراقيا ومقدونية ويدخل ألبانيا من معابر الجبال. وأدرك اسكندر بك أن السرعة وحدها هى التى ستحميه من منع الجيشين التركيين من الإطباق عليه، فعجل بملاقاة بالان وهزمه. وفيما كان جنوده يقتسمون الغنائم، جاءه رسول يخبره بأن يعقوب أرناؤوط قد دخل ييرات على رأس جيش ضخم. فأسرع إليهم اسكندر بك بجيشه وقذف إليهم برؤوس قتلى الأتراك من جيش بالابان يعلمهم بهزيمته. ثم اشتبك الجيشان فى قتال عنيف، لقى فيه يعقوب أرناؤوط مصرعه، وتشتت شمل الجيش العثماني^(١).

عاد إسكندر بك إلى كرويا، ثم بعث إلى ملوك أوروبا يشترهم بالنصر العظيم الذى أحرزوه. وسعت دولا كبيرة مثل المجر والبندقية لحالفته، وأطلق عليه البابا «نصير المسيحية»، ونظرت إليه شعوب أوروبا كبطل من أبطال المسيحية يلود عنها ضد تيار الإسلام الجارف^(٢).

ولم يجد السلطان الفاتح بدأ بعد فشل قواده أن يخرج بنفسه، فجهز جيشاً ضخماً يزيد على مائة ألف جندي، وزحف به على ألبانيا ودخلها فى يونيو سنة ١٤٦٥م، واستعاد بعض القلاع. ورأى إسكندر بك أنه من الطيش أن ينازل بجيشه الصغير جيش الفاتح الضخم فى ميدان مكشوف، فغادر كرويا قبل أن يحاصرها الجيش العثماني، ولاذ بالجبال، وأخذ يتنقض منها بين حين وآخر على الجيش العثماني^(٣).

ووجد محمد الفاتح أن أمد الحصار سيطول، فعهد إلى قائده بالابان بمواصلة حصار كرويا، فى الوقت الذى رأى إسكندر بك أن هناك بعض القلاع والحصون تعوزها حاميات

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(2) Schevill, op. cit., p. 204.

(٣) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٥٦.

للدفاع عنها، فسافر إلى إيطاليا طلباً للمعاونة من البابوية التي كانت تنظر إليه باعتباره نصير المسيحية. فرحب البابا بيوس الثاني بقدومه، ثم اجتمع إسكندر بك بالكرادلة، ووصف لهم الأخطار التي تهدد إيطاليا، وذكر لهم أن الأتراك يتقدمون كل يوم ويقربون من إيطاليا. وعندئذ باركه البابا وقدم إليه مالا، وكتب إلى جميع حكام أوروبا يستحثهم على معاونته، كما أمدته البندقية بجنود مسلحين من الفرسان والمشاة^(١).

وعندما عاد إسكندر بك إلى بلاده كان القائد التركي بالابان لا يزال على حصاره لكرويا وينتظر مدداً جديداً من الجند سيأتي به أخوه يونس. فلما علم إسكندر بك بأمر هذا المدد أصر على أن يمنعه من الوصول إلى بالابان بأى ثمن حتى لا ترد قوته وشدة ضغطه على كرويا، فكمن مع نخبة من رجاله فى بعض الطرق التي سيجتازها يونس، ثم انقض عليه فجأة فأسره وأسر معه إبنه وشتت شمل الجيش الذي جاء به. وأتى بالأسيرين مكبلين بالحديد وعرضهما من بعيد على بالابان، ثم ضربهما بالسيف نصفين. فلما رأى بالابان ما حدث لأخيه يونس والجيش الذي جاء به تملكه اليأس، وهجم بجيشه على المدينة متدفعاً بغير روية، فأصابته قذيفة قاتلة فى حلقه صرعه فى الحال، الأمر الذى أحدث الفوضى والاضطراب فى صفوف جيشه، فانسحب إلى تيرانا^(٢).

وبالرغم من فشل القوات التركية فى إخضاع كرويا، فإن محمد الفاع رفض أن يتسلم للهزيمة ودع الألبانيين يتممون الراحة والطمانينة، فأرسل قوات أخرى لمناوشتهم. وأمر بتحسين مدينة البسان وهدم مدينة تشودرى التي أنشأها إسكندر بك بالقرب من دروازو على شاطئ البحر. أما إسكندر بك نفسه، فقد أخذ يطوف ببعض المدن، ووصل فى جولته إلى مدينة السيو التابعة للبنادقة، وهناك فاجأته حمى عنيفة، ومات فى ١٧ يناير سنة ١٤٦٧، بعد أن حكم أربعة وعشرين عاماً. ولم تجد ألبانيا بعد وفاته زعيماً يجتمع عنده

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاع، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٧.

الكلمة، فانتشرت الفوضى والاضطرابات فى أرجائها، وصارت هناك ثلاث قوى تتنازع السيادة فيها، وهى رؤساء القبائل والدولة العثمانية وجمهورية البندقية^(١).

حروب محمد الفاتح فى الاشيا ومولدافيا:

أراد محمد الفاتح أن يصفى حساباته مع هاتين الإمارتين - والاشيا (الأفلاق) ومولدافيا - الواقعتين فى الأراضى المنخفضة شمالى الدانوب، ويقطنهما شعوب تتحدث باللغة اللاتينية، ويطلقون على أنفسهم الرومان. ومن المحتمل أن تلك الشعوب أسلاف الداكيين القدماء الذين احتل الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) إقليمهم داكيا Dacia، ويتباهون بأنهم أبناء روما القديمة. وقد اختفى الداكيون والولايات الأخرى التى ترومنت من صفحة التاريخ خلال القرون الخمسة التى تلت الغزوات السلافية والمغولية، الأمر الذى زاد من الغموض الذى أحاط بهم. وعندما سقطت دفاعات البلقان الإمبراطورية بحثوا عن ملاذ لهم فى البلقان. ومرتفعات الكرايات، بيد أن الفيضان المغولى فى حوالى سنة ١٠٠٠م أجبرهم على شق طريقهم مرة أخرى إلى الأراضى الدانوبية المنخفضة، وأسماوا دولتين جديرتين بالاعتبار، وهما والاشيا ومولدافيا قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى^(٢). ولوقوع والاشيا بين الكرايات والدانوب، امتداد مولدافيا شرقا من الكرايات إلى نهر دنيستر، فقد دخلت هاتان الدولتان فى صراعات مبررة مع جارتيها الطموحتين المجر وبولندا، واستمر الوضع على ذلك، حتى ظهر خطر جديد آتيا من الجنوب، وهو التقلم العثمانى^(٣).

وكان أول اتصال العثمانيين بهاتين الإمارتين فى عهد السلطان بايزيد الأول، وكانت والاشيا بطبيعة موقعها فى الجنوب أسبق إلى هذا الاتصال. وقد أخضعها بايزيد الأول للسيادة العثمانية سنة ١٣٩٣م فى عهد أميرها مركيا الأول عقابا على تكاتفها مع الصرب فى محاولة استرداد أكرنة من العثمانيين، واشتراكها فى معركة كوسوفو إلى جانب المسيحيين سنة ١٣٨٩م، وعندما نشبت معركة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ قاتل مركيا إلى

(1) Babinger, *Medamed the Conqueror*, pp. 264-265.

سلم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(2) Schevill, *The Hist of Balkan Peninsula*, pp. 204-205.

(3) Ibid., p. 205.

جانب المسيحيين، ثم أعلن استقلاله بعد الهزيمة التي لحقت بيارزد في أنقرة سنة ١٤٠٢م. ولكن السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) بعد أن استتب له الأمر، أخضع والاشيا مرة أخرى سنة ١٤١٦م، وصارت تدفع له الجزية^(١). ومنذ ذلك الوقت وجد مركيا وخلفاؤه أنفسهم مرتبطين بمجلة التبعية للعثمانيين^(٢).

وبعد موت مركيا أمير والاشيا سنة ١٤١٨م تنازع أبناءه الملك، واحتدمت بينهم الحروب الأهلية، فمنهم من استجد بالأتراك، ومنهم من استجد بالجر، وظل الأمر على ذلك من الفوضى إلى أن خلعت الإمارة لولده فلاد الرابع (١٤٥٦ - ١٤٦٢) Vlad IV المعروف بالخورق ، The Impalar الذي لم يذكر في التاريخ رجلا يضارعه في القسوة وحب التعذيب وسفك الدماء. فقد ابتدع له خياله في وسائل القتل والتعذيب أفاتين شتى لا تخطر على بال أحد. وقد أطلق الناس عليه ألقابا مختلفة تدل كلها على هذا المعنى. فمواطنوه أهل والاشيا لقبره بالشیطان (دراكول)، وبه يذكره معظم المؤرخين. وأهل الجبر لقبره بالسفاح، والعثمانيون لقبوه بالخورق (قازيقلی). وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن ينظر إلى مشاهد التعذيب والآلام التي يمانية ضحاياه، وبطرب لسماع أنات المعذبين. وكان لا يتناول طعامه مع رجاله إلا وحوله أعمدة الخوازيق وضحاياه من المئات منصرون عليها يشنون أنات الموت^(٣). وعلى الرغم من أن الخورق استطاع أن يحارب أعداءه مثل الشيطان، ويلقى الهزيمة بمحمد الفاتح وقواده عدة مرات، إلا أنه وقع ضحية لثورة داخلية في سنة ١٤٦٢ أنشاء هروبه، وهين محمد الفاتح بدلا منه حاكما، أعلن عن رغبته في وضع حد للحرب مع الأتراك، واعترف بتبعية للسلطان، وتمهد بدفع جزية له^(٤).

وفي ذلك الوقت كان يحكم مولداليا ستيفن الرابع الشهير الملقب بستيغن الكبير (١٤٥٧ - ١٥٠٤) لمهارته كقاتل ودعائه كدبلوماسي، وقد بنى دولة قوية، واستولى على ميناء كيليلا اللاتوي، وتدخل في سياسة والاشيا كخطوة أولى تمكنه من غزو ساحل البحر

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٩.

(2) Schevill, op. cit., p. 205.

(3) Schevill, op. cit., pp. 205-206.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(4) Schevill, op. cit., p. 206.

الأسود والقرم. وكان نزاعه آنذاك مع العثمانيين حول السيطرة على أمراء والاشيا الضعاف، وأخيراً اعترف فلاد الرابع بسياسة العثمانيين والمجريين، وفي المقابل جرى الاعتراف به أميراً على والاشيا. وفي سنة ١٤٦٠ عقد فلا الرابع مع السلطان محمد الفاتح، وفي هذه المعاهدة تمهد السلطان بحماية والاشيا والدفاع عنها ضد أى عدو، والحفاظ على أمرائها وديانتها وقوانينها ومؤسساتها، على أن تكون له اليادة على هذه الإمارة وتدفع له جزية سنوية. كما وعد السلطان العثماني أن يعاد «الغزاة» العثمانيين عن أراضي والاشيا، بشرط ألا يقوم متيفن بأى عمل لتوسيع نفوذه في المنطقة^(١).

وتسوية الموقف في والاشيا وجعلها محايدة، أصبح السلطان العثماني محمد الفاتح قادراً على تحويل جهوده إلى الأناضول، خاصة أن المعارضين المسلمين للسلطان قد تركزوا في شرق ووسط الأناضول، ويظهر ذلك واضحاً في أنه بعد انهيار إمبراطورية تيمور المغولية، شيدت دولة «الشاه السوداء» إمبراطورية قوية في غرب إيران وشمالي العراق، في حين استطاعت دولة «الشاه البيضاء»، تحت زعامة الأمير التركماني المرموق أوزون حسن (١٤٥٣ - ١٤٧٨)، وبمساعدة ضئيلة من دولة المماليك الجراكمة في مصر، استطاع أن يبنى دولته في غرب إيران وشرق الأناضول. أما إمارة قرمان، فقد أخذت تمد نفوذها في الأناضول الوسطى، وتعرض الأهالي على الثورة ضد العثمانيين^(٢).

وما يجدر ذكره أن الانتصارات التي حققها العثمانيون في مناطق البلقان، قد أثارت الغزع والرعب في قلب البندقية وجنوة، الأمر الذي جعلهما يشجعان إمارات الأناضول على الخروج ضد السلطان، بهدف تقليل التهديد العثماني ضدهما. وعتدئذ أراد محمد الفاتح أن يضع حداً لما تقوم به البندقية وجنوة. ففي أبريل عام ١٤٦١ استخدم محمد الفاتح أسطوله الجديد في هجماته البرية والبحرية، واتصر على الأسطول الجنوي في مدينة أمامسة Amasra في آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود، ثم في كفه Kaffa، وأراضى الكاندر Candar بشبه جزيرة القرم، وهي آخر إمارة في المنطقة، وفي أواخر هذا العام قضى على طرايزون البيزنطية. أما أوزون حسن زعيم دولة «الشاه البيضاء»، فلم تكن لديه قوة

(1) Schevill.op. cit., p.20, Shaw, op. cit., Vol.I, p. 64.

(2) Shaw, op. cit., p. 64.

كافية لمواجهة العثمانيين بمفرده، ومن ثم اضطر إلى عقد معاهدة سلام معهم في أرزنجان في ١٤ أغسطس عام ١٤٦١م، في الوقت الذي وقفت إمارة قرمان ساكنة، وحافظت على هدوئها، وخافت أن تقوم بأى عمل يثير غضب السلطان ضدها^(١).

ولكن محمد الفاتح لم يلبث أن انشغل عن حملاته في الأناضول بالفزوات التي قام بها أمير والاشيا فلاد الرابع في الأقاليم العثمانية في شمالى بلغاريا في سنة ١٤٦١ - ١٤٦٢. فأرسل إليه الفاتح يدعوه إلى الطاعة، فجاء رسول الفاتح أمام الأمير، فإذا به يأمر بخلع عمامة هذا الرسول وأن يخلع من معه عصائهم أيضا إظهاراً لاحترام الأمير، فلما خالفوه أمر فلاد بأن تستمر عمام رسل الفاتح على رؤوسهم بمسامير من حديد^(٢). وقد رد محمد الفاتح على ما فعله أمير والاشيا بفزوة إمارته وفتحها وضجها إلى الإمبراطورية العثمانية (أبريل - أغسطس ١٤٦٢). ولكن إمارة والاشيا لم تلبث أن استعادت استقلالها الذاتي في عهد رادو الرابع المعروف برادو الوسيم (١٤٦٢ - ١٤٧٩) شقيق فلاد الرابع، وكان رادو قد تربى في البلاط العثماني، وفي سبيل حصوله على العرش، اعترف بسيادة السلطان العثماني، ووافق على دفع الجزية له^(٣).

حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان:

وهناك مصدر آخر أثار المتابع للدولة العثمانية، وهو نشاط البندقية ضد مشاريعها. فالبنديقية خوفا من التوسع العثماني بهذه البحار الأدرياتي، راحت تبحث في كل مكان عن حلفاء لها ضد محمد الفاتح، ووقفت في مساهما، فوجدت في ألبانيا إسكندر بك، وفي شرق الأناضول الأمير التركيحاني حسن أوزون. وقد امتحن مجلس الدولة في البندقية كل وسيلة ممكنة للتغلب على العدو ومنها القتل السياسي، فقد فكر البنادقة جددا في دس السم ل محمد الفاتح، ونظرا إلى الحاجة لاستخدام كل الوسائل الممكنة ضد تركيا وسلطانها^(٤). وقد استطاعت البندقية أن تقنع إسكندر بك بتحطيم تحالفه مع السلطان العثماني،

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p.64.

(٢) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٨٦ - ٨٧.

(3) Shaw, op. cit., p. 64.

(٤) شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٨ - ١٣٩.

واستئناف العمليات الحربية ضد الحاميات العثمانية في الشمال في فبراير عام ١٤٦٢. وبما يجدر ذكره أن ملك البوسنة الجديد ستيفن توما شيفيتش (١٤٦١ - ١٤٦٣) أبدى تعاونه، فأطاح بالسيادة العثمانية، وقبل حماية المجرين وسيطرتهم عليه في عام ١٤٦٢ م. ولكن محمد الفاتح رد على ذلك بغزو ألبانيا، وأجبر ملكها اسكندر بك على توقيع معاهدة سلام جديدة معه، والتخلي عن الأراضي التي استولى عليها في ٢٧ أبريل سنة ١٤٦٣. ونتيجة لذلك، أصبحت يد السلطان العثماني طليقة في التعامل مع البوسنة، فغزاها خلال الفترة الباقية من الصيف^(١). وقد حصل على مساعدة قيمة من البوجوميليين الوطنيين الذين عانوا من وطأة الاضطهاد المربع الذي قام به الكاثوليك والأرثوذكس خلال الاحتلال المجرى^(٢). ولم يعد أمام السلطان إلا حدود مجرية «بانات Banats»، هذا وقد قبلت هرزجوفينا حيثئذ السيادة العثمانية^(٣).

ومنذ عام ١٤٦٣ فصاعداً ظلت أراضي البوسنة واقعة تحت الحكم التركي الدائم، رغم أن العثمانيين سحبوا قواتهم العسكرية الرئيسية أثناء الخريف. بيد أن المكاسب التي غنمها الجيش التركي في النصف الشمالي من البوسنة، ما لبث أن استردها سريعا ملك المجر ماتياس كورفينوس. إذ ما كاد السلطان العثماني يعود أذواجه، حتى حاصرت القوات المجرية زفتشا Zvečaj وبایسة Bajice، اللتين لم تلبثا حتى ملتا. وسرعان ما أسس الملك ماتياس «بانية» جديدة للبوسنة تحت الحكم المجرى في هذه الأجزاء الشمالية. وفي سنة ١٤٧١ أصدر أمراً بترقية «ألبان» إلى رتبة «ملك البوسنة». ومع أن هذه المملكة ما لبثت أن تهاوت تحت أقدام الترك في حملاتهم التالية فإن القسم الذي بقي من تلك المملكة، استمر صامداً مدة تزيد على الثمانين عاماً. وفي غضون عشرينيات الألف وخمسة ظلت مدينة يایسة في حالة حصار مستمر تقريبا وهي تتلقى معونات من الأغذية من سلافونيا المجرية بواسطة قوافل مملحة، لا يكاد يصل عددها إلى أربع مرات في السنة. وأخيراً فتحها العثمانيون في سنة ١٥٢٧ م، بعد تخطيم الجيش المجرى في معركة موهاتس Mohats الفاصلة في السنة السابقة.

(1) Shaw, op. cit., pp. 64-65.

(2) Darby and others, A Short Hist of Yugoslavia, op.63.

(3) Shaw, op. cit., p. 65.

(٤) مالکولم: البوسنة، ص ٧٧.

أما حرب الدولة العثمانية مع البندقية فلم يكن من الممكن تجنبها. إذ استغل البابا بيوس الثاني الموقف ليربط البندقية بالبحر في اتفاقية ضد عدومها المشترك العثمانيين في ١٢ سبتمبر عام ١٤٦٣، والقيام بحملة صليبية جديدة ضد هذا العدو. واتفق على أنه لو نجحت تلك الحملة، فستحصل البندقية على المورة والأقاليم اليونانية بحذاء البحر الأدرياتي، وسوف يمد اسكندر بك حدود دولته الألبانية في مقدونيا، وكذلك تقوم الجبر بحكم بلغاريا والصرب والبوسنة واللاشيا، وفضلا عن ذلك سوف تعود القسطنطينية وأعمالها إلى الأفراد الموجودين على قيد الحياة من الأسرة البيزنطية الحاكمة السابقة^(١). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تفاوض الصليبيون مع الأميرين المسلمين أوزون حسن (١٤٥٣ - ١٤٧٨) صاحب إمارة «الشاة البيضاء»، وأمير قرمان، حيث وعدا بمهاجمة أملاك العثمانيين في الأناضول ويزحفان إلى الغرب، في نفس الوقت الذي يتحرك فيه الصليبيون ضد محمد الفاتح في أوروبا، ويزحفون إلى الشرق، وبذلك يقع العثمانيون بين فكي الكماشة^(٢). ويرى البعض أن سياسة الفتوحات التوسعية التي اتبعها محمد الفاتح، وليست سياسته التجارية، هي التي دفعته لأن يدخل في صراع لا يمكن تجنبه مع البندقية. فقد كان السلطان يمتلك قوة بحرية محدودة، استطاع بفضلها الإستيلاء على القسطنطينية. وعلى ذلك رأى أنه لتأمين ممتلكاته البلقانية، فلا بد له من السيطرة على شواطئ البلقان والبحار المحيطة به، التي كانت تسيطر عليها البندقية من الناحية القبلية، وذلك بفضل أساطيلها وخبرة ملاحبيها، التي جعلتها تنتشر في البحار الأيونية والإيجية. وحتى يجعل محمد الفاتح من البلقان منطقة أمان وخضوع، كان على القوات العثمانية أن تتولى على المراكز البحرية التي انتزعتها البندقية من الإمبراطورية البيزنطية^(٣). وما يذكر أن البابا بيوس الثاني بعث برسالة طويلة إلى محمد الفاتح، يحضه فيها على اعتناق المسيحية، ووعده بإعطائه الإمبراطورية الشرقية، مثلما فعل أسلافه البابوات الذين أعطوا الإمبراطورية الغربية لشارلمان، وكل ما نعرفه أن محمد الفاتح لم يرد على الاقتراح الغريب الذي عرضه البابا^(٤).

(1) Shaw, op. cit., p. 65.

(2) Shaw, p. 65.

(3) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 208-209.

(4) Lodge, The Close of the Middle Ages, p. 279.

وقد بدأت الأعمال الحربية للصليبيين فى سبتمبر عام ١٤٦٣، عندما احتلت البندقية عدداً من الجزر الإيجية وأجزاء كثيرة من المورة على أيدى أمهر قوادها^(١). وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٤٦٣، أذاع البابا يوسر، الثانى منشوراً حماسياً على جميع المسيحيين فى أوروبا، دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الأتراك، ثم جمع جيشاً صليبياً جديداً فى أنكونا (مدينة فى منتصف إيطاليا على ساحل البحر الأدرىانى). وأبحر الأسطول البندقى إلى الدردنيل، واستولى على لينوس وتيندوس Tenedos فى عام ١٤٦٤، وضع العثمانيين من إرسال المؤن إلى المورة، وهدد بمهاجمة إستانبول. فما كان من السلطان محمد الفاتح إلا أن أمر ببناء أسطول جديد، كما شيد قلعتين حصيتين تواجه كل منهما الأخرى عبر مضيق الدردنيل لتجبر العدو على البقاء بعيداً، وقد استغرق بناؤهما سنتين فى ١٤٦٣ و١٤٦٤. وقاد الصدر الأعظم محمود باشا حملة ضخمة تمكنت من استعادة المورة وسحق الجيش البندقى فى ربيع عام ١٤٦٤. كما قاد السلطان بنفسه جيشاً إلى البوسنة وطرده الجربين من أراضيها، وبدأ فى غزو المجر، وحاصر بلغراد، ولكنه فشل فى الإستيلاء عليها مرة أخرى. وعلى أى حال، فشلت الحملة الصليبية، ومات البابا يوسر الثانى كمدأ فى أنكونا فى ١٥ أغسطس عام ١٤٦٤م^(٢).

وفى سنة ١٤٦٩ تحرك الأسطول البندقى إلى شرق البحر الإيجى واستولى على جزر لنوس، ونهب جنوب الساحل الأناضولى، وأنزل المؤن لإمارة قرمان. فغضب السلطان محمد الفاتح وصمم على أن ينزل ضربة قوى بالبندقية^(٣). فقاد حملة بحرية إلى مدينة يوبويا (نجرپونت) Negroponte - أى الجسر الأسود - وهى القاعدة البحرية الرئيسية للبندقية فى البحر الإيجى. وحاصر السلطان المدينة، وأبليت المدينة فى الدفاع بلاء حثاء، ولكن تراخى أمير البحر نيقولا داكأنالى أضاع كل شىء، إذ لم يستطع منع وصول الأسطول العثمانى ولاقتحام جسر السفن الملقاة بين الجزيرة والبر، والتى يقطع تدميرها الإمدادات عن العدو. وقد «نسى نفسه»، فى كسل وجبن، فلم يقم بجهد ما لإنقاذ المدينة، وأخيراً سقطت نجرپونت بعد نضال مستميت. وقد انتقم العثمانيون من الحامية والسكان

(1) Shaw, op. cit., p. 65, Babinger, op. cit., pp. 228-229.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. p. 65.

(3) Ibid., p. 65.

المدينين انتقاماً ذريعاً، فقطعوا أجسام بعض جنود القلعة بواسطة المناشير، ووضعوا البعض الآخر منهم على الخوازيق، ومثلوا بهجئة نائب البندقية فيه أبشع تمثيل، وقال أحد المعاصرين: «لم ير أحد قساوة تفوق هذه قط»^(١).

على أن الغزو النهائي الذي قام به العثمانيون لقرمان، جعلهم يحتكون احتكاكاً مباشراً مع دولة المماليك الجراكسة في مصر، وأوزون حسن صاحب إمارة «الشاة البيضاء»، ويدخلون في نزاع مهم. فقد تحالف أوزون حسن الأمير التركماني المسلم مع البندقية في عام ١٤٧٢، ووجدت فيه حليفاً أكثر حماساً وأشد جراً واندفاعاً في مقاتلة العثمانيين، وفي مقابل ذلك وعدته البندقية بإرسال جيوش وذخيرة وخبراء لتعليم رجاله طريقة استخدامها. واستعد أوزون حسن لقتال العثمانيين، بأن جمع حوله كل الأمراء التركمان الذين ظلمهم محمد الفاتح، ووعد أن يرد إليهم إماراتهم في مقابل مساعدته في القضاء على العثمانيين^(٢).

وفي رسالة بعث بها أوزون حسن في غضون الأيام التي سبقت لقاؤه بالعثمانيين إلى حلفائه دوج البندقية، وإمبراطور ألمانيا وملك المجر ماتياس، كتب يقول إن إيادة الجيش العثماني خلال عدة أيام أمر مؤكد، وأنه لا يستطيع أن يتكهن بما إذا كان يمكن أسر السلطان أم لا. كما تضمنت رسالته أن الدولة العثمانية ذات تسعة أرواح، فقد استطاعت أن تستعيد حيويتها بعد انهيارها في موقعة أنقرة التي جرت منذ حوال سبعين سنة. وأهاب أوزون حسن بالإصرار في احتلال أراضي الدولة العثمانية في روميللي فور قيامه بإيادة الجيش العثماني، وإذا لم يمكنه القضاء عليه بشكل تام، فإن الدولة العثمانية متصبة على الأقل بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية، وتسقط إلى درك إمارة عادية عديمة الشأن^(٣).

وكان أن زحف جيش تركماني ضخم من إمارة «الشاة البيضاء»، في الأناضول الوسطى، واستولى على سيراس، ثم انقض فجأة على مدينة توقات، فأعلن فيها قتلاً ونهباً

(١) شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٩.

Creasy, Turkey, p. 85, Babinger, op. cit., pp. 283-284

عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، ج ٢، ص ٨٨٤.

(2) Shaw, op. cit., p. 66.

(٣) يلماز أوزونونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٦٢.

تخريباً، حتى أصبحت الممتلكات العثمانية فى الأناضول فى خطر. وما أن علم السلطان الفاتح بما حدث، حتى واجه الموقف بنشاطه المعتاد، فبعد أن أعد إستانبول لمواجهة أى هجوم بحرى صلبى محتمل، تركها لإبنه جم سلطان البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، وقاد جيشاً ضخماً فى الأناضول فى العام التالى، وحطم جميع المحاولات التى قام بها الصليبيون للمرور خلال المضائق. ثم التقى محمد الفاتح مع أوزون حسن والأمراء التركمان فى سهل أوتلوق ييلى بالقرب من أرضروم فى ١١ أغسطس ١٤٧٣، واحتدم القتال بين الفريقين، وانتهى بانتصار حاسم للجيش العثمانى بفضل الإنكشارية. وأمن العثمانيون القتل فى رجال أوزون حسن. ومرة أخرى أدرك الأخير أنه لا يستطيع التغلب على العثمانيين فى معركة مفتوحة، ولذلك وافق على توقيع معاهدة سلام معهم فى ٢٤ أغسطس من نفس العام^(١). وقد قضت معاهدة السلام بتخلى أوزون حسن عن قلعة «قره حصار»، وملتهد بعدم التعرض للأراضى العثمانية مرة أخرى، ثم عاد إلى آذربيجان^(٢). وبذلك توطن الحكم العثمانى فى الأناضول غربى الفرات، وقضى على تحالف أوزون حسن مع القوى الأوروبية وبخاصة البنادقة، وبعد وفاته إنهارت إمارته من أساسها، وفى عهد إبنه يعقوب (١٤٧٩ - ١٤٩٠) ظلت العلاقات بينه وبين العثمانيين هادئة^(٣).

تخرج موقف البندقية تخرجاً شديداً، بعد أن وقع أوزون حسن أكبر حلفائها فى الشرق معاهدة سلام مع العثمانيين، وفى الغرب تحول حلفاء البندقية إلى أعداء، ومن ثم وجدت البندقية نفسها وحيدة، فلم تجد بداً من أن تدعى للرافع بعد أن أحست أنها عاجزة عن مواجهة السلطان العثمانى، فاجتمع مجلس الشيوخ فى ٢ مايو سنة ١٤٧٨، وقرر عقد الصلح مع الدولة العثمانية^(٤).

وعلى أية حال، أسرع البندقية إلى إجراء مفاوضات مع السلطان محمد الفاتح، إنتهت بتوقيع معاهدة صلح فى إستانبول فى ٢٥ يناير سنة ١٤٧٩، وبذلك انتهت ستة

(1) Shaw, op. cit., p. 66, Halil Inalcik, Ottoman Empire, pp. 28-29.

يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) خليل إينالچك: «العثمانيون: النشأة والازدهار»، ص ٦٦.

(3) Shaw, op. cit., p.66.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٣٣.

عشر عاما من الحروب بينهما. وبمقتضى هذا الصلح وافقت البندقية على التنازل عن سكوناري، وهو آخر ميناء كانت تحتله فى شمالي ألبانيا، والاعتراف بالحكم العثمانى فى ألبانيا، والفتوحات العثمانية فى جزر البحر الإيجى، وبذلك أعطى البنادقة السلطان سيطرة كاملة على البحر الإيجى الشمالى، فيما عدا جزر سبورادس Sporades وخيوس التى لازالت فى أيدي جنوة. وفى مقابل تلك التنازلات الفادحة منح السلطان للبندقية باستعادة عدد من الموانئ فى دلاشيا بحذاء البحر الأدرياتي، فضلا عن ممتلكاتها السابقة فى المورة فيما عدا أرجوس. وقد أرغم السلطان البندقية على دفع مبلغ سنوى ضخيم مقداره عشرة آلاف دوكات، لمنحها حرية التجارة فى جميع أرجاء الدولة العثمانية^(١)، وأن يكون للبندقية اتصال فى استانبول ليشرح على مصالح البنادقة، وينظر فى قضاياهم المدنية^(٢).

حصار رودس والاستيلاء على أوترانتو فى جنوب إيطاليا:

ولأنك أن النصر الذى أحرزه محمد الفاتح على البندقية أعظم قوة بحرية فى شرق البحر المتوسط، جعله يحاول جاهداً تحقيق هدفين هامين لبحرته وهما:

(١) غزو جزيرة رودس بالقرب من مدخل البحر الإيجى، التى تعتبر البوابة التى ينطلق منها لمزيد من التوسع فى غرب البحر المتوسط.

(٢) إحلال إيطاليا، التى صارت مهيبة للغزو بسبب المنافسات العميقة بين البندقية ونابولى وميلان، فضلا عن الانقسامات التى أوجدتها النشاط السيسى للبابا فى روما.

وكانت رودس الجزيرة الإيجية الهامة الوحيدة التى لم يضع العثمانيون يدهم عليها بعد، وكان يحكمها فرسان القديس يوحنا (الإسبتار)، وهم أصلا منظمة دينية حربية تأسست فى بيت المقدس فى عام ١٠٧٠م. ومن المعروف أن الهيئات الدينية الحربية لعبت دوراً بالغ الأهمية فى الدفاع عن مملكة بيت المقدس طوال القرون الثاوى عشر. وفى خلال

(١) Shaw, op. cit., p. 69, Castellan, Hist of the Balkans, p. 83.

شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٤٠.

(١) Lodge, op. cit., p. 266, Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 29.

نقولا لكان: صغرى العثمانيين (١٤٥١ - ١٥١٢)، فى تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٤٥.

القرن التالى انتقل هبة الدفاع عن الممتلكات الصليبية فى الشام إلى تلك الهيئات، والتى كان أقدمها هيئة فرسان الإسميتارية. وبعد أن سقطت عكا فى أيدي المسلمين عام ١٢٩١، وانتهى الوجود الصليبي ببلاد الشام، أخذت الإسميتارية من جزيرة قبرص مقراً لها، على أنها لم تلق شيئاً من التقدير الذى كانت تأمله فى تلك الجزيرة، فاستولت على جزيرة رودس فى أغسطس سنة ١٣٠٨، واتخذتها قاعدة لنشاطها. ولم يكن فرسان الإسميتارية الذين حولوا الجزيرة إلى قلعة منيعة يقلون حماساً عن آل لوزجنان فى قبرص فى مشاريعهم الصليبية ضد المسلمين.

وكانت جزيرة رودس آنذاك جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية المتداعية، واستخدمت وكرّاً للقرصنة. وقد أصبحت منظمة الإسميتارية حنسا منيعاً ضد الإسلام، وقاعدة رئيسية للقرصنة الذين يغربون على السفن العثمانية فى البحر الإيجى وشرق البحر المتوسط، فضلاً عن قيامها بمساندة الجهود البحرية الصليبية المختلفة فى المناطق المجاورة^(١).

وفى عهد السلطان العثمانى أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) انقضت سفن فرسان رودس على بعض السفن العثمانية فى إمبروس سنة ١٣٤٦ وحطمتها وأسرت بعض بحارتها العثمانيين. بيد أن انصراف السلاطين العثمانيين الأوائل إلى الفتوحات البرية وعدم امتلاكهم بحرية قوية وقلة تمرسهم بأساليب القتال فى البحر وانشغال الفرسان أنفسهم بعد نزولهم فى رودس بتشديد القلاع والحصون وإنشاء قوة بحرية قوية لهم، كل ذلك لم يتيح للدولتين فرصة الالتحام فى معركة كبيرة حاسمة^(٢).

وقد اشترك فرسان رودس برجالهم أو سفنهم فى معظم المعارك والحملات التى شنّها الغرب الأوروبى على الدولة العثمانية فى عهد محمد الفاتح وعهد من قبله من السلاطين. وعندما نشب الصراع بين الفاتح وأوزون حسن، عقد رئيس الفرسان معاهدة تحالف مع الأخير، وأمدّه بما كان يحتاج إليه من رجال المدفعية وصناع الأسلحة النارية^(٣).

(١) Shaw, op. cit., Vol. I. p. 69.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٤.

ويذكر المؤرخ دوكاس أنه في خلال العام التالي من سقوط القسطنطينية على أيدي السلطان محمد الفاتح، وفي أثناء وجوده في أدرنة، وصل فرسان الاستبار من رودس ومعهم كثير من الهدايا، وذلك لتقديم الطاعة للسلطان. وقد رغب هؤلاء الفرسان في إجراء مفاوضات هادئة الغرض منها عقد اتفاقيات تسمح لهم بحرية التجارة في المناطق المجاورة لكاريا وليكيا، في الوقت الذي سيكون فيه الأتراك قادرين على الذهاب إلى رودس دون خوف، ولهم الحرية في شراء ما يحتاجونه من مؤن من رودس والجزر التابعة بها. وعندئذ طلب السلطان من السفراء دفع جزية سنوية، ولكن السفراء أجابوا عليه بأنه ليست لديهم سلطة البت في هذا الموضوع دون الرجوع إلى حكومتهم. وهنا قال وزراء السلطان: «إذا لم توافقوا على دفع الجزية، فإنكم ستحرمون من عطف السلطان، وإذا لم تخضعوا لمطلبه: فسوف يخوض السلطان مع الجزيرة معركة ضخمة، ويقوم بتطعيمها هي والمناطق المجاورة لها. وعندئذ طلب السفراء من السلطان أن يرسل معهم واحداً من حاشيته للحدث في هذا الأمر مع مقدم الإمبرار، إذ أنهم لا يملكون سلطة التصرف في هذا الأمر، فوافق السلطان على طلبهم، وأرسل معهم أحد حاشيته^(١). وعندما عادت السفارة إلى رودس، واستمع مقدم الفرسان بعناية لطلب السلطان، أجاب على رسوله بأن الجزيرة لا تخصه، بل هي تابعة للبابا الذي منحه من دفع جزية، وإذا رغب السلطان في صداقتنا، فسيرسل له المقدم سفارة كل سنة لتحيته كجار وسلطان عظيم. وعندما سمع السلطان بذلك نار وغضب وأعلن الحرب على رودس، وأعقب ذلك أن نزل العشمانيون على شاطئها، وأسروا أربعين من أهلها، وفعلوا نفس الشيء في جزيرة قوس Kos^(٢).

والواقع أن الأحداث السياسية والعسكرية في أوروبا الشرقية وآسيا منعت السلطان الفاتح من التفرغ لمحاربة جزيرة رودس، واقتصر الصدام بينه وبين فرسان الاستبار في النين الأولى من حكمه على المناوشات البحرية والغارات التخريبية المتبادلة على الشواطئ، لم يكن لها من أثر إلا أنها حملت الفرسان على مضاعفة جهودهم في تحصين جزيرتهم ومد الثغرات والالامات^(٣).

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, p. 245.

(2) Ibid., pp. 245-246.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

غير أن فرسان القديس يوحنا في رودس قد اقتنعوا أن محمداً الفاتح سوف يعمل إن عاجلاً أو آجلاً على طردهم من الجزيرة. ونتيجة لذلك بذل مقدم الفرسان وأبلغه جهداً كبيراً في توجيه الصرخات للبابا وملوك وحكام أوروبا طلباً للمساعدة، وقد توجه ضباط المنظمة إلى الغرب الأوربي سعياً وراء ذلك. وفي يوليو سنة ١٤٧٧ أرسل مقدم المنظمة مبعوثاً هو بيير دوسون Pierre d'Aubusson إلى رؤساء الأديرة في أوروبا، لكي يصل صوت الاستغاثة إلى أوروبا. وقد كتب دوسون أن السلطان العثماني يزداد قوة يوماً بعد يوم، ولا شيء يوقفه عند حده، ويرجع السبب في ذلك إلى أن عدد جيشه يفوق الحصر، ويطيحه طاعة عمياء عند أقل بادرة أو إشارة، وسفنه يقودها قبطانات رائعين وبحارة مهرة، ولديه أفضل المهندسين وآلات الحرب وأموال ضخمة، وقد أقسم السلطان على طرد كل المسيحيين من الشرق الأوربي^(١).

وقد علم دوسون من جواسيسه الذين يعملون لحسابه في الباب العالي أن السلطان يعد العدة لمهاجمة رودس بأقوى جيوشه، وأنه سيعمل على سحق فرسان رودس الذين يقفون عقبة كأداء في طريق طموحاته التي لا تنتهي. وحث المقدم ملوك وحكام أوروبا على التفكير في الكارثة التي ستقع على رأس المنظمة ما لم يأتوا إليها في الحال، ويقدموا لها المساعدة، وألا يتركوا الجزيرة نهياً لغضب البرابرة^(٢).

وعلى عكس ما كان يتوقع دوسون، فإن قوات محمد الفاتح لم تهاجم الجزيرة في سنة ١٤٧٧ أو في العام التالي، بل الحقيقة أنه في صيف سنة ١٤٧٩ أُنشئ رسل إلى رودس برسالة تتضمن طلب عقد هدنة دائمة بين المنظمة والباب العالي. ولكن دوسون لم يوقع على أية اتفاقية، بل أسرع بعمل الاستعدادات اللازمة تحسباً لأي هجوم يشهه العثمانيون^(٣). من ذلك أنه شدد الحراسة والمراقبة على المرتفعات، وأحصى سكان رودس الذين يقدرّون على حمل السلاح. وأنشأ في أطراف الجزيرة القرية من الساحل المعرضة للأخطار أكثر من غيرها قلعة منيعة للسكان ومنهم من الخروج منها صباحاً قبل أن يخرج كشافون من الفرسان يستوفقوا من عدم وجود أي خطر. ولما نفذت أموال الخزانة العامة في

(1) Schoebel, *The Shadow of the Crescent*, p. 120.

(2) Ibid., p. 120.

(3) Ibid., pp. 120-121.

هذه الامتعدادات، لجأ دويسون إلى أموال الكنيسة، واستخدمها في هذا السبيل، وأمر بتخزين الحبوب والطعام، وأكره الأجانب المقيمين في رودس وفيهم المسلمون على الإشتراك في أعمال التحصين والبناء، واستولى على السفن الأجنبية الرامية في مياه رودس. ويمكن القول إن دويسون عبأ جميع القوى والطاقات لتحصين رودس، حتى غدت هذه الجزيرة قلعة محكمة شديدة المناعة^(١).

وكيفما كان الأمر، ففي ديسمبر سنة ١٤٧٩ ظهر أسطول تركي بقيادة مسيح باشا. وهو أصلاً من أسرة باليولوجوس التي حكمت بيزنطة - أمام جزيرة رودس، فوجد لها في غاية التحصين، فرجع إلى خليج فكوس Physcos انتظاراً للنجدات التي وصلت في مايو سنة ١٤٨٠، وصار عدد الأسطول العثماني يزيد على مائة سفينة. وفي ٢٢ أو ٢٣ مايو نجح مسيح باشا تحت ضربات مدافعه المتواصلة في إنزال جنوده على الساحل الغربي من الجزيرة^(٢).

وتبع الأتراك نزولهم الناجح بتركيز قواتهم حول تل يدعى تل القديس ستيفن غربي المدينة، ثم واصل الأسطول التركي تعزيزاته حتى أصبحت قوته حوالي سبعين ألف جندي. ووضع الأتراك ثلاثة مدافع ضخمة بالقرب من كنيسة القديس أنتوني القريبة من الميناء، وفتحوا النار على قلعة القديس نيقولا. وقد اهتم مسيح باشا بتدمير البرج، فظل الأتراك يقصفونه ليلاً ونهاراً حتى استطاعوا تدمير جزء كبير من السور الغربي للقلعة. ولكن دويسون بادر بإرسال جماعات لترميم ما تهدم بالأحجار والأشجار، وتولى بنفسه قيادة حامية برج القديس نيقولا^(٣).

وأمر مسيح باشا بمواصلة ضرب أسوار قلعة نيقولا، على أمل أن ينسحب المدافعون، وقد اهتزت المباني في داخل المدينة كأن زلزالاً وقع بها من شدة لضرب، فوقمت أجزاء ضخمة من الأسوار والبيوت، ولكن أهالي رودس إنشغلوا بإصلاح وترميم الأجزاء التي دمرتها المدفعية العثمانية، واشتركوا جميعهم في بناء سور جديد، وحفر خندق في

(١) سالم الرشيدي: محمد الفاتح، ص ٢٤٦.

(2)Schwoebel, The Shadow of the Crescent., pp. 121-122.

(3) Ibid., pp. 123-124.

وقت قصير كخط دفاع ثان. وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا متفوقين في العدد، إلا أنهم عجزوا عن الاستيلاء على برج القلعة، وعانوا هزيمة لقيلة، قتل فيها حوالى ٢٥٠٠ جندى عثمانى، وأصيب كثير من الجند بجروح، وناقت الخسائر فى المعدات الحربية لى وصف^(١).

وبعد شروق الشمس بساعة صباح يوم ٢٨ يوليو ١٤٨٠م، هاجم الجيش العثماني أسوار حى اليهود الضخيلة، واقتحم العثمانيون الخندق، وصعد الآلاف منهم الأسوار، وغرसوا رايتهم أمام أعين أهالى رودس، وهبط بعض المهاجمين سلماً داخل داخل، ودخلوا المدينة. ولكن الموقف لم يلبث أن تغير، فجزء من المدافعين كان يقوده مقدم المنظمة، فى حين أن الجزء الآخر كان يقوده أخوه أنطوان دويسون الذى صعد السور ومعه قمرساته وجنوده وحارب الأتراك، ودمر البعض الآخر السلم الذى كان الأتراك يستخدمونه لدخول المدينة، وقتلوا أولئك الذين وصلوا إلى الأرض. واستمر القتال ساعتين، جرح فيه بيسر دويسون عدة مرات، ولكنه ظل يقاتل. وعجز الأتراك عن اختراق صف المدافعين، ووقعوا فى فوضى، وتكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح، فقد مات حوالى ثلاثة آلاف جندى. وبعد ثلاثة شهور انسحبت القوات العثمانية، وعادت إلى بلادها تجر أذيال الفشل^(٢). ولا شك أن الانتصار الذى حققه فرسان رودس على العثمانيين قد رفع من شأنهم فى أوروبا، وازدادت أهمية جزيرة رودس فى الدفاع عن المسيحية. ومن ناحية أخرى دلت الحملات الفاشلة التى قام بها العثمانيون ضد رودس على ضعف البحرية العثمانية.

على أن الفشل الذى منى به الجيش العثماني فى حصار رودس، قد خفف من سوء وقعه النجاح الذى أحرزه جيش عثمانى آخر فى جنوبى إيطاليا. فبعد أسابيع قليلة من نزول القوات العثمانية فى رودس. وصلت الأخبار إلى الغرب الأوروبى بظهور أسطول عثمانى بلغ عدد سفنه مائة وأربعين سفينة بقيادة جدك أحمد باشا فى جنوبى إيطاليا. وفى ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٠، وهو اليوم الذى اتسمر فيه فرسان رودس على الأتراك، رسا الأسطول دون عوائق بالقرب من مدينة أوترانتو فى مملكة نابولى. وشرع جدك بعد إنزال المعدات والجنود الذين يقدرون بشمانية عشر ألف جندى فى حصار قلعة المدينة^(٣). وساد الذعر أنحاء شبه

(1) Ibid., pp. 125-126.

(2) Ibid., p. 129.

(3) Ibid., p. 131.

جزيرة الإيطالية. وكان ملك نابولي فرانتى Ferrante فى أفرسا Aversa عندما علم أن العثمانيين، قد غزوا مملكته، فكتب إلى ابن الفونسو دوق كالابريا فى ٢ أغسطس يأمره بأن يقطع حملته فى توسكانى، ويتوجه من فورى إلى الجنوب للملاقاة العثمانيين. وفى نفس اليوم وجه فرانتى رسائل إلى البابا وحكام أوربينو وفيرارا يطلب المساعدة العاجلة. وكتب رسائل مشابهة إلى الحكومات الإيطالية الأخرى يحذرهم من أنهم ما لم يتنضموا إليه فى طرد العثمانيين، فإنهم سوف يجتاحون دولهم^(١).

وفى تلك الأثناء نزلت قوات تركية على ساحل أبوليا، ونهب جنود جندك أحمد باشا قرى وضواحي مدينة أوترانتو، ودمروا كل شىء فى طريقهم، وقتلوا واستمعدوا الفلاحين، فقد كان عدد الأتراك يفوق عدد المدافعين الذين كان ينقصهم الرجال والسلاح. وحاصر الأتراك أوترانتو، حيث وعد القائد التركى الأهالى بالإبقاء على حياتهم ومنحهم حريتهم إذا خضعوا له طائعين، وعندما رفض الأهالى نداء القائد التركى، بدأ الأتراك فى ضرب المدينة بالمدافع. وعلى الرغم من أن أهل أوترانتو قاوموا بعناد، إلا أن الأتراك اقتحموا أسوار المدينة بالمدفعية، واستولوا على المدينة بسهولة فى ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠، وبذلك أصبح لمحمد الفاتح قاعدة فى شبه الجزيرة الإيطالية^(٢)، يزحف منها من الجنوب إلى الشمال، حتى يصل إلى روما مقر البابوية.

وعندما وصلت الأخبار إلى الإيطاليين يسقط أوترانتو فى أيدي الأتراك، دب الرعب والفرع فى قلوبهم، إذ حملت تلك الأخبار المعاملة الوحشية التى عامل بها العثمانيون الأهالى، من ذلك أن العثمانيين قادوا ثمانمائة مواطن برىء إلى تل قريب يعرف منذ ذلك الوقت بتل الشهداء، حيث خيروهم القائد التركى بين اعتناق الإسلام أو ذبحهم^(٣).

أدى الهجوم العثمانى على رودس، وماتبه من غزو إيطاليا والاستيلاء على أوترانتو على أيدي القوات التى قادها جندك أحمد باشا، إلى ظهور موجة جديدة من الرعب فى الغرب الأوروبى. وفى متى ١٤٨٠ و ١٤٨١ أصبحت نبؤات الدعاة الصليبيين حقيقة

(1) Ibid., p. 131. Lodge, The Close of Middle Age, p. 283.

(2) Schwoebel, op. cit., pp. 131-132, Halil Inalcik, Ottoman Empire, p. 29.

(3) Schwoebel, op. cit., p. 132.

واقعة، ونجحت خطط السلطان الرامية إلى إخضاع الغرب الأوربي وامتلاء البابا مكتوس الرابع (١٤٧١ - ١٤٨٤) فرعاً، واشتد به القلق، وخطط للهرب شمالاً مع معظم سكان المدينة. وقبل أن ينظم جهوده للقيام بعمل عدائي مضاد، جاءت الأخبار إلى الغرب الأوربي بموت السلطان محمد الفاتح فجأة في ٣ مايو سنة ١٤٨١ عن عمر يبلغ تسعة وأربعين عاماً، وسط مظاهر فرحة عظيمة عمت أرجاء أوروبا، وشعور عميق بالراحة إلتاب المسيحيين. وظهر لكثير من المسيحيين أن الرب قد استجاب لصلوات المخلصين. وتأكد لهم مرة أخرى أن تدخله قد أنقذ المسيحية^(١). ويمكن القول إن وفاة محمد الفاتح قد أنقذت أوروبا من خطر العثمانيين. فقد عاد الأسطول العثماني إلى الوطن في ١٠ يوليو، وانتهى بذلك التوسع الإسلامي في المنطقة^(٢).

والواقع أن حكم السلطان محمد الثاني شهد سلسلة خارقة من الفتوحات والتحديات لأعظم القوى البحرية في أوروبا. فبعد استيلائه على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣، وأصل الزحف وفتح شمال صربيا، وشرطاً من بلاد الأناضول، وبلاد الاشيا والبوسنة وهرزجوفينا (الهرسك)، ودمر جيش البندقية في اليونان، واجتاح مولدافيا وأنجر، وحاصر جزيرة رودس، وواقته المنية وهو يدبر هجوماً وغزواً كاملاً لإيطاليا^(٣).

وبعد محمد الفاتح المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية في أوروبا وآسيا عاصمتها إستانبول، وإليه ينسب ترتيب الحكومة المركزية وتقويتها على نظام جديد، فقد أطلق على نفس الحكومة العثمانية الباب العالي، وجعل لها أربعة أركان، وهي الوزير وقاضي عسكر والدفتار الذي تعادل اختصاصاته اختصاصات وزير المالية حالياً، والرابع يسمى نيشانجي وهو عبارة عن كاتب سر السلطان، ثم بعد امتداد سلطة الدولة العثمانية في أوروبا، جعل لها قاضي عسكر خاص إسمه قاضي عسكر الروميلي، وقاضي عسكر آخر للأناضول. ثم رتب محمد الفاتح وظائف الجند، فجعل للإتكشارية رئيساً معنياً «أغا»، وعهد إليه بأشغال الضبط والربط بمدينة القسطنطينية، ورئيساً آخر للطوبجية، وثالثاً يختص بدخائر ومؤن الجيش.

(1) Ibid., p. 202.

(2) Shaw, op. cit., Vol. I, pp. 69-70.

(3) مالكولم: البوسنة، ص ٧٨.

روضع أول مبادئ القانون المدني وقتون العقوبات، فأبدل العقوبات البدنية أى السن بالن والعين بالعين، وجعل عوضها الغرامات النقدية بطريقة واضحة أنمها السلطان سليمان القانونى^(١).

ومن القوانين التى أصدرها محمد الفاتح قانونا يسمح قتل إخوة السلطان الجديد، إذ جرت العادة أن كل ابن من أبناء السلطان الحاكم كان يرى أنه أحق من غيره فى ارتقاء العرش بعد وفاة أبيه. ودلت التجربة فى تاريخ الأسرة الحاكمة على أن الإبن الذى يتقلد العرش يستهل حكمه بقتل جميع منافيه، واتسع نطاق الصراع العائلى الدموى الرهيب، إذ شمل الأفراد الذكور من الأسرة الحاكمة، حتى الذين لم يتطلعوا إلى ارتقاء العرش. ولم تمارس عمليات قتل الإخوة بصفة قانونية ورومية إلا منذ عهد محمد الفاتح. فقد أصدر قانونا حول بمقتضاه السلطان الجديد الذى يتولى العرش أن يياشر عمليات قتل إخوته تأميناً لسلامة الدولة. وجاء فى هذا القانون مايلى: «على أى واحد من أولادى تتول إليه السلطنة أن يقتل إخوته، فهذا يناسب نظام العالم. وإن معظم العلماء يسمحون بذلك، ولذلك فمليهم أن يتصرفوا بمقتضاه»^(٢).

والواقع أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن أعظم آثار محمد الفاتح على الإطلاق هو جملة إستامبول عاصمة للدولة العثمانية، ومركزا اقتصاديا هاما لها، وميناء تجاريا معتبرا فى ذلك العصر، وذلك علاوة على تحويله لهذه المدينة إلى مدينة إسلامية بحق^(٣). لقد وضع محمد الفاتح نواة الدولة العثمانية فى الرومىلى والأناضول حول إستامبول، وقيت الدولة على هذا النحو دون تغيير ذى بال مدة أربعة قرون كاملة، كما وضعت سياسته المركزية القوية أيضا حداً لحركة توسع الأسر المحلية الحاكمة فى المنطقة، والسياسة القبلية التى كانت منتشرة فى تلك الجهات. ومن ناحية أخرى، فقد أنشأ الفاتح ثملى مدارس كانت نواة لتطوير المؤسسة الملحية فى الدولة، وجعل من استامبول واحدة من مراكز العلوم فى العالم الإسلامى. وقد تميز عصر الفاتح ببدء ظهور فن العمارة والأدب والتاريخ العثمانى، حيث أعطت كل هذه الفنون وبخاصة المعمارية منها أهم معالم هذا العصر^(٤).

(١) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٦٧.

(٢) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١، ص ٣٤٧ - ٣٤٩.

(٣) خليل إنالجيک: «العثمانيون، النشأة والأزدهار»، ص ٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١.

كان محمد الثانى يجمع فى شخصه جميع مظاهر عصر، الفكرية والثقافية فقد ناصر العلوم الإسلامية، وناصر الشعر بما أعده على الشعراء من هبات مادية سخية. ليس هذا فحسب، بل كان مولعاً بأن يختبر براعته الشخصية فى ميدان الشعر، تاركاً للأجيال اللاحقة جمهرة من الأشعار اعتبرها جديرة بأن تحفظ. والواقع أن السلطان محمداً كان شديد الإعجاب باللغة الفارسية، بدليل أنه عهد إلى الشاعر الأناضولى شهدى أن ينظم بالفارسية قصيدة تصور التاريخ المسمانى على غرار الشاهنامه للفردوسى، وأن ديوان حميدى أحد شعراء بلاطه، ينتظم قصائد بعضها باللغة الفارسية، وبعضها باللغة التركية. كذلك كان شديد الاهتمام بالنهضة التى تفتحت أكامها فى إيطاليا، وعهد إلى أحد فناني البندقية جنتيل بلينى Gentile Bellini بأن يخرج له صورة زيتية - ولاتزال هذه الصورة محفوظة إلى اليوم فى مجموعة لايارد بالبنادقية^(١).

لقد ارتبط محمد الفاتح بموهبة النشاط السياسى والحربى الذى تمتع به أسلافه، وجعل منه نشاطه أقدر حاكم فى عصره، ولهذا فإن لقب أمير الذى اتخذه أسلافه إلى عهد يرجع إلى مراد الأول بانتصاره فى كوسوفو، لم يعد مناسباً لمحمد الثانى، الذى اتخذ بكل فخر واعتزاز لقب سلطان^(٢).

ولاشك أن إجادة محمد الفاتح للغات اللاتينية واليونانية والصربية والإيطالية وفهمه عدة لغات أخرى، ودهاؤه فى الرياضيات، ومعرفته العلوم الدينية بصورة فائقة، وإجادته العربية والفارسية، تحملنا على الاعتراف بأن السلطان محمد الفاتح هو أعظم حاكم وأكبر عسكري وأكبر رجل دولة سياسية، وبالنسبة إلى كثير من المؤرخين، فإن محمد الفاتح هو أكبر شخصية أنجبها الأتراك طوال التاريخ^(٣).

(1) Derekseu, The Crescent and Cross, pp. 151-152.

بروكلمان: تاريخ العرب الإسلامية، ص ٤٤١ - ٤٤٢.

(2) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 195-196.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٤٥.

الفصل السادس

الإمبراطورية العثمانية فى أوج قوتها

- بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢).
- نزاع بايزيد الثانى مع مصر المملوكية.
- غرب البحر المتوسط.
- الخطر الصفوى.
- السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠).
- الحرب ضد الصفويين.
- العثمانيون والمماليك.

بایزید الثاني: (١٤٨١ - ١٥١٢):

يعتبر عهد بایزید الثاني أكبر أبناء محمد الفاتح فترة انتقال من عهد البطولة القديم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلى عهد جديد من العظمة والفخر. وكمآراثنا، فقد قام أبوه محمد الثاني بفتوحات هامة في الشرق والغرب، وأعاد إلى الأذهان إمبراطورية السلطان بایزید الأول وأضاف إليها، ولكنه ترك صعوبات اقتصادية ومشاكل اجتماعية لا يمكن حلها إلا إذا ظلت الإمبراطورية قوية متماسكة من ناحية، والقيام بفتوحات جديدة من ناحية أخرى. وبعد عهد بایزید الثاني عهد قوة وتماسك شهدته الإمبراطورية العثمانية قبل أن تستأنف الفتوحات،^(١).

والواقع أن الأتراك والأوروبيين كلاهما في خلال الجيل الذي تلى موت السلطان محمد الفاتح كانوا يميلون إلى التفاوض أكثر من ميلهم إلى الحرب. وحتى بعد أن انتهت الحرب الأهلية التي نشبت بعد وفاة محمد الفاتح كما سنرى، وجد بایزید الثاني أنه من الأفضل الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع القوى الأوروبية. وقد اعتقد الغرب الأوروبي أنه أمام رجل هادئ المزاج، ولكنه في الحقيقة كان مشغولا بتقوية نفوذه، وإيجاد إدارة فعالة في الإمبراطورية التي أسسها والده^(٢). وبعبارة أخرى كان السلطان بایزید الثاني ميالا للسلم أكثر منه إلى الحرب، محبا للعلوم الأدبية، ومشتغلا بها، ولذلك سماه بعض المؤرخين الترك بایزید الصوفي أو بایزید الولي. لكن سياسة الدولة دعتة آنذاك إلى ترك أشغاله السلمية المحضة، ولم يغفل واجباته كسلطان، فاشتغل بالحرب، وكانت أول حروبه داخلية^(٣).

فعندما توفي السلطان محمد الفاتح كان ابنه نجم سلطان، أحق بالعرش من أخيه بایزید الثاني، وكان له أنصار كثيرون. وعندما علم نجم الذي كان يقيم في قونية بوفاته أبيه، كان أخوه بایزید الثاني قد سبقه إلى دخول إستانبول، ولذلك وجد نجم أن الوقت لم يعد في صالحه لمنع أخيه من اعتلاء العرش، ومن ثم توجه نجم إلى مدينة بروسه، واستدعى

(1) Shaw, Hist of Ottoman Empire, Vol. I, p. 70.

(2) Schwoebel, The Shadow of the Crescent., p.203.

(3) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 211-212.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٦٨.

جميع أنصاره والتركمان في الأناضول، وأعلن نفسه سلطاناً على الأناضول في ٢٨ مايو سنة ١٤٨١م، وأمر بضرب النقود باسمه. ثم اقترح جم على أخيه بايزيد الثاني تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى قسمين: قسم أوربي يحكمه بايزيد الثاني، وقسم آسيوي يحكمه جم سلطان. ولكن بايزيد الثاني لم يوافق على هذا الاقتراح دفاعاً عن وحدة الإمبراطورية العثمانية والإبقاء عليها متماسكة^(١).

وحصل بايزيد الثاني على مساعدة جدك أحمد باشا الذي كان آنذاك في الأناضول لتجنيد فرق جديدة لغزو إيطاليا، وعرف بحب الانكسارية له. وسرعان ما نشبت الحروب بين جم وأخيه بايزيد الثاني، واستمرت عاماً. ولقى فيها جم الهزيمة بالقرب من بنى شهر في ٢٠ يوليو سنة ١٤٨١، واضطر هو وقلوب جيشه إلى الفرار، ولجأوا إلى مصر، فرحب بهم السلطان للملوكي قايتباي، الأمر الذي أغضب بايزيد، ونقم على قايتباي^(٢). وبعد أن أقام جم بالقاهرة ضيفاً عند السلطان قايتباي، وأمدّه ببعض المساعدة، عاد إلى حلب في أبريل ١٤٨٢، ومنها راصل قاسم بك آخر أمير قرماني، ووعده أنه لو أنجده وساعده للحصول على ملك آل عثمان، يرد له بلاد أجداده، فاغتر قاسم بك بهذه الوعود، وجمع أنصاره، ومار مع الأمير جم لمحاصرة مدينة قونية عاصمة إمارة قرمان من قبل. وهناك انضم إليه عدد من أمراء التركمان الفارين من وجه العثمانيين، وبعض كبار الملاك الإقطاعيين الذين عزلهم بايزيد الثاني وجردهم من إقطاعاتهم، وحين دخلت قوات جم الجديدة الأراضي العثمانية في قيليقية في ١٩ مايو سنة ١٤٨٢م، لم يجد جم كثيراً من الأنصار، ولم يستطع أن يحصل على أية مساعدة سواء من الدوشرمة أو الارستقراطية التركية، فأصابه اليأس من

(1) Shaw, op.cit., p. 17.

(2) Ibid., p. 71, Halil Inalcik, Ottoman Empire, p. 30.

ومن الأسباب التي أدت إلى الاحكام بين الممالك والعثمانيين الإماراتين التركمانيتين قرمان ودلفادر بأسماء الصغرى، إذ تدخل محمد الفاتح في شئون هاتين الإماراتين المشمولتين بالحماية الملوكية بوجه في أن يولى عرشهما لسيرين موالين للعثمانيين، وإلى جانب ذلك رحب السلطان العثماني بالأمراء اللاجئين إليه من بلاط السلطان عثقم (١٤٦١ - ١٤٦٧). أنظر لين لانس: بلاتع الزهروني وقائع الدهور، جـ ٣، ص ١٨٣.

الوصول إلى عرش الدولة العثمانية، وهرب إلى جزيرة رودس فوصل إليها في ٢٩ يوليو سنة ١٤٨٢، حيث احتسب بأصحابها فرسان القديس يوحنا^(١).

وعلى أية حال، وعد ييبر دريسون مقدم فرسان القديس يوحنا برودس الأمير جم، بالعمل على كسب الأنصار في أوروبا ضد أخيه بايزيد الثاني. وقد اتصل مقدم الفرسان ببايزيد، الذي وعد بمنح أخيه دخل إمارة قرمان دون أن يتولى حكمها، بشرط أن يتخلى عن قتال أخيه، ويعتزل ويميش في سلام في القدس ولكن جم أصر على أن يتولى حكم قرمان. فلم يوافق بايزيد على ذلك، ووعد المقدم بمنحه سنويا بعض المال في مقابل التحفظ على أخيه جم، كما تعهد له السلطان بعدم التعرض لاستقلال الجزيرة طيلة حياته^(٢). وقد قبل فرسان القديس يوحنا ما عرض له عليهم السلطان بايزيد الثاني وأوفوا بوعدهم، وبتضح ذلك في أنهم لم يقبلوا تسليم الأمير جم إلى ملك الجرج أو إمبراطور ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه ليستغلا في إثارة المتاعب في وجه بايزيد الثاني^(٣).

وفي أول سبتمبر عام ١٤٨٢ أبحر الأمير العثماني جم إلى فرنسا، وكان لا يزال تحت حماية فرسان القديس يوحنا برودس، ووضع تحت التحفظ أولا في مدينة نيس، وبقي يتنقل من بلدة لأخرى مدة سبع سنوات. وفي نهاية الأمر، تقرر في عام ١٤٨٦ إرسال جم إلى البابا إنوسنت الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢) الذي كان يفكر مليا آنذاك في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين، وشجعه على ذلك أن أخا بايزيد الثاني وخصمه في نفس الوقت جم وصل إلى روما، ورأى البابا أنه بإمكان إشعال حرب أهلية في الإمبراطورية العثمانية لصالح جم. وبقل إن رسل السلطان العثماني أقنعوا البابا بالتوقف عن تنفيذ ذلك المشروع وتخليصهم من جم، وبعبارة أخرى القضاء عليه بقتله، مقابل أن يدفعوا له مبلغ ثلاثمائة ألف من الدوكات الذهبية^(٤).

(1) Shaw, op. cit., p. 71.

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٨ - ٦٩.

(2) Shaw, op. cit., p. 71.

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩.

(3) Shaw, op. cit., p. 71.

(٤) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٥، محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩.

رجاء البابا الإسكندر السادس (١٤٩٢ - ١٥٠٣) بعد البابا إنومنث الثامن، وأصبح صاحب الدور الهام في تلك المسألة الغامضة بالاشتراك مع ملك فرنسا شارل الثامن (١٤٨٣ - ١٤٩٨). ذلك أنه عندما عبر شارل الثامن جبال الألب وغزا إيطاليا وحاصر روما، قام بأسر جم في ٢٧ يناير عام ١٤٩٥، وأمر بإرساله إلى فرنسا، غير أن جم سقط مريضاً في الطريق، ومات في نابولي في ٢٥ فبراير من نفس العام، وبموته تخلص بايزيد الثاني من الخطر الذي كان يتهدد به. ويقال إن وفاة جم غير الطبيعية جاءت بسبب آثار سم أعطى بتحريض من أخيه بايزيد، وإن كان ذلك لم يتأكد. تماماً^(١).

وبرى البعض أنه بعد انتهاء الحرب الأهلية بين جم وبايزيد الثاني تفرغ بايزيد لشئون دولته، وكان مسالماً بطبعه، فلم يلجأ إلى مد الأملاك العثمانية شرقاً أو غرباً، بل إنصرف إلى سياسة التعمير كإصلاح الطرق والجسور، على أن أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذي يحمل اسمه والذي شيده ما بين سنة ١٤٩٧ و ١٥٠٣ في إستانبول^(٢).

ومهما كان بايزيد الثاني مسالماً، فإن سياسته الخارجية أملت عليه القيام بنشاط حربي، عندما كان الوضع يسمح بذلك. وكانت أولى خطواته الحرية، هو إرسال غزاة من الصرب والبوسنة بحداء ساحل دلماشيا حتى راجوزا، وعبر الدانوب إلى تيمسفار Temesvar والأراضي البجرية، وقد حصل الغزاة على كثير من الغنائم، وأدت غزواتهم إلى فتح نهائى لهزروجوفينا (الهرسك) في سنة ١٤٨٣، فيما عدا كرينا Craina الساحلية التي ظلت في أيدي البنادقة^(٣).

وأول الأعمال الحرية التي قام بها بايزيد الثاني أنه اختار الأشياء، وكان شيفن الكبير قد ألحق هزائم فادحة بالسلطان محمد الفاتح منعت تأسيس المواصلات البرية المباشرة حول البحر الأسود للتابع العثماني الجديد في كرميها. وقد شعر بايزيد الثاني أن الامتلاء على

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 72

يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٨٨، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ١٠٥، محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٦٠.

(3) Shaw, Hist of the Ottoman Empire., p. 72.

موالدنيا سوف، يعطيه ميزة استراتيجية عندما تتجدد الحرب مع الجبر من ناحية، وسوف تمكنه من السيطرة على مصبات نهر الدانوب لإيقاف القراصنة المسيحيين الذين كانوا يدخلون البحر الأسود، وهاجمون السواحل والسفن العثمانية من ناحية أخرى. وقد أمد ستيفن الكبير السلطان العثماني بالذريعة المباشرة للحرب، إذ ما علم ستيفن بثورة جم، حتى غزا والاشيا من يونيو إلى يوليو سنة ١٤٨١، وبعثذ عبر الدانوب، وقام بسلسلة من الغزوات فى بلغاريا، وذلك هدد بشكل رئيسى نفوذ السلطان بين كل الأتباع الأوروبيين^(١).

أما الجبليون فى مونتيجرو (الجبيل الأسود)، فلم يكونوا مثل سكان المدن من أهل راجوزا، بل كانوا فى عزلة، ولم يغمسوا تماما فى تيارات الغزو العثمانى. لقد احتل العثمانيون هذه المنطقة بعد غزوها فى سنة ١٤٩٦، ولكن بعد المنطقة، وقسوة تضاريسها، كانوا سببين فى أن يستبدل العثمانيون سياسة السيطرة المباشرة بسياسة أخرى تعتمد على الاكتفاء بالسيادة الاسمية. وكان الذى يقع عليهم الاختيار من الشخصيات من ذوى المكانة الاجتماعية والأوضاع المميزة من أهل مونتيجرو، هم المشرلون أمام السلطات العثمانية، عن جمع الضرائب العامة وتسليمها. ولكن الثمن الحقيقى الذى دأب أهل مونتيجرو على أن يشتروا به حريتهم ويتحاشوا به التدخل العثمانى فى شئونهم، كان هو الخدمة العسكرية التى كان يقدمها رجال قبائل المنطقة فى خدمة السلطان^(٢).

نزاع بايزيد الثانى مع مصر المملوكية:

وفى عهد السلطان بايزيد الثانى تفاقمت المشاكل بينه وبين الممليك الجراكمة حكام مصر والشام. ومن الأسباب التى أدت إلى وجود المشاكل بين الدولتين العثمانية والمملوكية تجاور ممتلكاتهما فى شرق الأناضول، وخاصة منذ أن ساعد السلطان المملوكى قايتباى الأمير العثمانى جم خلال منافسته لأخيه بايزيد الثانى، ولكن بايزيد قضى على حركته، فلجأ جم إلى مصر، حيث رحب به قايتباى وأكرم وفادته، الأمر الذى أغضب بايزيد، ونقم على قايتباى^(٣)، كما سبق أن ذكرنا.

(1) Ibid., p. 72.

(٢) كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١١٣.

(٣) ابن لياس: بلبائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٣، ص ١٨٣.

عزم بايزيد الثانى على الانتقام من قايتباى، فانتهاز فرصة شكوى على دولات أمير دلفادر^(١) من تصرفات قايتباى، وألغده بقوات ضخمة هاجم بها ملطية التابعة للمماليك فى سنة ١٤٨٤، وفى هذا الصدد يقول ابن إياس^(٢) : «وهذا أول تحرك ابن عثمان على بلاد السلطان». ولم يقف السلطان قايتباى عاجزاً إزاء ما حدث من على دولات وحلفائه العثمانيين، فأرسل حملته بقيادة الأمير نمراس الشى استطاعت إلحاق الهزيمة بهم، وأخذت رايات السلطات العثمانى، ودخلت بها حلب وهى منكبة.

ومن ناحية أخرى، حدث فى العام التالى أن أحد ملوك الهند قد أرسل مع أحد التجار هدايا قيمة للسلطان العثمانى بايزيد الثانى، وكان من بينها خنجر نفيس مرصعاً بفصوص ثمينة، ولما وصل التاجر إلى جدة استولى عليها قايتباى. فلما علم بايزيد بذلك اشتد غضبه على قايتباى. ويبدو أن قايتباى رغب فى مد يد السلام إلى بايزيد الثانى، بدليل أنه أرسل إليه الخنجر والهدايا التى بعث بها ملك الهند، فضلاً عن تقديم اعتذاره عما حدث^(٣). ولكن بايزيد الثانى قابل ذلك بالإساءة، إذ استولت قواته على قلعة كوكك التابعة للمماليك فى آسيا الصغرى، فلم ير قايتباى بداً من إرسال حملة فى سنة ١٤٨٥م بقيادة الأمير أوزبك، استطاعت أن تلحق الهزيمة بالعثمانيين، وأوقعت عدداً كبيراً منهم فى الأسر^(٤). وعلى الرغم من ذلك فقد أطلق قايتباى سراح الأسرى وأرسلهم إلى بلادهم، على أمل أن يتم الصلح بينه وبين بايزيد، وشاع فى مصر أمر الصلح بينهما^(٥).

والحقيقة أن الصلح لم يتم بين المماليك والعثمانيين، بدليل أن السلطان العثمانى بايزيد الثانى أرسل أسطولاً إلى ميناء الإسكندرية ليقطع الطريق على الجيش المملوكى بقيادة الأمير أوزبك، ولكن عاصفة قوية اجتاحت الأسطول العثمانى وأغرقت معظمه،

(١) دلفادر فى منطقة الحدود بين أراضى الدولة للمملوكية فى بلاد الشام وأراضى الدولة العثمانية فى بلاد الأناضول، أى المنطقة للمروقة اليوم بلواء الإسكندرية وبعض المناطق المجاورة لها فى سوريا وتركيا. وتتبع إمارة دلفادر إلى مؤسسا قراجا بن دلفادر التركمانى (ت ١٣٥٣م).

(٢) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢٠٦ - ٢١٠.

(٣) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢١٥.

(٤) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢١٨ - ٢٢٦.

(٥) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢٢٧.

وعندئذ تقدم أزيك ووصل إلى أظنة (أذنة) واستولى عليها بعد حصار استمر ثلاثة شهور، وعاد إلى القاهرة وفي يده كثير من الأسرى والغنائم (١).

ولم يكد الجيش المملوكى يصل إلى القاهرة، حتى استولى عساكر بايزيد الثانى على سيس وطرسوس وغيرها من البلاد الحلبية فى سنة ١٤٨٨ (٢). وكان أن أرسل السلطان قايتباى حملة بقيادة الأمير أزيك، استعادت كركك، واستولت على قلعة كواره، ثم عادت الحملة إلى القاهرة، فى سنة ١٤٩٠م (الحرم سنة ٨٩٦هـ) (٣).

وعلى الرغم من الانتصارات التى أحرزها المماليك ضد العثمانيين فى هذا الدور، إلا أنها لم تكن حاسمة، بل كشفت القناع عن أطماع العثمانيين فى الاستيلاء على باقى إمارات آسيا الصغرى، والتوسع على حساب الدولة المملوكية، إلى أن قضى السلطان سليم الأول على دولة المماليك، كما سنرى بعد قليل.

غرب البحر المتوسط:

عندما ذبلت دولة المملحن فى أسبانيا، لم يعد لهم فى الأندلس سوى مملكة غرناطة، بعد أن سقطت المدن الإسلامية مدينة إثر أخرى، ووقع أكثرها بأيدي المسيحيين. فبين سنتي ١٢٣٨ و ١٢٦٠م استولى فرديناند الثالث ملك قشتالة، وجايم الأول ملك أراجونة على مدن بلنسية وقرطبة وأشبيلية ومرسية، وقدر للمسلمين بعد ذلك أن يستمر حكمهم بغرناطة قرنين ونصف قرن^(٤). ولم يكن يتوقع المسلمون أن يعيشوا تلك الفترة فى غرناطة، والممالك المسيحية على مقربة منهم، وقد أحصوا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى بقرب زوالهم، عندما تم توحيد أراجونة وقشتالة بتزيج فرديناند بايزيلا^(٥). وكانت هاتان المملكتان فى منازعات وحروب مستمرة، لهذا أثارت هذه الوحدة فى أسبانيا موجة

(١) بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٢٥٤ - ٢٥٧.

(٢) بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٢٦١.

(٣) بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٢٧٥.

(٤) لين بول (مثنائى): العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم (القاهرة ١٩٦٤)، ص ١٧٦ - ١٧٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٨٣.

كبيرة من الفرح، ولا شك أن هذا الاتحاد كان معناه فى الواقع انتهاء مملكة غرناطة المسلمة، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعا إلى حد كبير إلى العداء القائم بين هاتين الدولتين^(١). وكفى أول شئ اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان، هو تصفية مملكة غرناطة وإزالة الحكم الإسلامى من أسبانيا نهائيا. وقد اتبعا فى ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة، وإثارة التفرقة والتفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى^(٢).

وقد بدأت الدولة العثمانية تهتم بغربى البحر المتوسط، فعند عام ١٤٨٢ طلب حكام غرناطة المسلمون مساعدة دولة «الغزاة» الوحيدة - الدولة العثمانية - ضد أرجونة وقتالة. وقد أبدى بايزيد الثانى اهتمامه وعطفه، تاركا لغزاة البحر المسلمين فى شمالى أفريقيا الذين أطلق عليهم الغربيون إسم القراصنة، أن يقدموا المساعدة الفعلية، وحين سقطت غرناطة فى عام ١٤٩٢م، وبدأت الدول الإسلامية فى شمالى أفريقيا تواجه احتمالات الغزو المسيحى، تزايد الضغط على العثمانيين طلبا لمزيد من المساعدة، وإن تكن مشاكل بايزيد الثانى فى الشرق قد حالت دون تقديمه المعونة لإخوته المسلمين، ولو أن كثيرا من «غزاة» البحر العثمانيين، قد التحقوا بخدمة العثمانيين وبخاصة بعد أن عززوا قوتهم البحرية، وحشروهم على القيام بنشاط بحرى فى المغرب الإسلامى، وإن تكن الخلافات الأسرية قد شلت نشاط بايزيد الثانى، وبخاصة ما يتعلق منها بمصير أخيه جم الذى، كان محورا لتآمر الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية^(٣).

الخطر الصفوى:

سبق الإشارة إلى أن السلطان العثمانى بايزيد الثانى كان ميالا إلى التأمل والسلام، وبحب الشعر ولكنه فى أواخر حياته تعرض لمشاكل، منها النزاع بين أبنائه، وظهور الأسرة الصفوية فى الشرق التى هددت حدوده الشرقية.

أما تلك الأسرة الصفوية الحاكمة فى فارس فترجع إلى جدها الأكبر موسى الكاظم، وقد أسسها فى أربيل من أعمال آذربيجان الشيخ صفى الدين إسماعيل (١٢٥٢ - ١٣٣٤)

(١) أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٤٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٧٤.

أحد سلالة هذه الأسرة، وحملت إسمه^(١). وكانت الصفوية فى نشأتها صوفية كبقية الحركات الصوفية التى اجتاحت هذه المناطق، ولكنها لم تتخذ الدعوة الشيعية إلا ابتداء من مشيخة «خوجه على» وإبان إغارة تيمور لئلك على الشرق. واتصل تيمور بخوجه على هذا وأوقف عليه أردبيل له ولأعقابه من بعده. وتمركزت الحركة هناك. ثم أخذت فى الانتشار حتى إذا ما وصلت مشيخة الحركة لجنيد، أخذ هذا يعمل على تحويلها من حركة دينية إلى حركة سياسية، متخذاً القوة أداة لنشرها، وارتبط جنيد بأواصر المصاهرة بأسرة أوزون حسن، واكسب بهذا الزواج قوة كبيرة^(٢).

وحين حصل الصفويون على مساندة أوزون حسن الحاكم التركمانى لفارس وشرق الأناضول، اتخذ لهم زعيمهم «حيدر» غطاء رأس أحمر يميز له إئتسا عشر لفة تعظيماً للآئمة الشيعة الإثنى عشر، باعتباره علامة مميزة لأتباعهم الذين عرفوا بعد ذلك باسم قيزلباش (الرأس الأحمر)^(٣). وفى سنة ١٤٨٨م قتل حيدر فى إحدى المعارك المحلية وخلفه إسماعيل وأصله تركمانى - الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الصفوية^(٤).

وقد حاول خلفاء أوزون حسن الضغط على الصفويين والقضاء عليهم، ولكن إسماعيل (١٤٨٧ - ١٥٢٤) تمكن من الهرب إلى إيران ومعه صيغ قبائل من القيزلباش مكنته من القضاء على الإمارات الإيرانية الصغيرة التى خلفت إمارة «الشاة البيضاء» والتيموريين، والسيطرة على كل البلاد. خلال عقد واحد^(٥).

وإذا كانت الأسرة الصفوية قد برزت فى الأصل باعتبارها حركة صوفية، فإن التحول إلى المذهب الشيعى قد اكتمل خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر، وانضوى أهالى إيران تحت زعامة إسماعيل الصفوى الذى كان يتمتع بكثير من الاحترام، وقد صمم إسماعيل على مد النفوذ الصفوى إلى الأراضى العثمانية الواقعة فى شرقى

(1) Shaw, Hist. of Ottoman Empire, Vol. I, p. 77.

(٢) محمدأنيس: الدولة لعثمانية والشرق العربى، ص ١٠٥.

(3) Shaw, op. cit., p. 77.

(٤) محمد أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(5) Shaw, op. cit., p. 77.

الأناضول، فأرسل مئات من الدعاة نجحوا في نشر رسالته بين الرعاة. والحقيقة أن العثمانيين نظروا إلى المذهب الشيعي على أساس أنه تهديد سياسي، وعارضوا الصفويين ليس فقط بسبب خطرهم الحربي، بل أيضا لأن المذهب الشيعي كان يمثل تحديا خطيرا للمذهب السني الذي يمتنعه الأتراك^(١).

وقد عارض السلطان بايزيد الثاني القيام بهجوم واسع ضد الشاه إسماعيل الصفوي، إما لتعاطفه الخاص مع التعاليم الغامضة التي كان ينشرها الدعاة الشيعة، أو لرغبته في تجنب الحرب قدر الإمكان، أو لخوفه من أن الدعوة الصفوية من الممكن أن تغري عددا كبيرا من مقاتليه على اعتناقها. ولذلك تمهل بايزيد ودخل في مراسلات مع إسماعيل، على أمل إقناعه بالتخلي عن المذهب الشيعي، وإنهاء مساعيه الرامية إلى نشره^(٢). وفي سنة ١٥٠٨ استولى إسماعيل على بغداد ومعظم جنوب غربي إيران، وأجرى مذابح واسعة ضد المسلمين السنيين، وهدم مساجدهم وقبورهم. ونلاحظ أن بايزيد الثاني لم يبد أي رد فعل إزاء ما فعله الشاه إسماعيل إلا أن طلب إيقاف مثل هذه الممارسات، في الوقت الذي طلب بايزيد المساعدة من المماليك في مصر، ولكنهم لم يفعلوا أكثر من إصدار الأمر لثائب حلب لمقاومة النشاط الصفوي إذا دخل قيليقية. كما طلب بايزيد الثاني المساعدة من دولة أذربك في خراسان، باعتبارها قوة رئيسية وليدة، فقامت بعدة هجمات شغلت الصفويين بقية عهد بايزيد^(٣).

وعلى الرغم من الهجمات التي شنتها دولة أذربك ضد الصفويين، فقد استمر الدعاة الصفويون في نشاطهم بين تركمان الأناضول، وبخاصة في منطقة «تكة» في الجنوب الغربي، حيث كان نفوذ الصفويين قويا باستمرار. وتمكن أحد خلفاء الشاه إسماعيل. ويدعى شاه قولو من استغلال امتيائ التركمان الواسع في القيام بثورة كبرى في أنطاليا في ربيع عام ١٥١١م، وحصل على مئادة الآلاف من العشائيين الذين جرى إرصالهم لإخمادها. وأرسل شاه قولو دعائه إلى داخل الأناضول، وهناك وصفوه بالمهدي المنتظر

(1) Shaw, op. cit., pp. 77-79.

(2) Ibid., p. 78.

(3) Ibid., p. 78.

الذى أرسله الله لإنقاذ البشرية. وفي الوقت الذى كان فيه بايزيد مشغولاً بالصراع الذى نشب بين أبنائه، استولى شاه قولو على معظم وسط وجنوب شرقى الأناضول، وانسحب بايزيد وانتابه المرض، وأرسل جيشاً من الإنكشارية بلغ عدده ثمانية آلاف مقاتل بقيادة الوزير الأعظم على باشا، واستطاع هذا الجيش أن يوقع الهزيمة بشاه قولو، الذى لقي مصرعه بهم أصابه صدفة بالقرب من قيصريّة فى أغسطس عام ١٥١١م، وفر من تبقى من القيزلباش إلى إيران، حيث ظل الصفويون مسيطرين عليها، وصاروا مصدر إزعاج مستمر فى عهد خلفاء بايزيد الثانى^(١).

وفى عهد بايزيد الثانى بدأت أول علاقة مع روسيا، بعد أن تمكن دوق موسكو إيثان الثالث من توحيدها بعد امتيلاء المغول عليها. وبدأت هذه العلاقة سنة ١٤٩٢، حيث وصل إلى استانبول سفير روسى ومعه الهدايا، كما حضر سفير آخر بعد أربع سنوات وحصل على بعض الامتيازات التجارية^(٢).

واعتنى بايزيد الثانى بإنشاء المباني العامة الفخمة، وإنشاء شبكة الطرق والجور. ومع أن هذه الشبكة أنشئت فى المحل الأول لأغراض عسكرية، فقد سمرت حركة المواصلات العامة وأُسِّت إليها خدمة جليلة أيضاً. بيد أن أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذى شيده ما بين سنة ١٤٩٧ وسنة ١٥٠٣. ويمتاز هذا المسجد بفخامة مواد البناء، وبزخرفته على الطريقة الفارسية. وتحيط به من جهاته الأربع عقود محددة مصنوعة من الرخام الأبيض والأسود على التعاقب، نامضة على أعمدة ثمانية من الشب والممرم الأخضر فوقها سقائف مقببة، وفى الوسط صحن كبير، وله أربعة أبواب، ومآذن ترتفع على أجنحة مستقلة^(٣).

وكان بايزيد الثانى يقرأ بدقة كل مؤلف جديد يهدى إليه، ويكافئ المؤلف مكافأة تتفق وقيمة الكتاب كما جرت عن التأليف، ويقابل المؤلفين ذوى الكتب القيمة، كان عادلاً ووفياً ومنصفاً. وقد كتب الدبلوماسى الشهير أندريه جريتى Andrea Gritti الذى كان سفيراً للبنديقية على أيام بايزيد الثانى يصف السلطان فى رسالته السرية التى أرسلها إلى

(1) Ibid., p. 78.

خليل إنالجيک: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٤.

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٤٤.

مجلس الأعيان يقول: «قامت أطول من المتوسطة.. لا يتعاطى الشراب، أبداً.. يأكل قليلا، يسر جداً لركوب الخيل.. أحب شئ إلى الصيد ورياضات الفروسية. يعظم الشعائر الدينية ويتصدق كثيراً، يهتم بالفلسفة وعلوم الفلك.. وعدا الوقت الذى يقضيه فى الاطلاع، فإنه يخصص وقتا طويلا للاهتمام بأمور إصلاح جيشه وتنميته، زاد عدد الإنكشارية، وجهز جيشه بالأسلحة الحديثة والناارية، وأجرى إصلاحا جنيريا خاصة بالنبة للمدفعيين ونقله المدافع. وخیالته وأسطوله هما للذان حققا الأحداث، الخارقة التى شهدناها...»^(١).

السلطان سليم الأول: (١٥١٢ - ١٥٢٠):

من الأسباب التى أدت إلى فشل السلطان بايزيد الثانى فى الضغط على الصفويين بصورة حاسمة، ومواصلة انتصاراته بعد الانتصار الذى أحرزه ضدهم فى قيصرية، هو ظهور المنازعات الخطيرة بين أبنائه من أجل السلطة والوصول إلى العرش، وهو بعد على قيد الحياة. وكان السلطان بايزيد الثانى قد أنجب ثمانية أولاد، توفى خمسة منهم وهو لا يزال على قيد الحياة، وبقي له ثلاثة أولاد هم: أحمد وقرقوت وسليم، وعين والدهم كلا منهم حاكما على إقليم من أقاليم الدولة. فعين أحمد حاكما على آماسيا، وعين قرقوت حاكما على صاروخان (مانيسا)، وعين سليم حاكما على طرابزون. وقد عرف إنه الأكبر أحمد وهو أحب أولاده إليه بأنه إدارى قدير، وبحب الناس له، وكان يفضل سياسة أيه الرامية إلى السلام وتوطيد الحكم، ولذلك حظى بتأييد معظم الإداريين، ولكن الإنكشارية كانت تعارضه بشدة بسبب الهزائم العديدة التى قاسوها تحت قيادته فى الأناضول^(٢). أما الإبن الثانى قرقوت فقد تربى فى بلاط جده السلطان محمد الفاتح، ودرس العلوم الإنسانية والشعر والموسيقى، الأمر الذى جعل العلماء يفضلونه سلطانا، ولكن قرقوت أظهر موهبة عسكرية محدودة فى أثناء الحروب التى خاضتها الدولة ضد شاه قولو. أما ثالث الإخوة الأمير سليم الذى كان أكثر قدرة فى شئون الحرب والقتال، فقد نال تأييد الإنكشارية وبكوات الحدود فى أوربا^(٣). وصفه أحد البنادقة فى هذه العبارة «إنه أكثر السلاطين قوة، ولم يكن يحلم إلا بالغزو والحرب». أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه

(١) بلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ٢١٢.

(2) Shaw, Hist. if Ottoman Empire., Vol. I., p. 78.

(2) Ibid., p. 78.

«ياوز» Yaouz أى السلطان الحاد الباتر العنيد، وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية^(١).

طلب الأمير سليم من والده أن ينقل من طرايزون على أساس أنه ظل يحكمها مدة طويلة من ناحية، ولوقوعها فى جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأسود من ناحية أخرى. وطلب أن ينقل إلى إحدى السنجقيات فى أوروبا. ورفض بايزيد الثانى طلب ابنه، فجمع سليم قواته واتجه بها إلى أدرنة ليستباحث مع والده الذى كان يقيم وقتذاك هذه المدينة. وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها إلى استانبول، فلتحق به سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية، وأصروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده. وفى ٢٥ أبريل سنة ١٥١٢ تنازل بايزيد عن العرش لابنه سليم، ثم غادر بايزيد استانبول متوجهاً إلى مسقط رأسه فى ديموثيقة، ولكنه توفى فى الطريق^(٢). وهكذا قام الإنكشارية بالدور الرئيسى فى خلع السلطان بايزيد الثانى لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التى اتبعها هذا السلطان فى معظم سنوات حكمه. وانتهزوا فرصة الصراع الذى نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش، فزجوا بأنفسهم من أجل تحقيق منافع لهم، لأنهم توسموا فى سليم الرغبة والمقدرة معاً على دفع عجلة الحرب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمى للدولة العثمانية^(٣).

وعندما ارتقى سليم العرش، كان فى الأربعين من عمره، وقد سبقته صحة يحد عليها، كان قد حصل عليها خلال سنوات حكمه لولاية طرايزون، فهو قائد حرى ممتاز، يقف بشخصه على رأس قواته، وهو إدارى نزيه وكفء، وهو منى لا يمكن الشك فى استقامة عقيدته، قليل الميل إلى الترف واللهو^(٤). وقد أبدى سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى سفك الدماء، ولذلك استحق فى التاريخ لقب «الشرس» The Grim. فاستهل عهده بقتل عدد كبير من إخوته، وما لبث فيما بعد أن قتل عدداً كبيراً من رعاياه وأقرب معاونيه، وأدى

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج١، ص ٥٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٥٠ - ٥٠٧.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص ٥٠٨.

(٤) جان لوى باكى جيراسون: أوج الإمبراطورية العثمانية (١٥١٢ - ١٥١٦)، فى تاريخ الدولة العثمانية، ج١، إشراف روبر مانتوان، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٢٠٧.

حبه لخوض المعارك. وفي الوقت الذي اتصف سليم بحيوية ذهنية وجسدية غير عاديين، فإنه كان لا يبدى أكثرنا بالمباهج الحسية ويفضل عليها الصيد. ولم يكن ينام إلا قليلاً، ممضياً قسطاً طويلاً من الليل في الإطلاع على الدراماس الأدبية، وكان الشعر الفارسي والتاريخ من أحب الأشياء إلى قلبه. ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة العلماء الذين كرمهم، ودفن كثيراً منهم لتولى وظائف عليا وهامة. وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكى أخبار الماضي^(١).

تولى سليم عرش الدولة العثمانية، حاملاً معه طموحاته الرامية إلى إعادة سياسة السلطان محمد الفاتح النشطة في الغزو، وتحقيق وجود إمبراطورية عثمانية عالمية. ولذلك قرر سليم أن يعتمد على الإنكشارية الذين مائندوه، ويفضل قوتهم في امتثالهم وصل إلى العرش، فزاد أعدادهم إلى خمسة وثلاثين ألف، وزاد رواتبهم، وأغدق عليهم الهبات والهدايا^(٢).

وبعد أن تأكدت سيطرة سليم الأول على الحكومة في خلال أشهر قليلة من اعتلائه العرش، كانت المشكلة الصعبة التي واجهته هو التخلص من إخوته بمرض تأمين الدولة. فحاول في البداية استرضائهم، فسمح لأخيه قرقوت بالعودة إلى صاروخان (مانيسا)، وأعطى لأخيه أحمد حكم قونية. ولكن أحمد أراد أكثر من ذلك، وأعلن نفسه سلطاناً على الأناضول، وأرسل ابنه الوحيد علاء الدين للاستيلاء على بروسة ليتخذها عاصمة له في منتصف يونيو عام ١٥١٢م. ونتيجة لذلك قرر سليم أن يقوى نفوذه، وذلك بإبعاد كل إخوته وأبنائه، فيما عدا سليمان الذي اختاره خليفة له^(٣).

على أن ثورة أحمد تفاقمت وبلغت حداً بعيداً من الخطورة، بصورة فاقت ثورة جم. ففي ١٨ يونيو استولى علاء الدين على بروسة، وبدأ في جمع الضرائب من الأهالي. وعندما علم سليم بذلك عبر الأناضول على رأس جيش كثيف، وهناك حصل على

(1) Schevill, op. cit., p. 212.

أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق. ص ٧٦.

(2) Shaw, Hist of Ottoman Empire., pp. 79-80.

(3) Ibid., p. 80.

مساعدة صخمة مكنته من إجبار أخيه أحمد وأتباعه على الهرب إلى قيليقية في صيف سنة ١٥١٢م^(١).

وبما يذكر أن بعض أنصار أحمد أشاروا عليه بالحصول على مساعدة الصفويين ضد سليم الأول، ولكن أحمد كان يخشى الشيعة بشدة، وفضل طلب المساعدة من المماليك في مصر بدلا من الصفويين الشيعة. وفي الوقت الذي بدأ أحمد في إجراء المفاوضات مع المماليك من عاصمته الموقنة في أماسيا، توغل سليم في بلاد الأناضول وقتل كل أبناء إخوته، وقتل كذلك قرقوط^(٢). وكان قرقوط يكبره بثلاث سنوات وأحب إخوته إليه، وقبل أن يغادر قرقوط إستانبول مترجها إلى أنطالية أقسم على عدم مطالبته بالسلطنة في أى وقت من الأوقات. وأراد سليم التأكد من نية أخيه، فطلب إلى الوزراء أن يحرقوا رسائل بأسمائهم ترغبه في السلطنة، فتورط قرقوط ورد على تلك الرسائل المزيفة بالموافقة، فما كان من سليم إلا أن ألقى القبض على أخيه، وأعدمه في ١٧ مارس سنة ١٥١٣، قبل إعدام أحمد ثمانية وثلاثين يوما^(٣). ولا شك أن الأسلوب العنيف الذي اتبعه سليم في التخلص من كل أقاربه، أدى إلى تخلي أنصار أحمد عنه، وجعله لا يحصل على أية مساعدة، وكان أن شن سليم هجوما ضد أخيه، ولقى أحمد هزيمة ساحقة في ينى شهر في ١٥ أبريل عام ١٥١٣، وجرى إعدامه بخنقه بالقرص والوتر، وبذلك أكد سليم حكمه، ولم تعد هناك أية عقبات أخرى تقف في طريقه^(٤).

الحرب ضد الصفويين:

وبعد أن تخلص السلطان العثماني سليم الأول من إخوته وأبناء إخوته، حول أنظاره نحو الشاه إسماعيل الصفوى. وكان المماليك في مصر قد انزعجوا من خطورة التهديد الصفوى لممتلكاتهم في بلاد الشام والحجاز، فمقدروا تحالفا مع العثمانيين ضد إسماعيل في عام ١٥١٣، وبذلك تركوا السلطان سليم طليق اليدين في جمع كل قواه ضد الصفويين، دون أن يخشى احتمال الهجوم على جناحه الجنوبي^(٥). وقد بدأ سليم

(1) Ibid., p. 80.

(2) Ibid., p. 80.

(3) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ٢١٤.

(4) Shaw, op. cit., p. 80.

(5) Ibid., p. 80.

بالحصول من شيخ الإسلام صاري جوريز، وهو أعلى مرجع ديني في الإمبراطورية العثمانية، على فتوى تخرج الشاه إسماعيل وأتباعه من الجماعة الإسلامية، لأنها تجيز الأجهاز عليهم حتى آخر رجل، واسترقاق نساءهم وأطفالهم، ومن ثم فإن هذه الفتوى تضيء الشرعية على الدخول في حرب ضد الشاه، كانت الاستعدادات لها قد بدأت على قدم ومساك^(١). ولا شك أن الجيش الذي جهزه سليم في ربيع عام ١٥١٤ كان واحداً من أقوى جيوش عصره، من حيث عدد الجنود ونوعية الأسلحة النارية، وكذلك من حيث كفاءة من يستخدمونها، أما قوات الشاه، فهي تضم وحدات فرسان أقل عدداً، لكنها فعالة بشكل رهيب، وإن كانت بلا مدافع ولا بنادق^(٢).

وقبل أن يزحف سليم بجيشه تجاه الشرق، قام بذبح آلاف من أتباع القزلباش في الأناضول، وفي شهرى أبريل ومايو عام ١٥١٤، واصل سليم هجماته العنيفة ضد إسماعيل، متخذاً من ذلك ذريعة للقضاء على كل المعارضين لحكمه. وقد واجه سليم مشكلة توفير المؤن لجيشه، وخاصة عندما رفض صاحب إمارة دلفاغر تقديم المساعدة، خوفاً من أن حدوث انتصار عثماني على الصفويين، سيتبعه زوال إمارته^(٣).

وبينما كان العثمانيون يتحركون خلال ولايتي أرزنجان وأرندروم في أعالي نهر الفرات، تجنب الصفويون الدخول معهم في معركة مفتوحة، لمعرفتهم بتفوق قوات سليم الحربية، وعزموا على سحب السلطان إلى مناطق شمالي إيران الجبلية، حيث تمكنهم مشاكل التضاريس الوعرة والمؤن من جعل قوة الجيشين متوازنة. وفي أثناء تراجع الصفويين طبقاً للخطة التي وضعوها، أحرقوا الأرض وأتلفوها، لكي يمنعوا العثمانيين من الحصول على المؤن التي كانوا في أشد الحاجة إليها^(٤). وعلى الرغم من التذمر الذي انتشر وسط جنود السلطان سليم وخاصة الانكشارية، فقد واصل سيره إلى الإمام، وأعلم كل الجنود والقيادات الذين تراجعوا عن السير معه. وفي منتصف أغسطس سنة ١٥١٤ قرر السلطان الزحف مباشرة على تبريز، ليحجر الشاه إسماعيل على الدخول معه في معركة للدفاع عن

(١) جان لوى باكي جرامون: «أوج الإمبراطورية العثمانية»، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١١.

(3) Shaw, Hist. of Ottoman Empire., p. 81.

(4) Ibid., p. 81.

عاصمته. وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة في سهل جالديران (تشالديران) في منتصف الطريق بين تبريز وبحيرة أرمية - في ٢٠ رجب سنة ٩٢٠هـ (٢٣ أغسطس ١٥١٤)، حيث انهزم المماليك في أول الأمر، ولكنهم سرعان ما حققوا انتصاراً حاسماً، وقتلوا الآلاف من رجال قبائل القيزلباش، وجرح الشاه إسماعيل الصفوي، ولم يتطع الفرار إلا بصعوبة بالغة^(١). غير أن الانتصار المماليكي لم يتكامل بعمل لإسقاط الدولة الصفوية، إنما اقتصر على جعلها في موقع دفاعي، ومب تراجعا واسعا لأنشطتها داخل الأناضول.

وبعد أن استولى سليم على تبريز أرسل الآلاف من تجارها الكبار والصناع والعلماء إلى استانبول. غير أن سليم قرر مغادرة المدينة، خوفاً من عدم توفير المؤن اللازمة لجيشه قبل أن يأتي فصل الشتاء، وتراجع إلى قره باغ في القوقاز، وهو المكان المفضل للقبائل الرعوية لجنكيزخان وبيمور لك، على أمل الرجوع في العام التالي لاستكمال غزو إيران. ولم يلبث الشاه إسماعيل أن استرجع تبريز مرة أخرى، في الوقت الذي أرغمت مشاكل التموين وهبوط الروح المعنوية في جيش سليم على سحب جيشه، والعودة إلى الأناضول، بعد أن أودى هجوم الشتاء القارص بحياة الآلاف من جنده. وقد انسحب سليم راجعا في أكتوبر سنة ١٥١٤م، بعد أن تأكد أنه سوف لا يكون قادراً على العودة لمحاربة الصفويين إلا في الربيع وفقاً لما خططه، وفي أثناء تراجعه أخذ السباهية الإقطاعيون يعودون إلى أراضيهم^(٢).

وأخيراً وصل سليم الأول إلى أماسيا بآسيا الصغرى في ٢٤ نوفمبر سنة ١٥١٤، وأعاد معظم الإنكشارية إلى استانبول لقضاء فصل الشتاء تجنبا لنشوب منازعات فيما بينهم. وفي تلك الأثناء أتى وفد من الشاه إسماعيل الصفوي لعرض اقتراحات السلام على السلطان، ولكن الأخير رفض عرض إسماعيل ووضع الوفد في السجن. وعندما سمع الإنكشارية الذين تخلفوا في أماسيا بما حدث من السلطان، ثاروا في ٢٢ فبراير سنة ١٥١٥، فعاملهم السلطان معاملة قاسية، وعزل الوزير الأعظم أحمد باشا وأعدمه في ١٥ مارس من نفس العام، بسبب فشله في إحكام قبضته على الإنكشارية، والحفاظ عليها منضبطة وعلى أهبة الاستعداد. ولم يكف سليم بذلك، بل تخلص من قادة الإنكشارية الذين لم يرغب في

(1) Ibid., p. 81.

(2) Ibid., p. 81.

بقائهم، وعين بدلا منهم قادة مقربين إليه، وكان غرضه من ذلك أن يجعل الانكشارية أداة لقوته^(١).

وعلى الرغم من أن الشاه إسماعيل الصفوي استرجع تبريز وآذربيجان، فإن العثمانيين أكدوا هيمنتهم على أرزنجان وبايسورت Bayburt، وقللوا الضغط الصفوي في تلك المناطق. وقد سبقت الإشارة إلى أن إسماعيل تجنب القتال مع العثمانيين. وفي خلال بقية القرن السادس عشر وشطراً كبيراً من القرن السابع عشر، لجأ الصفويون في حروبهم مع أعدائهم إلى أسلوب إتلاف الأرض، واعتمدوا على سوء الطقس ونقص المؤن، وإجبار العدو على التخلي عن زحفه. وما يجدر ذكره أن موقعه جالديران جعلت إسماعيل يفقد نفوذه، وأدت إلى قيام المنازعات بين المجموعات القبلية المختلفة حول السلطة، واستمرت تلك المنازعات في عهد ابنه وخليفته طهماسب. وأصبح من الصعب على الصفويين أن يركزوا دعائهم للمذهب الشيعي في الأناضول^(٢).

ولتقوية النفوذ العثماني في شرق الأناضول، أنشأ السلطان سليم ولاية حدودية أسند قيادتها إلى بيك محمد باشا Biyikh Mehmet Pasa، وعهد إليه سليم بحق المساندين المتبقين للصوفييين، وغزو المناطق الباقية الواقعة خارج السيطرة العثمانية. فاستولت حملة ضخمة على قلعة كماخ الواقعة على حافة تطل على نهر الفرات بالقرب من أرزنجان، حيث اعتاد القيزلباش تهديد المواصلات بين سيواس وأروزمروم. وقد أدت الأعمال الحربية التي قام بها سليم للإستيلاء على ما تبقى من الأناضول، إلى تحالف حاكم إمارة دلفنار والمماليك والصفويين ضده، ولكن أيا منهم لم يجرؤ على رفع السيف علنا في وجه سليم، الأمر الذي جعله يقضى على المتحالفين ضده الواحد بعد الآخر. وقد بدأ سليم حملته بالقضاء على إمارة دلفنار، حيث ألقي هزيمة ساحقة بجيشها في تورنا داغ Turna Dag في ١٢ يونيو عام ١٥١٥م، وأعدم أعضاء الأسرة المالكة، وبذلك سيطر سليم على قبليقية، وتأهب لمواجهة المماليك^(٣). لم تقدم سليم صوب كردستان، وهناك أعلن زعماء الأكراد ولاءهم له، فسمح لهم بالتمتع بالاستقلال الذاتي، في نظير أن يقدموا له المساعدة المالية

(1) Ibid., pp. 81-82.

(2) Ibid., p. 82.

والحربية من ناحية، وأن ينشروا الدعاية العثمانية والمذهب الدني في أنحاء منطقة كرمستان^(١).

وعلى الصعيد الاقتصادي، فقد كان لضم مناطق شرقي الأناضول أهمية عظيمة للدولة العثمانية، حيث أصبحت منذ ذلك الحين تسيطر سيطرة تامة على طرق التجارة الدولية التي تأتي بحريو إيران وغيره من منتجات الشرق الأخرى، من تبريز إلى حلب وبروسه، الأمر الذي عاد يدخل عظيم على الخزينة العثمانية^(٢). وأخيرا يسيطر السلطان سليم على وصول الممالك لمصادر الرقيق الرئيسية في القوقاز من ناحية أخرى^(٣).

العثمانيون والممالك:

لما تولى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية، خرج عن السياسة الأوربية التي سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين، فتوقف عن الزحف الغربي والتوسع في أوروبا على حساب القوى المسيحية المجاورة، واتجه بغزواته ناحية الشرق الإسلامي على حساب الدول الإسلامية المجاورة. وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الظاهرة، فيرى البعض أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وأنه كان عليها في أوائل القرن التالي البحث عن ميادين جديدة للتوسع، في حين يرى البعض الآخر أن الأحداث التي دارت داخل الشرق الإسلامي أو حوله في أوائل القرن السادس عشر هي التي جذبت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى الشرق الإسلامي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة، والمقصود هنا بأحداث الشرق الإسلامي هو الزحف البرتغالي على حدود الشرق العربي ومناطفه البحرية، وأن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفاً لحماية الشرق الأدنى الإسلامي من الخطر البرتغالي^(٤). وبمباراة أخرى، فقد أعلن العثمانيون أن هدفهم من التحرك صوب الدولة المملوكية، هو حماية الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامي من

(1) Ibid., p. 82.

(٢) خليل إيتالبجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٧.

(3) Ibid., p. 83.

(٤) محمد أيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٥١٩)، ص ١٠٢ - ١٠٣، محمود الحصري: مصر في المصور الوسطى، ص ٢٧٦.

هجمات البرتغال، الأمر الذى عجز عن تحقيقه الممالك، وبذلك يكون تحرك العثمانيين ناحية الشرق بهدف الغزو والجهاد حماية لأرض الإسلام^(١).

والحقيقة أن الازدهار الذى نعمت به مصر فى عصر دولة المماليك، تعرض لخطر أديبى جديد قبل أن يشرف القرن الخامس عشر الميلادى على نهايته. ذلك أن فكرة الحروب الصليبية فى هذا القرن قد تطورت، فبدلاً من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إذا بها فى القرن الخامس عشر توجه إلى توسيع نطاق تلك الحروب، وذلك بتطويق المسلمين من الأمام والخلف. ووجه الأهمية هنا أن الطريق إلى تحقيق هذا الهدف لم يكن معروفاً، ويطلب جهوداً متواصلة لاكتشافه. ومن ثم كانت النزعة الاستعمارية هى القاعدة العريضة التى قامت عليها الكشوف الجغرافية فى أواخر العصور الوسطى^(٢). وفى هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبي، وشجعها البابوات على أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف، وتحطيم سيطرتهم على تجارة الهند التى تمثل المنبع الرئيسى لثروتهم وريختهم^(٣).

وفى هذه المرحلة من مراحل الحركة الصليبية تبرز شخصية الأمير البرتغالى هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠) فى صورة الفارس الصليبي. ومن المعروف أنه كان رئيساً لمنظمة المسيح، وهى منظمة صليبية كان هدفها القضاء على المسلمين^(٤). كما كان رئيساً لطائفة اليسوعيين (الجزويت) التى ورثت منظمة الداوية فى أملاكها، وبالتالى كان يهيم العمل على كسب أراضى جديدة للمسيحية على حساب المسلمين^(٥).

وعلى أية حال، اشتدت رغبة البرتغال فى الوصول إلى الهند، نتيجة لاتساع نفوذ الأتراك العثمانيين وسيطرتهم على أعالي الفرات والقمطنطينية من جهة، ولتحكم مطلقة

(١) خليل إينالليك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٧.

(٢) محمود الحورى: ساحل شرق أفريقيا من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٦٨.

(٣) نفس المرجع والمكان.

(٤) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٥٩ (القاهرة ١٩٧٥).

(٥) Prestage (Edgar), The Portuguese Pioneers (London, 1933), pp. 28-30.

الممالك في طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى^(١)، في الوقت الذي اشتدت مخاوف البرتغال من النجاح الذي أحرزه الأسبان في كشفهم البحرية في غرب المحيط الأطلسي. ولذلك عهد ملك البرتغال عمانويل الأول (١٤٩٥ - ١٥٢١) إلى فاسكو دى جاما بقيادة حملة بحرية بهدف الوصول إلى الهند بحراً، والتأكد من أن مدينة «سفالة» الواقعة في ساحل شرق أفريقية، هي فعلاً «أرض الذهب الذي لا ينضب»^(٢).

ويذكر المؤرخ البرتغالي جونا دوس دى ياروس أنه بعد أن استعدت الحملة للإبحار استدعى الملك عمانويل قائد الحملة وضباطها لحضور احتفال أقيم لهذا الغرض، وأعلن بحضور بعض كبار الشخصيات البرتغالية أن هدفه الأساسي من الوصول إلى الهند هو نشر الديانة المسيحية والسيطرة على ثروات الشرق. ثم قام الملك بتسليم فاسكو دى جاما راية من الحرير الأبيض عليها صليب منظمة المسيح الدينية. وهنا أقسم فاسكو أنه سيرفع تلك الراية عالية خفاقة أمام المسلمين والوثنيين، ومسيحيها ويدافع عنها حتى الموت^(٣).

وفي ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨، بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور، تمكن فاسكو دى جاما من الطواف حول أفريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى كاليكوت أهم موانئ ساحل ملبار الهندي، وبذلك حقق البرتغاليون إنجازاً عالمياً جديداً. وبعبارة أخرى، فإن وصول فاسكو دى جاما إلى الهند، يمثل تحولاً بارزاً في تاريخ التجارة الشرقية. إذ كانت حاصلات الشرق تصل إلى أوروبا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار في مصر المملوكية، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى البنادقة بأسعار مرتفعة، وقد عادت تلك التجارة في تلك الحاصلات على مصر والبنديقية بأرباح طائلة. وهكذا ذهبت حصيلة الضرائب التي كان سلاطين الممالك يحصلون عليها وأدت إلى ثرائهم من ناحية، واستمدوا منها أسباب قوتهم وعظمتهم من ناحية أخرى^(٤).

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج ١، ص ٥٥٩ - ٥٦٠.

(2) Oliver (R.), Mathew (G), Hist of Africa (Holland, 1976), p. 134.

(3) Prestage, op. cit, pp. 251-252

محمود الحوري: ساحل شرق أفريقية، ص ٧٤ - ٧٥.

(٤) هاید: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ٤، ٤، ٥، محمود الحوري: المرجع السابق، ص ٧٤ - ٨٦.

وعبثا حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين في الهند وتهديد سفنهم التجارية، فدخلت في حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة وتخطيم أسطولها في معركة ديو البحرية في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩، فلم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة، وتدهور مركزها الاقتصادي، ولم تعد موقعا عالميا للتجارة بين الشرق والغرب، ولم تمض على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة في أيدي العثمانيين.

وفي تلك الأثناء، كان العثمانيون يمتلكون أفضل مدفعية في العالم، فقد استخدمت جيوش السلطان سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجز الواحد منها زوج من الثيران^(١). ولم تكن مصر قد أدركت حتى السنوات الأخيرة من دولة المماليك حاجتها لاستخدام الأسلحة النارية، ورجع السبب في ذلك إلى أنه لم يكن ثمة تهديد خارجي على مصر يدفعها إلى طلب هذا السلاح من أوروبا التي كانت على اتصال دائما بها. ثم إن قرية مصر لم تكن تتطوّر على المعادن الأساسية لصنع المدافع، فضلا عن تدهور الأوضاع الاقتصادية في مصر نتيجة القحط والأوبئة والجماعات وثورات المماليك الجلبان والعربان. وعلى الرغم من ذلك، فقد استخدمت الأسلحة النارية على عهد السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦). ولكن المماليك عجزوا عن استخدامها بكفاءة، وبخاصة أنهم عهدوا بها إلى وحدات أقل شأنا من الناحية الاجتماعية، على حين بقى القسم الأكبر من المماليك الأصلاء بعيداً عن استخدامها^(٢).

وقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان العثماني سليم الأول بدأ بمحاربة الدولة الصفوية الشيعية بفارس، لكي يقضى عليها وعلى مذهبها الشيعي. وبمقتضى رسالة في مايو سنة ١٥١٤ إلى السلطان قانصوه الغوري يوضح له فيها نواياه ضد فارس، وما يعتزم القيام به ضد الشيعة. فقرر الغوري إرسال جيش يربط في حلب دون أن يتدخل في النزاع الفارسي العثماني، ويرقب ما يسفر عنه النزاع^(٣). ولم يلبث السلطان سليم أن استطاع بقواته

(١) إيفانوف (نيقولاي): الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤م، ترجمة يوسف عطا الله،

مراجعة د. محمود ضاهر (بيروت ١٩٨٨)، ص ٦٠.

(٢) محمود العمري: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٧٧.

(٣) بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

الضخمة ومدافعه أن يحقق انتصاراً كبيراً على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران فى ٢٣ أغسطس ١٥١٤، ودخل تبريز عاصمة فارس الشيعية فى ٥ سبتمبر من نفس العام^(١). كما اكسح ديار بكر والرها ونصيبين والموصل وغيرها، واستولى على إمارة دلفادر وعاصمتها الأبلستين المشمولة بحماية المماليك. وبعد هذه الانتصارات التى حققها سليم الأول، وجه اهتمامه شطر بلاد الشام التى كانت جزءاً من دولة المماليك الجراكسة، وأصبحت الحرب لا محالة واقعة بينه وبين السلطان الفورى.

وبرى البعض أن الصراع العثماني الصفوى هو الذى جعل سليم يقرر الاستيلاء على الأراضى للملوكية لأمباب استراتيجية، إذ أن سيطرته على موانئ قيليقية من شأنها أن توفر له طريقاً بحرياً يسهل عليه تموين حملاته القادمة ضد الصفويين بصورة أجدى مما كان عليه الحال خلال الحرب السابقة^(٢). على حين يرى البعض الآخر أن الصراع العثماني الصفوى لم يكن السبب المباشر فى النزاع المملوكى العثماني، وإن كان عاملاً مباشراً للتجويل به، أما السبب الحقيقي فهو التنافس على السيادة العليا على العالم الإسلامى^(٣).

وعلى أية حال، إتخذ السلطان الفورى عدة إجراءات، فتحالف مع إسماعيل الصفوى، كما آوى الأمير قاسم العثماني ابن أخى السلطان سليم، الذى فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو قاسم وأخو سليم)، واتخذ منه أداة للتهديد^(٤).

وانتشرت الأخبار فى القاهرة فى أوائل عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦) بأن السلطان سليم يحشد الجنود ويجرى الاستعدادات الضخمة لمداخمة الصفويين براً وبحراً، ولكن السلطان الفورى لم يصدق أن هذه الاستعدادات من أجل الصفويين، وأن الهدف الحقيقى لها هو السلطنة المملوكية. ولم يضع الفورى وقتاً، بل سرعان ما بدأ فى الاستعداد الحربى، وساء موقف المماليك الجلبان وعدم تقديرهم للخطر المحدق، فأنبههم بقوله: «لا تسمتوا العدو فينا، وابن عثمان متحرك علينا، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب».

(١) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثماني، ص ٨٣.

(٣) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٧٥.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

ولكن دولة المماليك الجراكمة آنذاك كانت تمر بمرحلة ضعف شديد، فقد انهك المماليك الجلبان في العبث والفساد، وأخذوا ينهبون الدكاكين في القاهرة، وتعرضوا للناس بالضرر والأذى، ولم يلم السلطان الغورى من مضايقاتهم، بل أخذوا يطالبونه بنفقاتهم، حتى ضاق به الأمر، «وسكى حتى أغمى عليه ورشوا على وجهه الماء، وهو يقول: «ما بقى لى حاجة بسلطنة، فأرسلونى أى مكان تختارونه»^(١). والواقع أن الحماس لم يعد يملأ نفوس الجراكمة للدفاع عن مصر، إذ كانوا يرون أن السلطان العثماني سليم الأول طالما أنه لم يقوم بغزو الأراضي المملوكية، فليس ثمة داع للحرب أو تبريرها Casus belli. ولكن السلطان الغورى لم يأخذ برأيهم، فأعلن عن عزمه التحرك إلى بلاد الشام لإيقاف سليم الأول عند حده، سواء كان ذلك مسلحاً أو حرباً. وكان أن جهز الغورى حملة ضخمة كانت تفتقر إلى النظام والتماسك، كما أن تمويلها كان عبثاً ثقيلاً على الأهالى، فقد سبب تمرين الجيش شبه مجاعة بين الأهالى، وانتشر الفلاء، وانتزعت الدواب من الطواحين، واختفى الخياطون والتجار، خشية أن تنهب بضائعهم أو يقدمون أموالاً للمماليك أو القيايم بخدمات إلزامية، فى حين احتجب العبيد خوفاً من استخدامهم فى جر الأنقال. وكانت الخزانة المملوكية خاوية، فرواتب ضباط الجيش آنذاك كانت لا تعتمدى ثلث أو سدس ما كان يدفع لهم منذ عهد السلطان قايتباى. وفرضت حكومة المماليك على الأهالى ضرائب ثقيلة لتمويل نفقات الحرب لم يمهدها من قبل، فى الوقت الذى كان على كل قرية صغيرة أن تمد الحملة بفرسين، والتزمت كل مدينة بتسليم أربعة خيول. ولم يكن باستطاعة الفلاحين أن يتحملوا ذلك، فهربوا تاركين محاصيلهم وهجروا قراهم. وجرى تخفيض قيمة العملة لتمويل الحملة، أما أولئك الجنود الذين سيبقون بمصر بعد خروج الحملة، فلم يتسلموا رواتبهم^(٢).

وبينما كان السلطان الغورى يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبتة على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد

(١) بدائع الزهور، جـ ٤، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) نفس المصدر، ج ٥١، ص ٢٨، ٣١.

Stripling (George William Frederick, The Ottoman Empire and the Arabs. 1511-1574 (U.S.A., 1977), pp. 40-41.

العثمانيين، وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب يذكر فيها أن السلطان سليم بنوى مهاجمة الشام إسماعيل الصفوري، وأن الشام يتعد لمقابله^(١). والحقيقة أن خاير بك كان على اتصال بالسلطان سليم، وقد أراد برسلته هذه تشبيط همّة الصفوري وصرفه عن الاستعدادات القائمة^(٢). وقد بدأت اتصالات خاير بك بالعثمانيين منذ عهد السلطان بايزيد الثانى. ثم وصلت رسالة أخرى من سيباي نائب الشام - وهو لقب حاكم دمشق - لتدعيم خيانة خاير بك، إذ حدث أن اتصل خاير بك بسيباي وأقنعه بأن العثمانيين لن يفكروا فى محاربة المحاليلك، وطلب إليه أن يكتب إلى الصفوري بذلك من جهته، فكتب سيباي وذكر كذلك أن هناك غلاء بالشام وأن الزرع لم يحصل بعد، وأن العدو لم يتحرك بعد، ولاداعي لسفر السلطان وإن كان عدو متحرك فتحن له كفاية^(٣).

بيد أن السلطان الصفوري لم يأخذ بكلام الخائن خاير بك واستمر فى استعداداته، وحشد جيوشه فى الريدانية (شمالى القاهرة بين المطرية والجبل الأحمر)، استعداداً للخروج إلى الشام، وتحسباً لأية مفاجآت قد تصدر عن العثمانيين. وفى أثناء وجوده بالريدانية وصلت رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب، ومع تلك الرسالة رسالة من السلطان سليم موجهة إلى السلطان الصفوري مليقة بالألفاظ الرقيقة والتواضع الجرم، وتقول فيها السلطان -سليم: «أنت والدى وأسلك الدعاء، ولئى مازحفت على بلاد علاء الدولة (دلخادر) إلا بإذنك، وكان قتله عين الصواب، وأما التجار الذين يجلبون المحاليلك الجراكسة فإنى ما منعتهم، وإنما هم تضرروا من معاملتكم (العملة أو النقود) فى الذهب والفضة، فامتنعوا عن جلب المحاليلك إليكم، وأن البلاد التى أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم، وجميع ما ترونه ويرده السلطان فعلناه»^(٤). ويعلق ابن إياس^(٥) على رسالة العثماني بقوله: «وكان هذا كله حيلة وخداعاً من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد».

(١) سعيد عاشور: العصر المملوكى، ص ١٨١.

(٢) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المحاليلك الجراكسة، ص ١٧٦.

(٣) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٢٦.

(٤) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٤٥.

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

وعلى أية حال، خرج قنصوه الغورى على رأس جيش كثيف، بعد أن أناب عنه فى السلطنة أثناء غيابه الأمير طومان باى، فوصل فلسطين، ومنها إنجه إلى حلب، قبلها فى ١٠ جمادى الثانية سنة ٩٢٢هـ (يوليو ١٥١٦)، وهناك ألحق جنده الأذى بأهلها، وعاثوا فيها فساداً، «وأخرجوا الناس من بيوتهم، وسبوا حريمهم وأولادهم، وآذروهم الأذى البالغ، وكان ذلك سبباً لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكمة، لشدة ما حل بهم من الشر منهم»^(١). وفى حلب وصل رسولان من قبل السلطان العثماني لمفاوضة الغورى فى أمر الصلح، وإمعانا من الرسولين فى خداع الغورى قالوا له: «نحن قوض لنا أستاذنا الأمر، وقال مهما اختاره السلطان اقبلوه ولا تشاوروني». وقد فطن المؤرخ ابن يباس^(٢) إلى ما كان يرمى إليه سليم الأول من وراء سفارته، فردد ما قاله من قبل بقوله: «وكل هذا حيل وخداع حتى يطل السلطان (الغورى) عن القتال، ويشى عزمه عن ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد». وعلى الرغم من أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا، وأرسل بدوره للسلطان سليم رسولاً يؤكد رغبته هو الآخر فى الصلح، إلا أن سلطان الماليك كان يعرف ما يدور فى ذهن السلطان سليم، بدليل أنه جمع أمراءه - ومن بينهم خاير بك - وحلفهم جميعاً على ألا يخونوه ولا يقدر ون به، فحلفوا جميعاً.

غير أن السلطان سليم استقبل سفير الغورى أسوأ استقبال، إذ قبض عليه وكاد يفتك به لولا شفاعة بعض وزراء سليم، وقال له: «قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق». وعاد رسول الغورى إليه، ليخبره بما لقي من إهانة وإذلال، وأن جيوش العثمانيين تحركت فعلاً، واستولت على ملطية وكركر وبهنا وغيرها من القلاع. وفى ذلك الوقت أدرك سيبى نائب الشام أن خاير بك قد خدعه عندما استحثه على الكتابة للسلطان الغورى فى مصر يطمأنه من ناحية سليم. وهجم سيبى على خاير بك وأملك بتلايبيه صامحاً: «يا مولانا السلطان! إذا أردت أن تنتصر على عدوك يا ذن الله، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال»^(٣). ولكن خاير بك لم يكن وحده غارقاً فى الخيانة، إذ كان له شريك هو الأمير جان بردى الغزالى نائب حماه، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان بعدم السماع لتلك التهم، حتى

(١) ابن زبيل: آخره الماليك، تحقيق عبد المنعم هاجر (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٦٠.

(٣) ابن زبيل: آخره الماليك، ص ٢٥.

لايفت فى عضد سائر الأمراء، وبثرة الجهود فيما لايفيد، وتفرقة كلمة المماليك فى وقت بواجهون فيه عدواً مشتركاً. وهكذا ترك خاير بك حراً طليقاً ليتم الدور الثامن الذى بدأه.

وعلى أية حال، فقد تحرك قاصوه الغورى على رأس جيوشه لملاقاة سليم الأول فى ٢٠ رجب سنة ٩٢٢هـ (١٩ أغسطس ١٥١٦)، وفى صحبته الخليفة والقضاة الأربعة. وفى اليوم التالى وقف المماليك الجراكسة والعثمانيون وجها لوجه فى سهل مرج دابق. وهناك أشاع الغورى أن جيش العدو يضم فى صفوفه مسيحيين وأرمن وشعوباً أخرى بغينة. وكان الغورى يهدف بذلك إثارة الكراهية ضد العثمانيين بين صفوف جنده والشاميين المرافقين له، فضلاً عن إعطاء تأثير مفاده أن الحرب بينه وبين سليم الأول حرب مقدسة يخوضها المسلمون ضد المسيحيين^(١). وفى يوم ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ (٢٤ أغسطس ١٥١٦)، استمد العثمانيون لخوض معركة تعتبر واحدة من أهم المعارك التى خاضوها فى تاريخهم، ذلك أنهم لو حققوا انتصاراً على المماليك، فسيرفعون أيديهم عن حراسة الجزء الجنوبي الشرقى من آسيا الصغرى، ويفرغون لحروبهم فى أوروبا، فضلاً عن أن انتصارهم سيمتحنهم مكانة عالية فى بقية البلاد الإسلامية الأخرى^(٢).

وعند مرج دابق، أخذ السلطان الغورى يرتب عسكره بنفسه، فكان مكانه فى القلب، وحوله أربعون مصحفاً شريفاً فى أكياس من الحرير الأصفر يحملها جماعة من الأشراف، ومن حوله جماعة من الصوفية والأشراف ومعهم أعلامهم ما بين حمراء وخضراء، وتولى قيادة ميمنة الجيش ميماى نائب الشام، والميسرة خاير بك نائب حلب^(٣). ولما دارت المعركة انسحب خاير بك من ميمنة الجيش، وأظهر الهزيمة دون قتال، وأطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين، فهو حيناً يشيع أن السلطان الغورى أمر بمالكيه الأجلاب بعدم القتال حتى يصدر أوامره إليهم، وحتى يقاتل المماليك القرانيس وحدهم، وهم المماليك القدماء، وحيناً آخر يشيع خاير بك أن الغورى سقط قتيلاً فى المعركة وتراجع هو وجنوده مولين الأدبار، ليحذو حذوهم بقية الجيش المملوكى^(٤).

(1) Stripling, op. cit., pp. 44-45.

محمود الحمرى: مصر فى المصور الوسطى، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(2) Stripling, op. cit., p. 46.

(٣) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٦٨ - ٦٩.

(٤) ابن زنبيل: آخره المماليك، ص ٢٨، سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ١٨٤ - ١٨٥.

كان السلطان سليم الأول يخشى أكثر ما يخشى فرمان المماليك، فوزع قواته ومدفيعته بحيث تستطيع الاختباء في أى لحظة خلف سلاسل من الصربك المتصلة ببعضها ببعض، وخلف حواجز من الأشجار والأخشاب لمقاتلة العدو من هناك. وقد استطاع فرمان المماليك الشجمان أن يحرزوا نصراً على جيوش العثمانيين في أول الأمر، وقتلوا منهم قرابة عشرة آلاف رجل^(١)، حتى هم السلطان سليم الأول بالهرب أو طلب الأمان، ولكن مدفعية الجيش العثماني بما قدفته من نيران أوقعت بجيش المماليك، فاختل نظامه، وامتلاً ميدان المعركة بالجثث، ولبث الغوري واقفاً في مكانه وهو يرى جيشه يلوذ بالفرار، وبدا شبح الهزيمة مخيفاً مفرعاً، فأخذ يستغيث وينادى عسكره قائلاً: «يا أغوات، هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة». فلم يستجب له أحد، فالتفت إلى مشايخ الصرقية والفقراء الواقفين حوله، وقال لهم: «إدعوا إلى الله تعالى بالنصر، فهذا وقت دعاكم». وعندئذ خشى الأمير ترماز الزرد كاش على السلطان، فشق طريقه إليه، وأخذ العلم السلطاني وطواه وأخفاه خشية أن يستولى عليه العثمانيون أو يعلموا مكان السلطان، وقال للغوري: «يا مولانا السلطان! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا، فاجتنبك واهرب إلى حلب!». ويقال إن هذه العبارة وقعت على قلبه وقع الصاعقة، ولم يحتمل قصوة الموقف، فأصيب بالشلل، وطلب جرعة ماء، فجاؤا بها في كوب من الذهب، ولكنه لم يتحالك نفسه، وهوى من فوق صهوة فرسه ميتاً، ودامته الخيول^(٢).

ولاشك أن انتصار العثمانيين في هذه المعركة يرجع إلى استخدام المدفعية الحديثة، ذلك أنهم لو كانوا قد انتكبوا مع المماليك بالسيوف والرماح لكان هناك شك كبير في انتصارهم، ولو شاء المماليك استخدام المدفعية الحديثة في القتال لتغير مصير المعركة، ولكنهم أحجموا عنها احتقاراً لها، ففي ظنهم أن الأسلحة النارية تبعد بهم عن مبادئ الفروسية. وقد عبر المؤرخ ابن زنبيل^(٣) عن تلك الحقيقة بدقة قائلاً: «وأطلقوا (العثمانيون) المدفع والبندقيات، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر في الشرى، وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى، وكان يجيء كل مدفع على نحو خمسين أو مئتين أو مائة نفس، فصارت تلك الصحراء كأنها مغطاة بالدماء».

(١) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٦٩ - ٧٠، ابن زنبيل: آخره المماليك، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٧٠.

(٣) ابن زنبيل: آخره المماليك، ص ٢٩.

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب، حيث انتقم منهم الجلبليون جزاء لما ارتكبوه في حقهم من قبل وطردوهم، فأسرعوا إلى دمشق في أسوأ حال، ومنها إلى مصر وهم في أنحس حال، فدخلوا القاهرة في رمضان سنة ٩٢٢ هـ (أكتوبر ١٥١٦)، ونعروضوا خلال الطريق لأذى المربان.

وبعد الانتصار الساحق الذي أحرزه سليم الأول في مرج دابق، تحرك جنوبا متتبعا فلول المماليك. فدخل حلب في ٢٨ أغسطس ١٥١٦ وسط هتافات الترحيب من الأهالي. وفي اليوم التالي، وأثناء خطبة الجمعة نودى بسليم الأول خادما للحرمين الشريفين. وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبي، وكرس نفسه زعيما روحيا ومدنيا للإسلام، وبدأ يطلق على نفسه لقب «سلطان المسلمين» أو «بإدى شاهي إسلام» كما فعل المماليك. وهكذا حقق سليم الأول خلال أسبوع واحد، أهداف الحرب بكاملها: إلحاق الهزيمة بالمماليك ونسب الهيمنة العثمانية^(١).

وتساقطت في أيدي سليم الأول مدن حماه وحمص ودمشق. ففي ٨ أكتوبر سنة ١٥١٦، دخل سليم دمشق، وسار في شوارعها المفروشة بالحرير وسط احتفالات رائعة. واستقبل فيها وفود طرابلس وبيروت وصيدا وغيرها من المدن السورية التي سارعت إلى تقديم ولائها له. ووصل إلى دمشق أسراء دروز جبل لبنان الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين، ومقابل الاعراف الشكلي بالتبعية للعثمانيين احتفظوا لأنفسهم بالحكم الذاتي^(٢).

ثم واصل سليم زحفه جنوبا للاستيلاء على مصر قلب العالم الإسلامي، وكان بها طومان باي - وهو ابن شقيقة الغوري - نائبا عن قانصره الغوري، فلما مات الأخير اعتلى طومان باي عرش سلطنة المماليك الجراكسة، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، وتلقب بلقب الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك. والواقع أن طومان باي وجد نفسه في وضع لا يحمد عليه، فالمماليك في تلك المرحلة من تاريخ مصر، كانوا - قد وصلوا إلى درجة من

(١) نيقولاى ليفانوف: الفتح العثماني للأقطار، ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.

الانحلال والفوضى حجبته عن رؤية الخطر المحيط بهم. ولما لم يجد طومان باى استجابة من الممالك للوقوف ضد العثمانيين، اضطر إلى تجنيد العربان والمصريين والمجرمين والقتلة الذين أعفى عنهم للانضمام إلى الجيش المملوكي^(١)، الأمر الذى جعل جيشه يفقد النظام والتماكك. أما الجيش العثماني، فقد زحف إلى مصر، وهو فى حالة معنوية مرتفعة، رغم المعاناة الشديدة التى قاساها، بسبب فقد الكثير من الجمال والخيول فى صقيع بلاد الشام، وفى أثناء عبور الصحراء، فضلا عن الهجمات التى كان البدو يوجهونها للجيش العثماني فى فلسطين وحدود مصر^(٢).

وفى خلال ذلك الموقف الصعب الذى تعرضت له مصر، نلم طومان باى رسالة من السلطان سليم العثماني فى ذى القعدة سنة ٩٢٢هـ (يناير ١٥١٧)، يعبر، فيها بأصله المملوكي، قائلا: «إنتك مملوك تباع وتشترى، ولا تصح لك ولاية ملك»، ويطلب منه أن يكون نائبا عنه فى مصر، ويهدده إذا رفض ذلك بأنه سيدخل إلى مصر، ويقتل جميع من بها من الجراكسة، حتى يثق بطون الحوامل، ويقتل الأجنة التى فى بطونهن من الجراكسة^(٣). وفى الوقت الذى أرسل سليم رمله لمطالبة طومان باى بالدخول فى طاعته، دأب خاير بك الخائن على إرسال كتب إلى أمراء مصر ومشايخ العربان يرغبهم فيها بالدخول فى طاعة سليم، وأخذ يطلب فى محاسنه وعدله فى الرعية^(٤).

ولما وصلت الأخبار إلى طومان باى بأن العثمانيين بدأوا يخترقون الصحراء الشرقية فى طريقهم إلى القاهرة، أراد الخروج للملاقاةهم وهم متعبون من مشقة الطريق، ولكن الممالك طالبه بنفقات باهظة. فأخذ يستحثهم قائلا: «أخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم، فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار، وأنا واحد منكم إن خرجتم خرجت معكم، وإن قعدتم قعدت معكم، وما عندى نفقة لكم^(٥)». وقد أحس طومان باى بالخطر

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١١٩ - ١٢٠.

(2) Stripling, op. cit, p.52.

(٣) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٢٥.

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٢٠ - ١٢١.

الذى يهدده ويهدد مصر، ومع ذلك فقد صمم على الخروج لقتال العثمانيين، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين رفضوا الخروج، بل تطاولوا عليه، وقالوا له: «إن رحمت لعنة الله عليك، غيرك يجي يعمل سلطاناً»^(١).

وفي ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢هـ (٢٣ يناير ١٥١٧) كانت المواجهة الحاسمة بين العثمانيين والمماليك فى الريدانية، وقد تفوقت فيها مدافع وبنادق العثمانيين على الأسلحة التقليدية التى تملح بها المماليك، ولحقت بطومان باى هزيمة قاسية رغم أنه حارب بشجاعة وجراً^(٢). وبذلك أصبحت القاهرة تحت رحمة العثمانيين.

والواقع أن هزيمة المماليك فى الريدانية كانت أمراً لا مخرج منه، نظراً لأن الخيانة ظلت تلعب دورها حتى آخر لحظة فى تاريخ السلطنة المملوكية، إذ كان الخائن جان بردى الغزالى قد اتصل بشريكه فى الخيانة الأمير خاير بك، وأعلمه بخطة السلطان طومان باى فى الدفاع، الأمر الذى جعل العثمانيين يجيئون فى زحفهم نحو القاهرة التحصينات التى أقيمت بالريدانية، وأمن خاير بك فى التكيل بالمماليك بأن أقتع الغزالى بإخفاء الطوارق والمكاحل، حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين^(٣).

لم يفقد طومان باى الأمل فى الاحتفاظ بسلطنة المماليك، فعمل على تحصين بوابات القاهرة، وامتدعى المصريين للدفاع عن أنفسهم، كما حرر قرابة ستة آلاف من العبيد السود وجهزهم بالأسلحة، وحفر المماليك الخنادق، وأقاموا المتاريس فى شوارع القاهرة. وفى ٣ المحرم سنة ٩٢٣هـ (٢٧ يناير ١٥١٧) دخل سليم الأول القاهرة وأخذ فى مهاجمتها، وأظهر المصريون همة عالية، إذ دافعوا عن مدينتهم، حتى أن النساء والأطفال كانوا يرمون العثمانيين بالحجارة والطوب، وحدث قتال عنيف فى شوارع القاهرة وطرقاتها دام ثلاثة أيام، وأمر سليم الأول بإشعال النار فى البيوت، وأعمل العثمانيون السيف فى كل

(١) بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٢٥.

(٢) بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٤٤ - ١٤٦.

Stripling, The Ottoman Turks and Arabs., p. 53.

(٣) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكمة، ص ٨٩، سعيد عاشور. المصر المملوكى، ص ١٨٨.

من صادقه، ونهبوا القاهرة، ولم تفلح مقاومة المحاليك، فحلت بهم الهزيمة فى ٣٠ يناير سنة ١٥١٧م، واستسلموا لشروط سليم الأول^(١). واضطر طومان باى إلى الهرب، بعد أن انفض عنه رجاله، وتشت أنصاره، والتجأ إلى الدلتا، حيث اختفى عند صديقه شيخ العربان فى البحيرة، وهو حسن بن مرعى، فأمنه وأقسم له هو وإخوته على المصحف ألا يوحوا بسره. وللأسف فإن الشيخ لم يلبث أن خانته، وسلمه للشعثانيين، ناسياً ما فعله معه طومان باى يوم أن دفع الديون المستحقة عليه أيام السلطان المنورى. وما كاد سليم الأول يعلم بخبر القبض على طومان باى حتى فرح فرحاً شديداً، وقال: «الآن ملكنا ملك مصر»^(٢).

وكان أن أحضر طومان باى مقيداً بالأغلال، ودخل سليم وهو فى زى عرب الهوارة، وعلى رأسه زنط وعليه شاش، وعلى يده ملوطة (قباء) بأحكام طوال، فقام له سليم وأخذ يتأمله معجباً بشجاعته وفروسيته، ثم ويخه على مقاومته، ولكن طومان باى ظل محتفظاً بشجاعته وهيبته، وأخذ يدافع عن سلوكه وأفعاله، وقال للسلطان سليم: «الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الدل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لأنتم أفرس منا ولا أشجع منا، وليس فى عسكرك من يقاومنى فى حومة الوغى!»^(٣). ولا شك أن طومان باى كان يقصد أن سليم لم ينتصر على المحاليك بشجاعته، وإنما انتصر بمدافعه وتناذقه، وهى الأسلحة التى لم يتزود بها المحاليك.

ولم يسع السلطان إزاء شجاعة طومان باى إلا أن عبر عن إعجابه، بقوله لمن حوله: «والله مثل هذا الرجل لا يقتل، ولكن أعزوه فى الترسيم (الحجز) حتى ننظر فى أمره»، وأوشك أن يبقى على حياته، فبرسه منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى إستانبول لولا تخريص الخائنين جان بردى الغزالى وخاير بك للسلطان سليم، مما جعله يأمر بإعدام طومان باى^(٤).

وفى يوم الإثنين ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ (٢٣ أبريل ١٥١٧) أخرج طومان باى من سجنه فى إمبابة، وحمل إلى باب زويلة (بوابة المتولى) فى اليوم المحدد لإعدامه، وأخذ

(١) بدائع الزهور، جـ ٥، ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٢) بدائع الزهور، جـ ٥، ص ١٧٤ - ١٧٥، ابن زنبيل: آخره المحاليك، ص ١٣٢.

(٣) بدائع الزهور، جـ ٥، ص ١٧٥.

(٤) بدائع الزهور، جـ ٥، ص ١٧٥، ابن زنبيل: آخره المحاليك، ص ١٣٦.

يُسلم على الناس طول الطريق، حتى أرخى له المشاعلى حبل المشقة، وطلب من الناس أن يقرأوا له سورة الفاتحة ثلاث مرات، وحط يديه وقرأ الفاتحة، ثم النفث إلى المشاعلى، وقال له: «إعمل شغلك»^(١).

وبإعدام طومان باى إنتهت دولة المماليك، ودخلت مصر عهداً جديداً من تاريخها، فسيطرت من دولة مستقلة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية. ويعلق ابن إياس^(٢) على ذلك قائلاً: «ومن العجائب أن مصر صارت نيابة، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة، لأنه خدام الحرمين الشريفين، وحاولى ملك مصر الذى افتخر به فرعون...». وغادر سليم الأول القاهرة فى ٩ مايو سنة ١٥١٧م إلى تركيا، بعد أن أخذ معه الكثير من كنوز مصر، وأخذ ألف وثلاثمائة من أمهر الصناع والعمال والحرفيين المصريين.

وبعد أن فتح السلطان سليم بلاد الشام ومصر، تقبل ولاء زعماء القبائل البدوية الكبرى وشريف مكة، وبذلك تمت له السيطرة على البقاع الإسلامية. وكان تمييزه للشريف حاكماً على جدة والمدينة ومكة وسائر الحجاز مابقة سارخلفاؤه على منوالها. وقد أضفى ضم الدولة العثمانية للأماكن المقدمة عليها زعامة دينية فى العالم الإسلامى، وتأكيداً لهذه الزعامة فى العالم السنى، وهى الزعامة التى تربت على هزيمة الصفويين وتغنيق نطاق انتشار المذهب الشيعى بمد موقعة جالديران. وقد أضاف سليم إلى ألقابه على أثر فتح مصر لقب «خدام الحرمين الشريفين»، وما لبث أن ربط كثيراً من الأرقاف على المسجد الأقصى، ثم على الأماكن الإسلامية المقدمة فى الحجاز^(٣).

وقد اهتم سلاطين الدولة العثمانية بمخلفات الرسول ﷺ، والتى كانت قد جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول فى أثناء إقامة الأخير فى مصر كرمز لدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية. وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت فى خزانة قصر طوب قابى وأطلق عليها «أمانات مقدمة». وكانت هذه الآثار تضم برده، ومسجدة صلاة، والبيرق النبوى - أى العلم النبوى - وقوساً وسهماً،

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٦.

(٢) بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٠٦.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٨٥.

قدم، ومفاتيح الكعبة ونسختين من القرآن الكريم يقال إنهما كانتا للخليفيتين عثمان وعلى^(١).

وهناك مسألة ترتبط بالفتح العثماني لمصر، هي ما يقال من أن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين، في القاهرة قد تنازل للسلطان سليم عن الخلافة. والواقع إن سليم كان قد أطلق على نفسه لقب «خليفة الله في طول الأرض وعرضها» منذ عام ١٥١٤م، أى قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان. فقد أحرز سليم وأجداده مكانة ثلاثم استخدام لقب الخلافة، في الوقت الذي كان فيه مركز الخلافة في القاهرة لا يعتد به. وقد أحرز العثمانيون عظمتهم بالجهاد، كما أن فتوحات سليم جعلته أقوى حاكم مسلم معاصر، فقد شملت إمبراطوريته بلاداً لم يسبق لأى خليفة أن مارس فيها سلطة فعلية، كما أعلى مكانته دخول مكة والمدينة تحت سيادته، وأن قوة الدولة العثمانية في عهده جعلت المسلمين في العالم الإسلامي يتطلعون إلى مساعدته بعد أن اعتدى البرتغاليون على الموانئ والمدن الإسلامية في ساحل شرقى أفريقيا وفي البحار الجنوبية، وتعقب الإسبان المسلمين الأندلسيين الفارين إلى شمال أفريقيا، وكان ملك البرتغال ينوى هدم المدينة المنورة ونيش قبر الرسول عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أن السلطان سليم لم يهتم بلقب الخلافة الذي فقد مكانته، ولم يحاول أحد في ديوان دولته أن يقيم له وزناً. أما الخليفة العباسى المتوكل، فقد انتقل إلى استانبول، ثم ما لبث أن عاد منها إلى القاهرة بعد وفاة السلطان سليم، ومارس صلاحياته بصفته «خليفة» حتى وقاته عام ١٥٤٣م.

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج-١، ص ٢٣.

(٢) عبد الحليم مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٦-٨٧.

الفصل السابع

جوانب أخرى فى التاريخ العثمانى فى العصور الوسطى

- اليهود فى المجتمع العثمانى فى العصور الوسطى.
- علاقة العثمانيين برعاياهم الميحين.
- البوجوملية.
- انتشار الإسلام فى ألبانيا.
- انتشار الإسلام فى صربيا.
- انتشار الإسلام فى البوسنة.
- انتشار الإسلام فى الأناضول.
- نظام الدوشرمة (ضريبة الغلمان).
- الإنكشارية.
- السباهية.
- البكتاشية.

كانت الدولة العثمانية دولة عالمية، بمعنى أن الدولة لم تحصر نفسها في النطاق الإقليمي الضيق المحدود الذي نشأت فيه عند تأسيسها، وهى بقعة صغيرة من الأرض فى شبه جزيرة الأناضول، بل امتدت امتداداً واسعاً فى ثلاث قارات هى آسيا وأوروبا وأفريقية، وأصبحت تخضع شعوباً مختلفت جنسياتها وديانتها ولغاتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها^(١). وتميزت بتنوع بشرى تناول الجوانب العنصرية واللغوية والدينية. فمن الناحية العنصرية ضمت الدولة - بجانب الأتراك العثمانيين - رعايا من العرب والأكراد والتركمان والمراكسة والبربر والسريان والأرمن والألبانيين والدروز واليونانيين والبشناق (نسبة إلى ولاية البوسنة) والصرب والمجر والبلغار والكرواتيين والكريتيين (مكان جزيرة كريت) والقبارصة وغيرهم. ومن الناحية اللغوية كان رعايا الدولة يتكلمون مجموعة من اللغات الميتة والحية، فمن اللغات الميتة أو قليلة الاستعمال كانت السريانية واللاينية والعبرية، ومن اللغات الحية: العربية والتركية والكردية واليونانية والمجرية، فضلاً عن اللهجات الصقلية وغيرها. أما الناحية الدينية فقد كان من بين رعاياها: المسلمون السنيون ويشكلون نسبة عديدة عالية، وطوائف من الشيعة مثل المتأولة والعلويين والإسماعيلية، ثم الدروز. ومن الطوائف المسيحية: الروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والسريان اليعاقة، والأرمن، والأقباط، والأحباش، والموارنة، واللاتين، والكاثوليك، والبروتستانت، واليهود^(٢).

اليهود فى المجتمع العثماني فى العصور الوسطى:

أثبتت الحفائر الأثرية التاريخية أن اليهود سكنوا فى المناطق المجاورة ليوغوسلافيا الواقعة تحت الحكم الروماني، وتشهد بذلك أطلال المعابد اليهودية منذ القرنين الثالث والرابع للميلاد، والمقابر اليهودية فى دالماشيا ومقدونيا والجبل الأسود، وعند مدينة أوسيك Osijek التى تبعد ثلاثين ميلاً من الحد البوسنى الشمالى الشرقى. ومن الاكتشافات التى ظهرت جبانة للآفار من القرن الثامن أو التاسع الميلادى تقع قرب نوفى ساد (شرق أوسيك، وعلى بعد مائتى من البوسنة)، وهى تحتوى على عدد كبير من القبور عليها رموز يهودية ونقوش عبرية، وهو أمر يشير إلى أن هؤلاء الآفار قد استوعبوا بعض قبائل خزر القرن القديمة التى اعتنقت اليهودية أثناء القرن الثامن^(٣).

(١) عبد العزيز الشاوى: الدولة العثمانية، ج١، ص ٩٠ - ٩١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٩١ - ٩٢.

(٣) ملكولم: البوسنة، ص ١٤٦ - ١٤٧.

وفى عهد الدولة البيزنطية ، وفى وقت يرجع إلى القرن الثانى عشر على الأقل ، كان اليهود الريانيون^(١) Rabbis يتزعمون المجتمعات اليهودية، سواء كان ذلك فى العاصمة القسطنطينية أو المدن الصغيرة ومن الواضح أن العثمانيين تبنا نفس السياسة فى مدنهم المواسم، ففتحوا اليهود تيسيرات كثيرة، فكان لليهود بروسة حيا خاصا بهم، يطبق الإجراء الخاصة بحكمهم الذاتى فى الأعمال اليومية^(٢). وعندما استولى العثمانيون على أدرنة سنة ١٣٦١ م، انتقلت غالبية حياة البلاط العثمانى إلى تلك المدينة، ونقل اليهود نشاطهم من بروسة إلى العاصمة الجديدة، حيث لعبوا دوراً فى تطورها. وفضلا عن ذلك، فإن اليهود الذين كانوا يقيمون فى أقاليم البلقان التى لاخضع للعثمانيين، قد جذبتهُم الحياة الفكرية والفرص الاقتصادية فى العاصمة العثمانية، فهاجروا إليها، وانضموا إلى المجتمع اليهودى الموجود الذى يضم الريانيين والقرائين، والمنافسين الجدد الذين وصلوا من بروسة^(٣).

وكان زعيم اليهود الريانيين إسحق تسارفاتى Isaac Tsarfati وقد جاء من أوروبا المسيحية، وألف رسالة هامة تحتوى على بعض المعلومات عن مرقف يهود أدرنة، ومن المحتمل أنه كتب رسالته عندما رأى ازدهار حالة لليهود والحرية التى يتمتعون بها فى الدولة

(١) الريانيون هم غالبية يهود العالم المعروفين أكثر من غيرهم الآن، كما كانوا فى المصور الوسطى، وتعنى كلمة «رياني» العبرية: الإمام أو الحبر أو الفقيه، وقد عرفت هذه الكلمة إلى «ريانى» ووردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (سورة المائدة آية ٤٣) «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها البينون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء... الآية». وبحرور لوقت أصبح هذا اللفظ يطلق على الغالبية العظمى من اليهود، وقد سعى أتباع هذه الفرقة ريانيين إشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء الريانيين فى عدد من المسائل الجوهرية والفرعية مع غيرهم من الفرق اليهودية مثل القرائين والسامرة. أنظر نورمان ف. كانتور: تاريخ المصور الوسطى. قصة حياة حضارة ونهايتها. ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مراجعة د. على الفمراوى، ج ١ (القاهرة ١٩٧٩)، هامش (١) ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(2) Epstein (Mark A.), "The leadership of the Ottoman Jews in the Fifteenth and Sixteenth Centuries", in Christians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard Lewis - Vol. I (New York, 1982), pp. 101-102.

(3) Ibid., p. 102.

العثمانية. وقد وصف تشارفاني مهولة الرحلة إلى فلسطين والأماكن المقدسة، بفرض اجتذاب من يريد أداء فريضة الحج، أو الذين فضلوا أن يدفنوا هناك^(١).

وفي نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، لقي اليهود اضطهادات واسعة النطاق في كل الدول المسيحية في الغرب الأوربي، ونتيجة لذلك أخذوا يحشون جاهدين عن أرض آمنة يستقرون فيها، فقدم لهم العثمانيون الأرض الموعودة التي طالما حلموا بها، وبعبارة أخرى، رحب العثمانيون باليهود المهاجرين إلى دولتهم، وحموهم من أية ضغوط، ومنحوهم استقلالاً ذاتياً، وتسلموا معهم في ممارسة شعائهم الدينية، حتى أنهم كانوا - إلى حد ما - المفضلين لدى السلطات العثمانية. ومما يجدر ذكره أن العثمانيين كانوا في أشد الحاجة إلى الحرفيين والتجار ورجال البنوك والأطباء وجامعي الضرائب، ولذلك استفادوا من الأنشطة والخبرات الاقتصادية اليهودية، والتقنيات والمهارات التي جلبها اليهود معهم، الأمر الذي جعل اليهود يعترفون بالجميل للعثمانيين، فساعدوا بكل قوتهم الإمبراطورية العثمانية وحكامها منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي^(٢).

وفي عام ١٤٥٣ عين السلطان محمد الفاتح أول حاخام باشي لطائفة اليهود وهو موسى قيزالي، وأعلن في الوقت نفسه السماح لليهود بالبقاء في إستانبول وأعطاه أسمية بروتوكولية على البطريرك. وفي عهد السلطان سليمان الأول (١٥٢١ - ١٥٦٦) كان اليهود أو من منحوا حق تعيين كاخيا (وكيل) لهم ليمثلهم أمام الحكومة المركزية. وإذا كان موسى قيزالي احتاج إلى «براءة» السلطان لممارسة مهامه كأول حاخام باشي، فإن خلفاء لم يكونوا بحاجة إلى ذلك، إذ كان يقع الاختيار عليهم بمعرفة أبناء الطائفة أنفسهم^(٣).

ورثة أسباب كثيرة كانت وراء تمتع اليهود بهذه المعاملة الخاصة، فبينما كان السلطان محمد الفاتح يعتبر الأرثوذكس أكثر الطوائف المسيحية ولاء له، إلا أنه كان في

(1) Ibid., p. 102.

(2) Hacker (Joseph R.). "Ottoman Policy toward the Jews and Jewish Attitudes toward the Ottomans during the fifteenth century". Ed. by Benjamin Braude & Bernard Lewis. Vol. I, p. 117.

(٣) بيتر شوجر: أوروبا العثمانية، ص ٦٥.

الوقت نفسه على يقين من وفاء اليهود ودقتهم. ولم يحدث أن عومل يهود أوروبا القرن الخامس عشر الميلادي في أى دولة بأفضل مما عاملتهم الدولة العثمانية. وكثرت منذ أيام السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) يعملون في خدمة السلاطين وصفة خاصة كأطباء للقصر، وأكثر من هذا كان ينشرون مهارات عالية، كدرايتهم بلغات كثيرة كان العثمانيون بحاجة إليها بجانب التركية والعربية والفارسية^(١).

وبعتبر استيلاء العثمانيين على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م حدا فاصلا، ليس في التاريخ العثماني فحسب، بل في تاريخ اليهود في الدولة العثمانية أيضا. ففي خلال السنوات الأولى التي تلت الفتح العثماني للمدينة، قام العثمانيون بحملة معروفة لإعادة تسكين المدينة، ولجعلوا من استانبول عاصمة عظيمة حقا. ومن بين الجماعات التي أتت بها العثمانيون لإعادة الاستقرار للمدينة، معظم اليهود الذين كانوا يعيشون في مدن البلقان الواقعة تحت النفوذ العثماني، كما أتت لإستانبول بعض اليهود من الأناضول. وقد حدث أن نقلت الدولة العثمانية يهود ما يزيد عن أربعين مدينة، بما فيهم أغلبية يهود أدنة، إلى العاصمة الجديدة^(٢).

وقد كتب باحث يهودى يدعى .سى كيبالى Moses Capsali في سنة ١٥٢٣ تاريخ الأسرة العثمانية، فذكر أن السلطان محمد الفاتح دعا اليهود إلى الإقامة في استانبول، وقدم لهم مزايا خاصة، وأصدر مرسوماً يحى مصالحهم، ونصحهم بيوثاً وأراضى، وأعفاهم من الضرائب، في الوقت الذى صاروا مقربين لديه^(٣). ومن الوثائق التركية نعلم أن كثيرا من اليهود عملوا جامعي ضرائب خلال عهد محمد الفاتح وبإيزيد الثاني، وانهلك كثير من التجار اليهود في تجارة الحرير والتوابل وبلغ أخرى في يروسة وإستانبول وغاليبولي ومدن عثمانية أخرى^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

(2) Epstein, op. cit., p. 103.

(3) Hacker, op. cit., pp. 118-119.

(4) Hacker, "Ottoman Policy toward the Jewes and Jewish Attitudes toward the Ottomans during the Fifteenth Century", p. 122.

وفى سنة ١٤٧٧ قبل بضع سنوات من انتهاء حكم محمد الفاتح، بلغ عدد السكان اليهود فى استانبول طبقا لتعداد هذا العام حوال ثمانية آلاف نسمة، وما يجدر ذكره أنه بين سنتى ١٤٦٦ و ١٤٦٩ قد عانت استانبول من سلسلة من الأوبئة اجتاحتها وأدت إلى إنقاص سكانها، فلا بد أن نستنتج أن المجتمعات اليهودية كانت فى ازدياد إبان تلك الفترة^(١).

وقد أتى اليهود من أسبانيا إلى الإمبراطورية العثمانية منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، فى أعداد قليلة. ولكن تلك الأعداد خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ازدادت زيادة ضخمة جذرية بالاعتبار، وسرعان ما فاقوا فى أعدادهم اليهود المقيمين فى الإمبراطورية العثمانية. ففى سنة ١٤٩٨ أصبح اليهود يمثلون غالبية فى استانبول طبقا لما ذكره إياه مزراحى Elijah Mizrahi، ذلك أن طردهم من أسبانيا كان أكبر مأساة ألمت بهم فى أواخر العصور الوسطى. ففى الوقت الذى منعت فيه الدول الأوروبية المسيحية أولئك اليهود المطرودين من أسبانيا من دخول أراضيهم، رجت بهم الدولة العثمانية واستقبلتهم فى أراضيها، وأحسنت معاملتهم، الأمر الذى أدى إلى تعاطف اليهود بصورة واسعة النطاق مع الدولة العثمانية^(٢).

وما يجدر ذكره أن اليهود المطرودين من أسبانيا فى سنة ١٤٩٢ وما بعده، دخلوا أراضي الإمبراطورية العثمانية، وقد تجرد بعضهم من ثرواته وممتلكاته على أيدى حركة الاسترداد الكاثوليكية، ولكنهم أثروا بقدراتهم ودرائتهم بأوروبا وطرقها، وهى دراية تشكل دعمهم الثقافى ومهاراتهم وقيمهم بصورة حسنة فى السنوات المبكرة من وصولهم إلى أراضي الإمبراطورية العثمانية. وكان بعض اليهود أثناء قيام حركة الاسترداد الكاثوليكية قد أخفوا ديانتهم خوفا من بطش السلطات الأسبانية، وأظهروا أنهم كاثوليك، فلما خرجوا من أسبانيا ورحبت بهم الدولة العثمانية، رجعوا إلى ديانتهم اليهودية تحت حماية الدولة الإسلامية^(٣).

(1) Ibid., p. 123.

(2) Ibid., p. 123.

(3) Epstein, op. cit., p. 108.

ومعطينا سيرة اللاجئ اليهودي «يوسف ناسي» إلى الإمبراطورية العثمانية صورة واضحة عما يمكن أن يصل إليه الأجنبي ذو الموهبة والطموح من مكانة عالية في ظل الدولة العثمانية. لقد ولد ناسي حوالي سنة ١٥٢٠م من أسرة يهودية تمارس التجارة والطب. وكنت أسرته قد طردت من أسبانيا في سنة ١٤٩٢، وأجبرت على التحول للمسيحية في لشبونة في سنة ١٤٩٧. وعندما أنشئت محاكم التفتيش في البرتغال في سنة ١٥٣٦ قروا جراسيا ناسي المشولة عن الأسرة وصاحبة النفوذ عليها، أن ترخل بالأسرة كلها بما فيها يوسف - ابن أخيها وزوج ابنتها فيما بعد - إلى أنتويرب Antwerp، وهناك أصبح يوسف ثريا ورجل أعمال محترما ومشهورا، يلقي الترحاب في بلاط فرنسا ومجتمعاتها، وفي بلاط الهابسبرج في الأراضي المنخفضة، وفي إيطاليا، وفي غيرها من المجتمعات الأوروبية. ولما كان اعتناق يوسف ناسي وأسرته للمسيحية ومسيحيته ظاهريا وغير حقيقي، فقد تزايدت الشكوك حول حقيقة مسيحيته وأسرة، الأمر الذي اضطرهم إلى الهجرة إلى استانبول في سنة ١٥٥٣ هربا من الاضطهاد^(١)، وفي استانبول سرعان ما عاد يوسف إلى ديانته اليهودية، وأعلن ذلك على الملأ في سنة ١٥٥٤م. وفي الأعوام التالية أصبح تاجرا مشهورا، كما كان مستشارا سياسيا يحظى بالثقة في الدوائر الحكومية العثمانية، ونصيرا مخيا للدوائر العبرية في استانبول وسالونيك. وقد فتح له باب التأثير والسلطة واصعا، عندما تولي صديقه سليم الثاني عرش السلطنة في سنة ١٥٦٦م، وقد عينه سليم الثاني دوقا على ناخوس Naxos وجعلها له إقطاعا خالصا يورث، وناقوس هذه تتكون من إثنتي عشر جزيرة في بحر إيجه، ولها أهمية تجارية واستراتيجية. وبعد موت سليم الثاني في سنة ١٥٧٤، انزل يوسف وعاش مغمورا في قصره في بلندير Belvedere على البوسفور^(٢).

وقد حصل اليهود في الدولة العثمانية على الحكم الذاتي في الولايات، وأبرز نظام لهذا الحكم كان في مدينة سالونيك، ففي السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، كان اليهود يمثلون أكثر من نصفها، ونافس اليهود مجتمع استانبول في الأهمية^(٣).

(١) كولز: العثمانيون في أوروبا، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) كولز: العثمانيون في أوروبا، ص ١٦٥ - ١٦٦، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٨٧ - ٤٩٠.

(2) Epstein, op. cit., p. 100.

وهنا نكرر أن الأطباء اليهود لعبوا دوراً بارزاً في الإمبراطورية العثمانية، لما عرفوا عنه من مهارة وحذق. وأول طبيب يهودى يسترعى الانتباه كان حكيم يعقوب Hakim Yakub الذى احتل مكانة فريدة فى بلاط السلطان، وحصل على صداقته، ولطيفة عمله كان فى حاجة لينال ثقة السلطان كاملة. وفضلاً عن ذلك، فإن التعليم الأوربى الذى ناله يعقوب ودرايته باللغات، وضعه فى مكانة متميزة، وجعله نافعا لمن يطلب منه المشورة. وكان يعقوب فى خدمة العثمانيين قبل سنة ١٤٥٣، وبعد أن استقر العثمانيون فى العاصمة الجديدة، لابد أنه احتل مكانة هامة، بدليل أن هناك حياً فى إستانبول يحمل اسمه^(١). وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى أتى الكثير من الأطباء اليهود من أسبانيا فارين أمام ضغط الكاثوليك، وخدموا فى البلاط العثمانى، ولا شك أن النجاح الذى حققه من سبقهم، وخدمتهم المخلصة، جعلت من السهولة عليهم أن يشغلوا مراكز متميزة^(٢). وهناك أيضاً أماتوس لوسيتانوس Amatus Lusitanus، وهو واحد من أعظم الأسماء الأوربية فى عالم الطب فى القرن السادس عشر، ولازالت كتبه حتى اليوم تحتوى على عدد ضخم من الحالات العلاجية. وقد ولد فى البرتغال فى سنة ١٥١١ م بإسم خوان روهيجو - Juan Ro-drigo. أما الإسم أماتوس الذى حمله فيما بعد، فهو ترجمة لإسم حبيب، الإسم العبرى الأصلى للعائلة. وقد تخرج طبيباً فى سلامنكا، وهاجر إلى إيطاليا، حيث قدم خدماته الطبية للبابا، وحاضر فى فيرارا، وخرج من إيطاليا بسبب الاضطهاد الشديداً الذى تعرض له، وتوجه إلى سالونيك، وهناك توفى فى سنة ١٥٦٨ م^(٣).

وعلى أية حال، تمتع اليهود فى ظل الإمبراطورية العثمانية بالحرية الدينية، وزاولوا شعائرهم الدينية، وأخذت الدولة على عاتقها مسؤولية حماية أرواحهم وممتلكاتهم، وتبوأوا أرفع المناصب، فى حين أنزلت بهم أوروبا المسيحية أبشع أنواع الإذلال والتعذيب والاضطهاد.

(1) Epstein, op. cit., p. 110.

(2) Epstein, op. cit., p. 111.

(3) Roth (Cecil), The Jewish Contribution to Civilization (U.S.A., 1940), p.232.

علاقة العثمانيين برعاياهم الميحيين:

عندما وصل الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى ووجدوا أنفسهم فى وسط إسلامى وهو سلاجقة الروم، كان ذلك أكبر عامل فى اعتناقهم للدين الإسلامى. ولم يكن للعثمانيين حين نزلوا بآسيا الصغرى أى نوع من التعصب الدينى، إذ كلوا قبائل محاربة كل شغلها الشاغل أن تحارب فى سبيل الحصول على عيشها. ولقد كان لاعتناق العثمانيين للإسلام أثر كبير، فالإسلام جمع شمل العناصر المتفرقة فى شمال غرب آسيا الصغرى تحت راية واحدة، وخلق لها قضية واحدة^(١). وفى أثناء عملية تكوين الدولة العثمانية واتساعها، وخاصة فى عهد السلطان أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢)، عاش المسلم والميحي جنبا إلى جنب فى تسامح زائد، وفى عهده تحول مكان ييشنيا إلى الإسلام^(٢).

ولم تكد القسطنطينية تسقط فى أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، حتى توطدت العلاقات بين الدولة العثمانية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت. ومن أولى الخطوات التى اتخذها محمد الفاتح بعد استيلائه على القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامى الكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا، ومنح البطريرك الجديد جنادىوس مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولرؤسياه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التى كانوا يتمتعون بها من قبل. وقد تسلم الراهب جنادىوس أول بطريرك بعد فتح القسطنطينية عصا الأسقفية التى كانت رمز هذا المنصب^(٣). ومقتضى ذلك أصبح جنادىوس رئيس طائفة ملة الروم (الأرثوذكس)، برتبة باشوية رفيعة بثلاث شارات من رموز الإمبراطورية العثمانية، واليد غير المنازع للكنيسة الموحدة، والمشمول الرسمى عن ملوك وولاء كافة الأرثوذكس الخاضعين للسلطان^(٤).

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ١٨ - ١٩.

(2) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 180-181.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحرلاوى (القاهرة ١٩٧٠)، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٤) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١ ص ٦٣.

وبجانب كل السلطات الكنسية والقضائية التي كان البطريرك يتمتع بها، كانت له سلطات شرعية أخرى تتعلق بمسائل الزواج والطلاق والميراث وفقا للأصول الكنسية، فكان من عمل البطريركية أن تفصل في القضايا التي تتعلق بالإغريق بعضهم مع بعض، وكان لها أن تفرض العقوبات، وتسجن المجرمين في سجن بطريركي خاص في إستانبول، بل كان لها أن تحكم بالإعدام في بعض الأحيان. وكانت المراقبة الشاملة على الشؤون الروحية والكنسية متروكة كلها في أيدي البطريرك وأعضاء المجمع الأعظم، وكان في استطاعة البطريرك أن يدعوهم متى شاء، كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شؤون العقيدة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة^(١).

وكان للكنيسة مدارسها الخاصة، وطبقا للقانون العثماني كان البطريرك وأساقفته هم الذين يفتحون تلك المدارس ويديرون شؤونها. وبفضل الكنيسة حافظ الإغريق على تراثهم القديم، وظهر البطريرك في صورة من أخذ مكانة الإمبراطور البيزنطي الذي لم يعد له وجود، ومن قصره في حي الفنار في إستانبول، باشر البطريرك نفوذه على كل الكنائس المسيحية في الإمبراطورية العثمانية سواء كانت إغريقية أو صلافية^(٢). وبذلك قادت الكنيسة الأرثوذكسية سفينة المسيحية، وحافظت على اللغة الإغريقية والتقاليد والوطنية المسيحية في شرق البلقان لمدة أربعة قرون، وضحت الكنيسة المدارس بعد فتح القسطنطينية مباشرة، فأسرع البطريرك جناديوس بتأسيس «مدرسة الشعب الكبيرة» في حي الفنار، كما فتح الأساقفة في ولاياتهم مدارس للتعليم^(٣).

وإذا كان محمد الفاتح قد سعى إلى استمالة الكنيسة الأرثوذكسية، باعتباره راعيها وحاميها ضد البابا في روما. فقد سارت الدولة العثمانية على هذه السياسة التي عرفت في التاريخ العثماني باسم «الاستمالة». ويمكن تعريف سياسة الاستمالة هذه، بأنها تقوم على جذب الأهالي والكان المحليين من غير المسلمين واحتمالتهم لطاعة الإدارة العثمانية، وذلك بتقديم الامتيازات المختلفة لهم، ثم إرساء دعائم الحكم العثماني في مناطقهم بعد

(١) توماس أرنولد: للرجوع السابق، ص ١٧١.

(2) Diehl (Charles), Byzantium: Greatness and Decline. Trans. from the French by Naomi Walford (U.S.A., 1957) pp. 291-292.

(3) Ibid., p. 292-293.

ذلك^(١). وبناء على هذا، كانت الإدارة العثمانية تكفل بحماية هؤلاء في ممارسة كافة الشرائع الدينية. وبهذا السلك القويم كانت الدولة تروج لنفسها دعاية كان لها تأثيراً إيجابياً بين السكان المسيحيين. الذين تحرروا من أغلال النظام الإقطاعي وأعباءه، وعاش السكان المسيحيون الذين كانوا يتحصنون خلف القلاع لدفع هجمات الغزاة في البداية، عاشوا في ظل حماية دولة ذات نظم سمحة^(٢).

وعلاوة على ذلك، كانت هناك مظاهر أخرى هامة لسياسة الاستمالة التي اتبعها العثمانيون تتمثل في حمايتهم لكنائس الأرثوذكس وأديرتهم، وإعلانهم المفوع عن بعض الضرائب التي كانت مفروضة عليهم، أو عنها كلها في بعض الأحيان، وإيقالهم على الأوقاف الدينية في تلك المناطق كما هي، وذلك بالإضافة إلى إلغاء الامتيازات الخاصة بالطبقة العسكرية المحلية الإقطاعية، وضم هذه الطبقة إلى النظم العسكرية العثمانية. وهكذا نجح العثمانيون في استمالة القرويين والكنيسة والطبقات العسكرية التي كانت موجودة في المناطق المفتوحة، حيث وطلدت هذه الإجراءات أقدامهم هناك، وسرت عليهم القيام بغزوات جديدة في تلك الجهات^(٣).

وقد جعل التسامح الديني الذي منحه الإمبراطورية العثمانية للإغريق، ومانعتوا به من حماية لحياتهم وأموالهم يسرعون في الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان العثماني على سيادة أية سلطنة مسيحية. وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة يلقون ترحيباً من جانب الإغريق، وبعدهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد الذي عانوه على أيدي المسيحيين والبنادقة. كذلك كان الإغريق الذين عاشوا تحت حكم يزنطة غير المباشر، فقد بلغت حالة التدهور والظلم التي ميزت أسرة بليولوجوس إلى حد يدعو التأمل إلى الخوف والذعر، فإن الأرستقراطية الفاسدة ورجال الكنيسة المستبدن الذين لا يحصيهم العدد، وضغط القانون الباطل، ولزهاق الحكومة الوضيعة، وأكثر من هذا، المقاطعات والمالية والجيوش المجهشة لجمع الضرائب والخراج، كل ذلك قد جعل الشعب المنحل، لافرمصة أمامه للإصلاح، ولا أمل له في الانتعاش^(٤).

(١) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٤٨.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٧٢ - ١٧٣.

وما يؤد ذلك، ما ذكره الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية بقولهم: «إن أية دولة لاتخاف القانون تنب فرساً من غير زمام. لقد سمح الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشعب، فلم تعد فى محاكمهم عدالة، ولا فى قلوبهم شجاعة. وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم، وأصبح الجنود الإغريق لايفخرون إلا بفخامة الملابس، والمواطنون لايتخرجون من الظهور بمظهر الغش والخيانة، والجنود لايجلون من الفرار. وأخيراً صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين، ورفع من شأن محمد الفاتح الذى ينشد أتباعه المحاربون اللذة فى القتال، والذى لايتدفع قضائه ضمائهم»^(١).

وكان المغامر يوحنا هونيادى إبان قتاله العثمانيين قد طلب إليه جورج برانكوفتش ملك الصرب (ت ١٤٥٦م) أن يعضى فى قتالهم، وسأله برانكوفتش: «وماذا تصنع بديتنا إذا أنت انتصرت على الأتراك؟ فأجابه هونيادى: «أحمل الناس على اعتناق الكاثوليكية، وأقيم الكنائس الكاثوليكية فى كل مكان». ووجه برانكوفتش نفس السؤال إلى السلطان محمد الفاتح، فأجاب: «أقيم إلى جنب كل مسجد كنيسة والناس أحرار فى دينهم، فمن شاء ذهب إلى المسجد، ومن شاء ذهب إلى الكنيسة». وقد كان لهذه السياسة الإسلامية السمحة فى عصر لم يكن قد عرف بعد مبدأ التسامح الدينى أثر عظيم فى مد فتوحات السلطان محمد الفاتح، وسرت له مبيله»^(٢).

وكتب جين بودن Jean Bodin فى كتابه الصادر فى سنة ١٥٧٦م باسم «كتب الجمهورية الممتدة»، والذى ألفه خلال الحقبة المريعة التى يمكن تسميتها بحقبة الحروب الفرنسية الدينية، فيبدي إعجاباً واحتراماً شديدين بالتسامح الدينى الذى يمثل اضماراً عثمانياً أساسياً. وكتب بودن قائلاً: «إن ملك (سلطان) العثمانيين الذى يحكم جانباً كبيراً من أوروبا، يحمى شعائر الأديان بطريقة أفضل من أى أمير فى هذا العالم. أضيف إلى هذا أنه لايجبر أحداً، بل على العكس أنه يسمح لكل فرد أن يعمش وفقاً لما يعليه ضميره. وفضلاً عن ذلك، فإنه فى قصر حريمه يسمح بممارسة شعائر أديان أربعة مختلفة، شعائر اليهودية،

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٣، سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٨.

وشعائر المسيحية وفقاً لطقوس الكنيسة الرومانية، وشعائر المسيحية وفقاً لطقوس الكنيسة الإغريقية، وشعائر الإسلام^(١).

وعلى أية حال، نادراً ما كان العثمانيون استبداديين طغاة، رغم قسوتهم، إذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم، حيث كان الهوس الديني والتعصب المذهبي، بينما كان الرعايا العثمانيون في أوروبا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الدينية^(٢). ولكن المناظر التي تدعو للأسى، والتي مازالت كامنة في الخيال الشعبي لشعوب البلقان المسيحية، والتي تصور العثمانيين غزاة سفاحين متعطشين للدماء، ما هي إلا نتيجة للدعاية التي سادت يوم كانت الروح الصليبية هي الغالبة، وكان الهيسبرج وبابوات روما هم عصب هذه الدعاية^(٣).

وتجدر خير تعبير عن التسامح الذي عرفه العالم العثماني، في أخبار رحلات القرن السادس عشر ثم في القرن السابع عشر، وذلك قبل أن يؤدي التوسع الاقتصادي والثقافي والسياسي الأوربي إلى تبديل تصورات الرحالة، وإلى دفعهم إلى التركيز على مفساد النظام^(٤).

البوجوميلية:

أخذت البوجوميلية اسمها من حركة بلغارية هرطقية أسسها في القرن العاشر الميلادي - في عهد الملك بطرس (٩٢٧ - ٩٦٨) - قيس بلغاري يدعى بوجوميل Bogomil (حبيب الرب) beloved of God، وقد أتت البوجوميلية من آسياتم انتشرت في القرون التالية في القسطنطينية وبقية مناطق البلقان، بما في ذلك مقدونيا وأجزاء من صربيا. وتنادى البوجوميلية بلاهوت ما نوى «ثنائي»، يكاد يكون فيه للشيطان قوة تكافئ قوة الرب أو تكاد، ويرى بوجوميل أن العالم المادي قد خلقه الشيطان، وللهروب من سيطرة العالم المادي يجب على المرء أن يتنازل لتجنب كل اتصال بالمادة، ولن يتمكن من ذلك إلا إذا عاش حياة زهد ونشف قاسية، وأن يتخلى عن اللحم والنبذ والاتصال الجنسي. وقد

(١) كولز: العثمانيون في أوروبا، ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٨ - ١١٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٩.

(٤) روبر مانتان: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ ص ١٣ (المهيد).

رفض البوجوميل العهد القديم، واعتبار تجسد المسيح نوعاً من الوهم والخيال، وأنه من ثم لم يكن فى الإمكان حدوث موته على الصليب. وبذ البوجوميل التعميد بالماء والسر المقدس وكل نظم الكنيسة المسيحية وأديرتها الثرية. وكون البوجوميل «كنيسة يوسنية» خاصة بهم يرأسها أسقف، ويخدمها هيئة شبه رهبانية من المخلصين الذين نشروا عقيدتهم بالعمل كرمل أو مبشرين، واستمرت تلك الكنيسة فى الانتشار حتى أصبحت - على وجه التقريب - الديانة القومية فى البوسنة^(١).

وقد تعرضت طائفة البوجوميل منذ القرن الثالث عشر الميلادى لاضطهاد الكاثوليك، وطالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية على أتباعها. ففى سنة ١٣٢٥ كتب البابا يوحنا الثانى والعشرون إلى ملك البوسنة قاتلاً: «إلى ولدنا الحبيب الحبيب ستيفن ملك البوسنة، لعلنا بأنك ابن مخلص للكنيسة، نعهد إليك أن تستأصل شأقة الهرطقة فى ملكك، وأن تبذل العون والمساعدة لقاضينا فايان، ذلك أن جمهوراً عظيماً من الهرطقة تجمعوا من نواح كثيرة متعددة، وتنفقوا جميعاً على مملكة البوسنة مطحنين إلى أنهم سيبرزون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون فى أمن ودعة. ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبث العدو القديم (أى الشيطان) وتسلحوا بسموم باطلهم، أفسدوا عقول الكاثوليك بتظاهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين، كلامهم يدب ديب السرطان، وندسون فى نواضع، ولكنهم يقتلون فى باطن الأمر، وهم ذئاب فى نياح خراف، يسرون جنونهم الوحشى، يجعلونه وسيلة للتصوبه على خراف المسيح الأبرياء»^(٢).

وفى القرن الخامس عشر الميلادى أصبحت آلام البوجوميل لاحتتمل، حتى إنهم استقاثوا بالأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، لأن ملك البوسنة والقاسية كانوا قد بلغوا باضطهاد البوجوميل حداً ربما لم يلفه أحد من قبل. فهرب عدد كبير منهم يقرب من أربعين ألفاً من البوسنة، ولجأوا إلى البلاد المجاورة، أما الذين لم يوققوا فى الهرب، فقد أرسلوا إلى روما مكبلين فى الأصفاة. ولكن ذلك لم يضحف من قوة البوجوميل فى

(1) Stephen Clissold (ed.), A Short Hist of Yugoslavia., pp. 58-59, Obolonesky, The Bogomils, p. 114, 119-120, Eliot, Turkey in Europe., pp. 240

مالكولم: البوسنة، ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٢٧.

البوسنة إلا قليلا. ففي سنة ١٤٦٣ عندما غزا السلطان محمد الفاتح البوسنة، وجد الملك الكاثوليكي أن رعاياه قد تخلفوا عنه، وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسى، مدينة بويوتاس الملكية إلى العثمانيين^(١).

والواقع أنه عندما جاء العثمانيون إلى البوسنة لم ينهض أحد من البوجوميل إلى قتالهم ومقاومتهم، بل رحبوا بمجيئهم، واستقبلوهم استقبال من جاء لإنقاذهم وتحريرهم، ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن طائفة البوجوميل إلا قليلا^(٢). وذلك لأن معظمهم اعتنقوا الدين الإسلامى، فقد كانوا يفضلون غزو السلطان لهم، عن أن يحولهم البابا عن مذهبهم. ويرجع السبب فى إقبال البوجوميل على الإسلام، إلى أن العقيدة الإسلامية تمتلك كثيراً من نقاط التشابه مع البوجوميلية، فقد رفض البوجوميل عبادة مريم العذراء، ونظام التعميد، وأنكروا الصليب رمزاً دينياً، ورفضوا تقديس الأيقونات والصور الدينية وأثار القديسين، واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب وهم يتفقون فى هذه الناحية مما جاء به القرآن الكريم^(٣). وفضلا عن هذا فإن العقيدة الإسلامية تمنح ميزة عملية لأولئك الذين يعتنقونها، وهى المحافظة على أراضيهم وامتيازاتهم الإقطاعية. وعلى هذا تقدم البوسنة لنا ظاهرة فريدة لطبقة أرستقراطية، سلافية الجنس ومسلحة الديانة. وقد تولت تلك الطبقة فى الدول العثمانية أرفع المناصب، ومنها من وصل إلى منصب الوزير الأعظم، وبعض الحكام كانوا بوسنيين وطنيين، ولذلك قيل: «ينبغى أن يكون المرء لبنا لمسيحى مرتد، لكى يحصل على أرفع المناصب فى الإمبراطورية العثمانية». وقد حافظ النبلاء البوجوميل على لغتهم، ولكنهم قلدوا العثمانيين فى الزى والألقاب وكثيراً من عادات البلاط العثمانى^(٤).

انتشار الإسلام فى ألبانيا:

بدأ غزو الأتراك العثمانيين لألبانيا سنة ١٣٨٧م، ولكن كان لابد أن تسحب الجيوش التركية سريعا، وجرى الاعتراف بنفوذ السلطان العثمانى محمد الفاتح للمرة الأولى فى سنة

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٨.

(4) Stephen Clissold, op. cit., pp. 63-64.

١٤٦٣م. ثم استردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة يزعمها جورج كاستريوتا George Kas-tiota الذى اشتهر باسمه الإسلامى إسكندر بك. وقد أثبتت الدراسات الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التى نسجت حول قصة أيامه الأولى، التى تذكر أنه سُلِمَ فى صباه رهينة إلى الأتراك، ونسب بينهم على الإسلام، وحظى بمطف السلطان. والحقيقة أنه قضى أيام شبابه فى بلاده الجبلية، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذى أحرز فيه النصر عليهم سنة ١٤٤٤، وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم غزواتهم مقاومة عنيفة. ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا، وسقطت كرويا (آق حصار) عاصمة أسرة كاستريوتا فى أيديهم بعد أحد عشر عاماً. ومنذ ذلك الوقت، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة فى كافة أنحاء ألبانيا، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع، وأن خضوع البلاد لم يكن تاماً بحال. وظل بعض الموانئ البحرية يقاوم مدة أطول، وسقطت مدينة درازو فى سنة ١٥٠١م، على حين لم تسلم مدينة أنتيفارى Antivari الواقعة فى أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى سنة ١٥٧١. وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها ونظام حكومتها، وأن تكفل لأهلها الحرية فى إقامة شعائر دينهم المسيحى، وألا يتعرض أحد بسوء لكتائبهم ومعابدهم^(١).

وإذا تتبعنا انتشار الإسلام فى ألبانيا، نلاحظ أنه انتشر تدريجياً وفى ببطء على أيدي أهالى البلاد أنفسهم لانتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية. وفى خلال القرن السادس عشر، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم، على الرغم من أن تيار الدخول فى الإسلام كان قد بدأ منذ حين. وفى سنة ١٦١٠م كان عدد الأهالى المسيحيين يفوق عدد المسلمين بنسبة عشرة إلى واحد. ولما كان المسيحيون يقطنون معظم القرى مع خليط قليل جداً من المسلمين، يظهر أن حالات الدخول فى الإسلام كانت أكثر منها فى المدن الكبيرة. ففي مدينة أنتيفارى مثلاً، بينما أثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة، تحولت الغالبية من هؤلاء الذين بقوا فى هذه البلاد إلى الإسلام تدريجياً، سواء الشريف منهم والروضيع، حتى أخذ عدد الأهالى المسيحيين يتناقص يوماً بعد يوم^(٢).

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٠٥ - ص ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

وقيل إن جميع أهالي ألبانيا الوسطى فى الوقت الحاضر مسلمون تقريباً، وإن ألبان الإسلام يؤلفون نحو ميتين فى المائة من أهالي ألبانيا الشمالية، ويحتفظ الأهلالي المسيحيون بأكبر نسبة فى ألبانيا الجنوبية، ولا سيما فى المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان(١).

انتشار الإسلام فى صربيا:

سبقت الإشارة إلى أن مملكة الصرب فقدت استقلالها بعد الهزيمة الساحقة التى منيت بها فى كوسوفو (كوسوفا) سنة ١٣٨٩، وفى تلك المعركة فقد لازار ملك الصرب والسلطان العثماني مراد الأول حياتهما، وأصبحت صربيا ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، التى سمحت لستيفن لازاريقيش (١٣٨٩ - ١٤٢٧) - ابن لازار - بحكم صربيا بعد أن اعترف بسيادة العثمانيين، وزوج أخته من السلطان الجديد بايزيد الأول، وعقد معه تحالفاً ودياً. وفى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ انتصر العثمانيون ضد التحالف الأوروبى الصليبي. وفى ساحة أنقرة عندما سحق تيمور لك الجيوش العثمانية سنة ١٤٠٢، ووقع السلطان بايزيد نفسه أسيراً، كان ستيفن يشهد أحداث المعركة، فجارب بشجاعة فى جانب زوج أخته، وبدلاً من أن يتنزه الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصاً لهده، ووقف مع أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم. وفى عهد جورج برانكوفتش خليفة ستيفن، تمتعت صربيا بشبه استقلال. ولكنه عندما ثار سنة ١٤٣٨ غلب العثمانيون على مدينة كوسوفو مرة أخرى، وحينئذ لم يكن بد من أن يعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين. ولكن الهزيمة التى لحقت ببوحننا هونيادى فى فارنا سنة ١٤٤٤، حملت صربيا على أداء الجزية مرة أخرى للإمبراطورية العثمانية، وانتهى أمرها إلى أن صارت ولاية عثمانية فى سنة ١٤٥٩ م.

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كوسوفو مباشرة، عندما تحول عدد كبير من النبلاء الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى الدين الإسلامى، إذ طال بهم المصر ولم يلجأوا إلى البلاد المسيحية المجاورة، حتى يضمنوا سلامة ما كسبه من مزايا قديمة. وقد وجد السلطان العثماني فى هؤلاء النبلاء الداخلين فى الإسلام أشد الدعاة تحملاً للدين الجديد. ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربى ظل متمسكاً بدينه القديم فى خلال الفترة التى تحملوا فيها المتاعب والمشاق. أما فى متار صربيا Stars Serbia أو الصرب

(١) المرجع السابق، ص ٢٢١.

القديمة وحدها، التي تؤلف الآن الجزء الشمالى الشرقى من ألبانيا الحديثة، فقد كان هناك عدد هائل نوعاً ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، بل لقد سار انتشار الإسلام هنا بخطى وبيدة جداً حتى القرن السابع عشر الميلادى^(١).

انتشار الإسلام فى البوسنة:

تعتبر «الدفاتر» العثمانية خير مصدر للمعلومات، وهى سجلات الضرائب التى سجل فيها مالكو المقارات، والتي تقسم الناس إلى فئات حسب أديانهم. فمن هذه الدفاتر والبيانات، يمكن عمل استيفاء التفاصيل حول انتشار الإسلام فى البوسنة. وتظهر أقدم الدفاتر (١٤٦٨ - ١٤٦٩) أن الإسلام كان محدود الانتشار فى السنوات القليلة الأولى بعد الغزو. وفى منطقة شرق ووسط البوسنة التى تغطيها تلك السجلات، كانت هناك ٣٧١٢٥ داراً للمسيحيين، بينما لم تكن للمسلمين سوى ٣٣٢ داراً. فلو فرضنا أن بكل دار خمسة أفراد فقط فى المتوسط، لأعطانا ذلك عدداً يصل إلى ١٨٥٣٢٦ مسيحياً^(٢).

والدفتر التالى الذى حل محل تحليله وأقياً، يغطى البوسنة لعام ١٤٨٥، وهو يظهر أن الإسلام قد بدأ يحدث تقدماً له ضخامته. وتسجل لنا دفاتر عشرينيات القرن السادس عشر أرقاماً كلية حول منجقية البوسنة، بشكل فيها المسيحيون ١٩٠٠٩٥ فرداً، والمسلمون ٨٧٥٧٥. ونظراً لأننا نعرف أنه لم تكن هناك هجرة واسعة المدى للمسلمين إلى داخل البوسنة أثناء تلك المدة، فإن الرقم يتنبأ أن يمثل اعتناق البوسنيين المسيحيين للإسلام^(٣).

وما لبثت عملية اعتناق الإسلام أن زادت سرعتها تدريجياً فى هرزوجوفينا (الهرمك)، إذ أن هناك تعليقاً صدر عن أحد الرهبان الأرثوذكس بالهرمك فى سنة ١٥٠٩م، وفيه يلاحظ أن كثيراً من أفراد الشعب الأرثوذكسى قد اعتنقوا الإسلام عن رضا وقبول. وفى شمال البوسنة وشملها الشرقى لم يتيسر لانتشار الإسلام أن يتم إلا ببطء فى مواكبة التوسع على حساب المجر. وما أن اكتمل الفتح فى عشرينيات القرن السادس عشر، حتى انتشر الإسلام بصورة أسرع قليلاً^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٢) مالكو لم: البوسنة، ص ٨٧.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) نفس المرجع، ص ٨٨.

ولاشك أن الفكرة القدالة بأنه جرى تحويل جماعى للبوسنيين إلى الإسلام فى السنوات الأولى التالية للغزو، إنما هى فكرة واضحة الزيف، فإن عملية التحويل للإسلام كانت بطيئة فى البداية فى أحيان كثيرة واستغرقت عدة أجيال، ولكن الأهالى كانوا يعتقدون الإسلام بمحض إرادتهم المطلقة. وتسير الدفاتر، بوصفها دليلا وشاهداً، إلى عدم وجود أدنى تعرض للمسيحيين الذين أصروا على النكس بعقيدتهم، وكان من الأشياء الطبيعية لدى الأهالى أن يصبحوا مسلمين، ويسموا بالأسماء الإسلامية، ومع ذلك يواصلون المعيشة مع بقية عائلتهم المسيحية^(١).

وهناك أيضاً نظرية خاطئة أخرى حول إسلام البوسنة ومازالت شائعة، وإن تقوضت على يد البحث التاريخى منذ سنة ١٩٣٠ وما بعدها، وهى الادعاء بأنه عندما فتح العثمانيون البوسنة، اعتنقت هيئة النبلاء المحلية بأجمعها الإسلام، بغية الاحتفاظ بأراضيها الإقطاعية. وقد شاعت هذه النظرية فى القرن التاسع عشر على يد الفرنسيكانى والوطنى السلافى إيفان فرانجو يوكيتش Ivan Franjo Jukich الذى أصدر كتابا فى سنة ١٨٥١م عن تاريخ البوسنة تحت إسم مستعار هو «سلافولوب بوشنياك» Slavoljub Bosnjak أى البوسنى المحب للسلاف. وقد أكد فى كتابه هذا أثناء حديثه عن الأرستراطية المسلمة فى البوسنة: «أنهم نشأوا عن المسيحيين القامسين الذين تحولوا إلى مسلمين، لأن التحول إلى الإسلام كان سبيلهم الوحيد للاحتفاظ بأراضيهم. واحتفظت لهم العقيدة الجديدة بممتلكاتهم وثروتهم وحررتهم من كل الضرائب والمدفوعات، وأعطتهم تفويضا كاملا للانغماس فى كل رذيلة وإتيان كل شر، وذلك من أجل أن يعيشوا كالسادة العظام دون بذل أى تعب أو جهد»^(٢). وفى ثلاثينيات الألف وتسعمائة لاحظ المؤرخ فاسو تشوميريلوفيتش Vaso Chu brilovic أن قلة ضئيلة من ملاك الأراضي البوسنيين القدماء أصبحوا فعلا من القرمان (السباهية) واحتفظوا ببعض مزارعهم، ولكن كما لاحظ هو أيضا، لم يكن من المحتم عليهم أن يصبحوا مسلمين لكى يحتفظوا بتلك الأرض. وكان المسيحيون القرمان (السباهية) موجودين بوفرة أثناء السنوات الأولى للبوسنة العثمانية، وهناك واحد شهير منهم

(١) نفس المرجع، ص ٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.

أصبح «جراح باشي» أى كبير الجراحين فى حاشية والى البوسنة فى سبعينات الألف وأربعمائة، كان يدعى فيلاه سفينيار يفيتش Vlah Svinjarevic وتعنى ابن راعى الخنازير، وهو إسم غير إسلامى بشكل يلفت النظر^(١).

وهناك فكرة شائعة تقول بأن بعض الأهالى اعتنقوا الإسلام رغبة فى تخمين مركزهم الاقتصادى أو الاجتماعى أمر لاسبيل إلى إنكاره، لأن هذه الاتجاهات للنفعية موجودة بين كل البشر. ولا مفر من أن يكون هذا الدافع وراء اعتناق الكثيرين للإسلام. بيد أن الدافع الاقتصادى لا يمكن أن يكون هو المبرر الوحيد كما تزعم إحدى النظريات التى ترى فيه محاولة لتجنب دفع الضرائب المقررة على غير المسلمين، وهى الجزية^(٢).

انتشار الإسلام فى الأناضول:

كان الإسلام ينتشر لاربع فى مسيحى الأناضول فى العصر السلجوقى. ولابد أن المخالطة الطويلة بين المسلمين والمسيحيين، وما كان للمسلمين من مركز خاص فى إدارة الدولة، ورغبة غير المسلمين فى التخلص من بعض الأعباء، لاشك فى أن هذه العوامل البكلوجية والاقتصادية قد ساعدت كلها على حركة الدخول فى الإسلام^(٣).

وإذا استثنينا مناطق غرب الأناضول والبلاد الساحلية، نستطيع أن نقرر أن الأناضول كان قد «ترك» إلى حد كبير فى أواخر القرن الثانى عشر، الميلادى بفضل كتل من الترك أكشف من الكتل التركىة التى كانت تقطن شمالى سوريا والعراق والجزيرة وإيران وأذربيجان^(٤).

وإذا كان ظهور المغول قد عمل على زيادة الهجرة فى مناطق الأناضول، فإنه عمل على زيادة كثافة العنصر التركى الإسلامى فى الأناضول الذى كان قد فتح حديثا، لأن الأناضول يقع فى أقصى الغرب من العالم الإسلامى، كأنه بمنجى من الخطر المغولى^(٥).

(١) المرجع السابق، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣) فؤاد كوبرل: قيام الدولة العثمانية، ص ١٣٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٠.

وقد سبق الإشارة إلى أن الرحالة ابن بطوطة الذى عبر بلاد آسيا الصغرى سنة ١٣٣٠م، رأى تلك البلاد بما فيها من مدن وقرى تحمل أسماء تركية صرفة، الأمر الذى يعطينا صورة مذهلة عن التحول الذى حدث، ونقصد بذلك «التشريك الفعال» لآسيا الصغرى ودخولها فى الإسلام^(١).

وعلى الرغم من الدعاية التى كانت تزارلها المدارس الدينية والطرق الصوفية المستقرة فى مدن الأناضول، لم تقع بين المسلمين والمسيحيين من يعيشون تحت حكم واحد فى مناطق الحدود أية خصومة ترجع إلى مسبب دينى. ونستطيع دون أدنى تردد أن نصحب هذه الحقيقة التاريخية وهى انعدام العداء الدينى بين المسلمين والمسيحيين على كل تاريخ الأناضول طوال العصور الوسطى المتأخرة^(٢).

ومع أن المسلمين والمسيحيين كانوا يعيشون فى مناطق متعادية على الحدود تجلّى على جانبيها الخصومة بين الترك والبيزنطيين، فلم تقع بينهم أى عداوة دينية، حتى ليقرر المؤرخون البيزنطيون أن الروم الذين كانوا يعيشون فى جزر بحيرة يكشهرى - وهى يومذاك من مناطق الحدود - كانوا يصطنعون لقوة الأوامر بينهم وبين الترك تقاليد الترك وعاداتهم، ويعقدون معهم علاقات الصداقة، ضارين صفحاً عن أوامر الإمبراطور البيزنطى^(٣).

وعلى أية حال، يمكننا أن نقرر ببساطة أن الدخول فى الإسلام بالأناضول قد تم بالتدريج ونسبة محدودة، وأن نسبته لم ترتفع فى عهد الإمبراطورية العثمانية إلا بعد أن رمت قدمها فى البلقان، أى فى القرن الخامس عشر على الأكثر. ثم مازال الدخول فى الإسلام يتزايد بعد ذلك فى القرنين السادى عشر والسابع عشر^(٤).

نظام الدوشرمة (ضريبة الغلمان):

هى ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنية

(١) أنظر ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) فؤاد كوريلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٣١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٦.

الأرثوذكسية الشرقية، وكلمة الدوشرمة أصلاً يونانية تعنى جمع الأولاد من العائلات المسيحية، وكان هؤلاء يمثلون خمس أطفال الشعوب المهزومة في مقدونيا والصرب وبلغاريا وألبانيا والمجر وغيرها كحصّة بيت مال المسلمين. وكانت الدولة العثمانية تجمع أطفال الدوشرمة، وهم صغار، وتحويلهم إلى الدين الإسلامي، وتنظم لهم دراسات علمية مدنية وعسكرية، لتجعل منهم أدوات إسلامية للقتال والحكم في خدمة الدولة^(١). وقد ملأ أطفال الدوشرمة - بعد تعليمهم وتدريبهم - صفوف فرقة الإنكشارية وقوة الخيالة النظاميين، ومنهم كانت تستقى نسبة كبيرة من كبار موظفي الدولة، وباتساع الدولة كان الأتراك يشكلون الفئة المهيمنة، على حين أن أطفال الدوشرمة كانوا يشكلون قمة جهاز الحكم وسيطرون على الأتراك ذاتهم^(٢).

وكانت الحكومة العثمانية ترسل وكلاء إلى المناطق المأهولة بالعائلات المسيحية، فيجتمع كل من هؤلاء الوكلاء بقميس القرية، ويطلب منه كشفاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم. ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الطفل، بل كل ما في الأمر أن الدولة تحدد لكل وكيل عدد الأطفال الذين يضمن إحضارهم للسلطان. وكان العثمانيون يمارسون في العادة جمع الأطفال من الريف والقرى، وكانوا يأخذون أولاد المزارعين، ومما يجدر ذكره أن العثمانيين كانوا يستجيبوا لدواعي الرحمة، فلا يأخذون الطفل وحيداً وباليه، ولا الأطفال الذين في سن الرضاعة، لأن أمثالهم يشكلون عبئاً ثقيلاً على الموظفين المختصين بتنشئة الأطفال وتربيتهم. وكانت الحكومة العثمانية لاتأخذ الأولاد الذين تجاوزوا الحلم، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم وعن يثمتهم الأولى. ولذلك كان وكلاء الدولة العثمانية يأخذون في معظم الأحوال الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سن السابعة ومن العاشرة. ومنذ أن يتحرك الوكيل بهؤلاء الأطفال إلى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بين هؤلاء الأطفال ورضعهم^(٣).

(١) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٢٠.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: في أصل التلويح العثماني، ص ٤١.

(3) Gilb (H.A.R.) and Bowen (H.), Islamic Society and the West, Vol. I., Islamic Society in the Eighteenth Century, pp. 56-60,

عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١.

وكان الوكيل الحكومى يخرج من القرية بحصيلة مالية وشرية، وتتمثل الحصيلة المالية فى الرشوة التى يحصل عليها من بعض الآباء المومنين فى سبيل التغاضى عن جمع أولادهم. وكنت هذه الحصيلة تختلف قلة وكثرة تبعا لدرجة ثراء الآباء من ناحية، ومدى جشع الوكلاء من ناحية أخرى^(١). ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يقررون أن غالبية الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم، ونظروا إلى العملية كلها على أنها امتياز لهم أكثر منها عبئا نفسيا ثقيلا. ويؤكدون هذا الرأى بقولهم إن المعاملات الملحة كانت تطلب إلى الأسر المسيحية أن تقدم أولادها المسلمين إلى وكيل الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلا من أولاد هذه الأسر المسيحية. وكانت مزايا نظام الدوشرمة واضحة أمام أعين المسلمين من البومنة الذين رتبوا لإرسال ألف من أبنائهم فى سنة ١٥١٥ إلى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الإمبراطورى. وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصيلة الدوشرمة على أنهم مسيحيون. وبذلك تسرى، فى غفلة من الحكومة، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التى تعود على أبناء الأسر المسيحية^(٢).

ومن المرجح أن تطور الدوشرمة إلى نظام يقوم على الجمع الدورى للأطفال الميحيين لملء الوظائف فى القصر والإدارة قد تم فى عهد السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢)، وطبق بوجه عام فى عهد مراد الثانى ومحمد الفاع^(٣).

وفى إستانبول كان يحول أطفال الدوشرمة إلى الإسلام، وتجرب لهم جراحة الختان، ويتلقون تربية دينية، ويحضرون دراسات، فى اللغة التركية والتاريخ الإسلامى العام والتاريخ العثمانى، فينشأون على التحصن بأهذاب الدين الإسلامى والتعلق بالدولة العثمانية، وكانوا إلى جانب ذلك يتلقون تدريبا عسكريا خاصا^(٤). وكان من بدو عليهم صفات استثنائية من الناحيتين العقلية والجسمية، يدربون باعتبارهم غلمانا فى الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية، وكان يطلق عليهم إيج أو غلاتات (مفردها إيج أوغلان). أما الباقون فكانت

(١) عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، ج١ ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق، ج١ ص ٤٨٤، ينر شوجر: أوروبا العثمانية، ص ٧٧ - ٧٨، مالكولم: البومنة، ص ٨٠.

(٣) عبد الرحمن مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٤) عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، ص ١٢٢.

الدولة تعدهم لشغل الوظائف المدنية الكبرى، ويتلقون تعليمًا عسكريًا ومدنيًا خاصًا، ووصل بعضهم إلى منصب الصدارة العظمى أى رئاسة الوزارة، وكان بإمكانهم الانخراط فى الخدمة العسكرية فى جيش القبولولو (عيد الباب العالى) (١).

وهناك ما يدل على أن الموظفين العثمانيين الذين كانوا من «الدوشرمة» أصلاً، ظلوا يتذكرون طفولتهم عندما أخذوا صغاراً من ذويهم، ويحتون إلى ذوى القرى منهم. فإبراهيم باشا الصدر الأعظم فى عهد السلطان سليمان الأول، كان من أصل يونانى، وظل فى منصبه مدة ثلاثة عشر عاماً قبل أن يشق فى عام ١٥٣٦ لارتكابه أخطاء كثيرة من بينها أنه كان يحمى أقربائه ليونانيين ويرعى مصالحهم، ومحمد صققوللو الصدر الأعظم (١٥٦٤ - ١٥٧٩) لم يكن يتصل فقط اتصالات خاصة بعائلته، بل ساعد أيضاً أهالى الصرب من خلال محاولة إقناع السلطان بإعادة تأسيس أسقفية بيك Pec فى عام ١٥٥٧ بالاشتراك مع أخيه رئيس الأساقفة، حتى أن يتولى منصب الصدر الأعظم (٢).

الإنكشارية:

إن القوة الحقيقية للجيش العثمانى فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى كانت تكمن فى جماعة الإنكشارية (المشاة النظاميين) والسباهية (الخيالة). فطبقاً للشريعة الإسلامية كان غير المسلمين من سكان دار الحرب هم وحدهم الذين يحل استرقاقهم، كما أن حكماً آخر من أحكام الشريعة كان يخص للإمام خمس الغنائم بما فى ذلك الأسرى من غير المسلمين. وكان السلاطين العثمانيون منذ البداية يعتبرون أئمة بالدرجة التى تؤهلهم للتمتع بهذه الميزة، ومن ثم امتلاكهم عدداً كبيراً مطرد الزيادة من الأسرى الأرقاء الذين كان يبيعهم أمراً عادياً (٣).

وكان للسلطان حق الاختيار الأول فى الأملا ب والغنائم، ونضلاً عن ذلك كان السلطان يشتري الأسرى الصغار الأقوياء بأرخص الأسعار، ويصنفون كأبناء بالتبني وعبيداً له. وقد أطلق عليهم السلطان «الفرق الجديدة» التى تسمى بالتركية بنى شرى

(١) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) بيتر شوجر: المرجع السابق، ص ٧٧.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢.

(Janissazies) Yeniceri ، وبعد أن يتم ختانهم وتحويلهم للإسلام، كان السلطان يقوم بتعيينهم حراساً له، ويكافأهم بالهدايا الكثيرة، ويسمح لهم المناصب العالية، ويسمح لهم السلطان بشاركتهم الطعام والشراب، ويحضر عليهم كما يحضر الأب على أطفاله^(١).

ويذهب المؤرخون العثمانيون إلى أن فرقة الإنكشارية يرجع إنشاؤها إلى عهد أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٢) ابن السلطان عثمان وخلفه، وإلى أخيه وكبير وزرائه علاء الدين، وإلى قره خليل چاندارلى صهر الشيخ إده بالى، وكانت الفرق الأساسية عند العثمانيين قبل هذا العصر - كما كانت الحال فى الجيوش الفارسية - هى فرق الفرسان الذين يسمون قينجى (الفرسان الخفاف) يشد أروهم الجنود المشاة الذين يسمون بالفارسية «بيادة» وبالتركية «يايا»، ويرجع أن الذى ألوحى إلى الترك أن يعززوا فرسانهم بجنود مشاة مدربين هو ما شاهدوه من فرق الجيوش البيزنطية^(٢). وهنا نلاحظ أنه لا يوجد دليل على أن فرقة الإنكشارية كانت أداة للتحويل القسرى إلى الإسلام عن طريق إدخال أولاد المسيحيين إلى الجيش العثماني قبل عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩). ولما كان المؤرخون يجمعون على أن الإنكشارية لم يبدؤوا إلا من مسيحي أوروبا، فلم يكن باستطاعة أورخان أن يفكر فى القيام بذلك، لأن المشكلة التى جرى حلها بهذه الكيفية لم تنشأ إلا بعد وفاته^(٣).

ويقال إن مصطلح «إنكشارية - بنى شرى» مصدره درويش هو الحاج بكناش الذى استنار الحديث عنه بعد قليل. ذلك أن السلطان أورخان قد اصطحب الطليعة الأولى من هؤلاء المجندين إلى مسكن الحاج درويش بأماسيا، ورجاه أن يباركهم ويخلع عليهم أسماء، فوضع بكناش كفه فوق رأس أحد الواقفين فى الصف الأول، ثم قال للسلطان: «إن القوات التى أنشأتها ستحمل اسم بنى شرى، وستكون وجوههم بيضاء وضاء، وستكون

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks., p. 135, lodge, The close of the Middle Ages, p. 500.

(2) Hearsey, City of Constantine, p. 185, Creasy, Turkey, p. 19. Schevill, The Hist. of the Balkans, p. 182.

دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الإنكشارية».

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٤٣.

أذرعهم اليمنى قوية، وسيوفهم بثارة، وسهامهم حادة، وسيفقون في المعارك، ولن يرحوا ميدان القتال إلا وقد انعقدت لهم ألوية النصر. وبخيلداً لبركة الحاج بكشاش، كان الإنكشارية يضعون على رؤوسهم قلنسوة من الصوف الأبيض، شبيهة بقلنسوة الدرويش من خلفها قطعة طويلة من القماش اسطوانية الشكل، باعتبارها رمزاً لكم الحاج بكشاش الذي بارك به ربة زميلهم^(١).

ونمة فريق من المؤرخين يشككون في صحة تلك الرواية بل بنفونها نفيًا باتاً، على أساس أن الحاج بكشاش كان قد توفي قبل إنشاء فرق الإنكشارية بقرن من الزمان. ولكن الثابت تاريخياً أن الإنكشارية كانوا ملتصقين اتصاقاً قوياً بالطريقة البكاشية^(٢).

ونوصفهم عبيداً للسلطان (بالتركية قول)، فإن الإنكشارية كانوا يربون في روح ولاء وانضباط مطلقيين. وكان يجري إنزال العقاب عن المخالفات التي يرتكبها أى إنكشارى عن طريق الضرب بالمصى، أو النقل الذى ينزل بالمخالفين إلى رجال حاميات عادييين في قلاع المقاطعات. وفي الأصل، كان يحرم على الإنكشارية الزواج طلالا يقومون بالخدمة العسكرية، وألغى هذا التحريم في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠)، وشير هذا إلى مرحلة هامة في تطور الإنكشارية. فعند ذلك الوقت كتب جيفرى حوالى عام ١٥٤٠ قهلاً: «يسكن المتزوجون مع زوجاتهم، ويسكن الآخرون في بيوت معينة خاصة بهم، منظمين في أى مكان أوحى من إستانبول، حيث يسكن كل ثمانية أو عشرة أو إثني عشرة أو أكثر معاً»^(٣).

ويتضح من السجلات العثمانية أن عدد فرقة الإنكشارية في الأصل كان ستة آلاف إنكشارى، ثم نمت وزداد عددها سنة بعد أخرى، ففي عهد السلطان مراد الأول وصل عددها إلى عشرة آلاف إنكشارى، وفي عهد محمد الفاتح ١٢٠٠، وفي عهد سليمان القانونى ٢٠٠٠، وفي عهد محمد الرابع - منتصف القرن السابع عشر - لم يزد عدد

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «إنكشارية»، عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثمانى، ص ٤٣، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٩.

Creasy, Turkey, p. 4.

(٢) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج١، ص ٤٨١.

(٣) جيل فيشتاين: «الإمبراطورية العثمانية في عظمها»، في تاريخ الدولة العثمانية، ج١ إشراف روبر مانتزان، ترجمة بشر السباعى، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

الفرقة عن ٤٠٠٠٠، وفي خلال ٣٠٠ سنة قدر أن ما يزيد عن خمسة ملايين من الأطفال المسيحيين قد أصبحوا إنكشارية^(١).

ولم يكن هناك لأحد ميادة على الإنكشارية سوى قائدهم والسلطان العثماني. وكان معروفنا عنهم شهرتهم كمحاربين مهرة وولاتهم المطلق للسلطان. وحاربوا كمشاة استخدموا السهام. والإنكشارية جعلوا الجيش العثماني من أفضل جيوش المصرة، إن لم يكن أفضلها^(٢)، حتى القرن السابع عشر.

ولاشك أنه لايمكن اتهام السلطان العثماني بأنه سار على سياسة شاملة تتجه إلى التشريك أو العمل على اعتناق الإسلام بالإجبار. ومن الواضح أنه يجند الإنكشارية من الرعايا المسيحيين ويحولهم إلى عثمانيين، لكن النسبة المئوية للأولاد المجندين لتشكل قوة الإنكشارية ضيلة جداً بالقياس إلى حجم سكان الإمبراطورية العثمانية. وفصلاً عن ذلك، فإن الانضمام إلى الإنكشارية، التي تعتبر نخبة، يتيح للعناصر القادرة فرصة الوصول إلى أعلى المناصب، ولهذا لم يكن التجنيد الإجباري للأولاد المسيحيين يقابل دائماً استقبالا ميثا من جانب الرعايا المسيحيين^(٣).

وفي حوالي سنة ١٥٠٠م تم سايح الإنكشارية ببنادق يدوية، وكان رسخ أقدامهم في القتال، وترايطهم في جماعات محاربة، ومهاراتهم في استخدام هذه الأسلحة قد نسب في اندحار الجيوش المملوكية، وفي التعجيل بفتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر خلال عامي ١٥١٦ و ١٥١٧. كما شنت الإنكشارية آخر محاولة ياقمة لسلاح الفرسان المسيحي في معركة موهاكس الفاصلة، تلك المعركة التي انتهت بانتقال ملكة المجر لحكم السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٢٦^(٤).

(1) Derekson, The Crescent and the Cross, p. 115.

(٢) جوزيف داهموس: سبع ممالك فاصلة في تاريخ العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاهر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٩٩.

(٣) نيكورا بيلدسينو: تنظيم الإمبراطورية العثمانية (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)، في تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١٩٨.

(٤) كولوز، العثمانيون في أوروبا، ص ٥٦.

وفى الأوقات التى لم تكن مستلزم قيام الإنكشارية بمهام الحرب كان يمهّد إليهم بالمحافظة على الأمن فى أهم مواقع الإمبراطورية العثمانية. وفى إستانبول كانوا يقومون بحراسة الديوان أثناء اجتماعاته التى يرأسها السلطان، كما كانوا يقومون فى المدينة بمهام الشرطة وقوة المطافئ وبحراسة بوابات المدن الهامة والحصون، وشكلت قوات الشرطة فى الولايات. وقد زاد محمد الفاعخ روائب الإنكشارية وامتيازاتهم إلى حد كبير بعد فتح القسطنطينية. وحين اتسع ملك العثمانيين فى أوروبا جرى اختيار غلمان الإنكشارية من أوروبا بدلا من آسيا، وخاصة من بلغاريا وألبانيا والبوسنة. على أنهم مالبثوا أن شكلوا قوة صياحية فى الدولة. وفى أواخر القرن الخامس عشر قاموا بثورة أمكن إخمادها. ومنذ عهد محمد الفاعخ أصبح من المعتاد أن يقوم كل سلطان جديد بتوزيع «نقود الإنكشارية» لضمان ولائهم^(١).

وعلى أية حال، وجد السلاطين العثمانيون فى الإنكشارية ولاء وإخلاصا وشجاعة فى القتال، حتى صاروا مصدر رعب وفزع لأوروبا المسيحية، فهم الذين اقتحموا أسوار القسطنطينية سنة ١٤٥٣^(٢). وفى ذلك يقول المؤرخ لودج^(٣) Lodge: «ولمدة قرنين لم تستطع أية قوة حرية التغلب على الإنكشارية.. ويفضلهم ضمن العثمانيون انتصار الهلال بأطفال الصليب، ودربوا الأولاد المسيحيين على تدمير استقلال ونفوذ بلادهم وكنيتهم». وفيما بعد تغيرت أحوال الإنكشارية، فصاروا مصدر الأذى والخراب لحياة كل مكان تركيا، بما فيهم السلطان العثماني نفسه، الأمر الذى جعله السلطان المستر محمد الثانى يصدر أمرا بالقضاء عليهم فى سنة ١٨٢٦ لتراح منهم الناس^(٤).

السباهية:

كانت قوة الفرمان التى يكونها السباهية أكبر قوات الدولة العثمانية العسكرية، وكانوا يقومون بما يوكل إليهم من مهام عسكرية، مقابل الإقطاعات التى منحتها لهم الدولة

(1) Castellan, Hist of the Balkans., p. 75,

عبد الرحيم مطفى: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(2) Hearsey, City of Constantine 324-1453, p. 228.

(3) The Close of the Middle Ages., p. 500.

(4) Hearsey, op. cit., p. 228, Eliot, Turkey in Europe., p. 60.

مقدماً. وبعبارة أخرى كان السلطان يمنح أرضاً زراعية لأفراد من الفرسان، ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين. وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعيات، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش العثماني عن طريق الإقطاع الحرى إسم السباهية^(١).

ينسب إلى أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) استخدام السباهية في الجيش العثماني لأول مرة، وقاموا في بداية الأمر بمهمة الحرس الشخصي للسلطان، ويتزايد عددهم أصبحوا يشكلون قلب الجيش وعصبه، وكان القوس والسهم سلاحهم الرئيسي، أو على الأقل السلاح الذي استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة. وما أن تنفذ مهامهم، ويصبحوا على مقربة من العدو، فإنهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة والوحيد الحد، وكذلك الخناجر^(٢).

ومن المعروف أن العثمانيين احتفظوا بعبداً كان متبعاً أيام السلاجقة يقضى بأن تقسم الأراضي المفتوحة إلى إقطاعيات متفاوتة المساحة والقيمة، تعطى أهلها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية، وتعطى أحسنها وأكبرها بصفة (زعامت) للقادة الأكبر مركزاً وكفاية قتالية، بشرط أن يسلحوا عدداً من الجند يتناسب مع إقطاعياتهم. ولما كانت أراضي السباهية وراثية، فقد ولدت نوعاً من الأرستقراطية الزراعية متينة الأماس، وكانت هذه الطبقة من الناس التي تتوقف مصالحها وإيراداتها على الزواج الاقتصادي في القرى الممنوحة لها، كانت تمثل الحكومة - على نحو ما - في مناطقها، وكان لها دور كبير في تقديم الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر في رخائها^(٣).

وكان الإقطاع الذي يمنح للسباهي يطلق عليه التيمار Timar وطلق على حائزه تيمارجي، وكانت الأرض ملكاً للسلطان، ولم يكن لورثة صاحب التيمار أى حقوق قانونية في وراثتها (وإن كان الميراث هو العرف المرعى). وكان أصحاب هذه الإقطاعيات ملزمين أن يتجمعوا ومعهم أسلحتهم وخيولها عندما يستعدون لأداء الواجب العسكري،

(١) عد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٣٠.

(٢) جوزيف فاهمور: سبع معارك فاصلة، ص ١٩٨.

(٣) فؤاد كوريلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٧٠ - ١٧١.

وكان عليهم أن يحضروا معهم جنداً آخرين ويدفعوا لهم أجورهم، بما يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الحرى ومع الإيرادات التى تفلها هذه الإقطاعيات^(١). وكان أصغر الساهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون أتباع، راجعين خيولهم، ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم^(٢).

وهكذا كان الإقطاع أو التيمار يقوم مقام الرب فى مقابل استمرار السباهية فى القيام بواجباتهم العسكرية وإعالتهم لأتباعهم وإمدادهم بالأسلحة والمؤن والطعام، مما تحتاج إليه الحملة العسكرية. وكان السباهية يعيشون فى القرية التى توجد بها أراضي التيمار ويقومون بجباية الضرائب من الفلاحين، وهى فى العادة ضرائب نوعية. وكان على الفلاحين أن يوفرُوا للسباهية نصف المحصول، بالإضافة إلى كميات من العلف والدريس والخشب. وكان بإمكان الفلاح أن يشغل الأرض طالما يقوم بزراعتها ويدفع الضرائب المقررة عليها، كما كان بإمكانه أن يورث أبناءه حتى شغلها. وفضلاً عن الدخول التى كان التيمارى يستقيها من الضرائب التى يدفعها الفلاحون، كان بإمكانه أن يخصم لنفسه قطعة من الأرض يقوم الفلاحون المأجورون أو فلاحو التيمار بزراعتها. وإلى جانب مشولية التيمارى عن ضمان فلاحه الأرضى وتحصيلها، كان مضطرب بحفظ الأمن فى القرى، وفى أوقات الحروب كان عشرة بالمائة من التيماريين يقفون فى الصف لحفظ الأمن وجباية الضرائب^(٣).

وكان نظام الإقطاع العثماني من وجهة نظر الفلاحين، ذا مزايا متعددة، ذلك أن السيد الإقطاعى غالباً ما يكون غائباً فى المعارك طوال فترة الصيف منكبا على جمع الغنائم والأسلاب، يوليها اهتماماً أكثر من اهتمامه باغتصاب ما يملكه الفلاحون التابعون له^(٤). ومن مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأفقى والرأسى فى زراعة مساحات شاسعة من الأراضي داخل الأقاليم العثمانية فى أوروبا وفى آسيا، وأطمأنت الدولة إلى أن جهوداً صادقة تبذل للنهوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الأتباع الإقطاعيين وبين الفلاحين.

(١) مالقولم، البوسنة، ص ٨٠ - ٨١.

(٢) عبد الميز الشناوى: المرجع السابق، ج ١ ص ١٣٣.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٤) كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١١٤.

كما أن هذا النظام كفل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبلغ في بعض الأحيان مائتي ألف رجل دون تكاليف، لأن التابع الإقطاعي كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه^(١). وفوق كل هذه المزايا وأهمها المستوى الحربي العالي الذي كان يتمتع به الفرسان الإقطاعيون، وقد قرر المؤرخ التركي أحمد جودت «أن أقوى قوات قتالية في الدولة العلية كانت تتكون من أصحاب التيارات والزعامات»^(٢).

وعلى أية حال، إذا أجرينا مقارنة بين حياة الفلاح في ظل الإقطاع العثماني وحياته في البورصة الإقطاعية قبل العهد العثماني، نلاحظ أن حياته في ظل الإقطاع العثماني كانت بالفعل أفضل، وبخاصة في السنوات الأخيرة السابقة على الغزو التركي، عندما كان الناس يرزحون تحت عبء الأثقال المالية الإضافية الضخمة التي تطلبها الدفاع عن البورصة ضد العثمانيين، ودفع الجزيات اللازمة لإرضائهم. وما هو ذا الملك ستيفن توماشوفيتش يكتب في أحد التحاماته التي وجهها يطلب النجدة والمساعدة قبل الغزو: «يبدى الترك نحر الفلاحين شعوراً ملؤه الرفق. وهم يعدون كل من ينطلق إليهم بأن يكون حراً، ويرحبون بهم بمتهى اللطف.. والناس سيخضعون بمثل هذه الحيل للتخلي عني»، على أن هذه الحيل لم تكن من بعض النواحي خدعة^(٣).

البكاشية:

لعبت الطريقة البكاشية دوراً هاماً في تاريخ الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر الميلادي، وقد اشتهرت تلك الطريقة باسم مؤسسها الحاج بكاش، الذي كان يعتبر قديس الأناضول في ذلك القرن. وقد أرسل إليه - كما ذكرنا - السلطان أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٢) عدداً كبيراً من الإنكشارية ليدعروهم بالخير والتوفيق، فدعا لهم الحاج بكاش بالنصر على الأعداء^(٤). وتنفق المصادر المتأخرة على أن الحاج بكاش لم يؤسس الطريقة البكاشية، بل كان مؤسسها الحقيقي فارس غامض يدعى فضل الله، إذ أن التاريخ

(١) هيد الميز الشناوي: الدولة العثمانية، ج ١ ص ١٣٨.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) مالكورلم: البورصة، ص ٨٢ - ٨٣.

(4) Hasluck (F.W.), "Christianity and Islam Under the Sultans". Ed. by Margaret

M. Hasluck, Vol. I (New York, 1973), p. 159.

التقليدى لوفاة الحاج بكتاش سنة ١٣٣٧ - ١٣٣٨ أمر يدعو إلى الشك إلى حد كبير، فى حين أن فضل الله مات فى سنة ١٣٩٣ - ١٣٩٢ شهيداً على أيدي أحد أبناء تيمور لنك، وعدموته بوقت قصير قدم نلاميزه تعاليمه إلى نزلاء صوبعة الحاج بكتاش نفسه^(١). ويرى محمد فؤاد كوبريلى^(٢) أنه ليس من التاريخ فى شىء ما يقال من أن الحاج بكتاش قد لاقى السلاطين العثمانيين أو أنه لعب دوراً فى إنشاء الجيش الإنكشارى. ومع أن الطريقة البكتاشية كانت موجودة فى القرن الرابع عشر، فإنها لم تكن أكبر أهمية من سائر الطرق الأخرى، وإنما بلغت البكتاشية أهميتها فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر^(٣).

ويقرر البعض أن الحاج بكتاش يعتبر مؤسس طائفة الدراويش التى تحمل إسمه، كما أنه بارك الإنكشارية، ولذلك كان داعية ومحارباً. ويقال إنه من خلال مرهبه أسس مبعملة نكية للدراويش، بمعدل واحدة فى كل المدن التى فتحها أورخان، وفى الأخيرة اشترك مع أورخان فى حصار مدينة بروسة^(٤). وأقدم كتاب أوربى يتحدث عن الحاج بكتاش هو جورج المجرى، الذى قضى فترة طويلة من الأسر فى تركيا بالقرب من إسكى شهر فى الجنوات الأولى من القرن الخامس عشر، وعرفه بالقديس وراعياً للحجاج. أما عاشق باشا زادة أقدم مؤرخ تركى، والذى كانت علامته من منطقة كيرشهر Kirshehr، حيث دفن الحاج بكتاش، فإنه ينكر ارتباط بكتاش بالسلطان أورخان، قائلاً: «لم يكن للحاج بكتاش مطلقاً أى علاقة بالسلاطين العثمانيين، فقد أتى من خراسان مع أخيه منتش Mentish، واستقروا فى سيواس بالقرب من «بابا إلياس»، ثم توجهوا بعد ذلك إلى قيصرية. ومن هذه المدينة رجع أخوه، إلى بلدهما عن طريق سيواس، بيد أنه قتل فى الطريق. أما بكتاش فينما كان فى طريقة من قيصرية إلى كازايوك مات، ودفن هناك، حيث لازال يوجد قبره المقدس»^(٥).

(1) Ibid., p. 160.

(٢) قيام الدولة العثمانية، ص ١٦١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(4) Hasluck, op cit., Vol. II, p. 488.

(5) Ibid., pp. 488-489.

ويقال إن والد بكتاش ظهر أنه السيد سلطان إبراهيم، الذى كان حاكماً لولاية
 بجراسان. وعندما ولد أطلق عليه والده إسم بكتاش، ومعنى ذلك «المصاحب فى الرتبة»، أو
 «المساوى لأمير». وعندما بلغ بكتاش من الرابعة، عهد به والده إلى شخص يدعى لقمان
 بيرند لتعليمه، وهو أحد حوارى أحمد ييسى Ahmed Yesevi الشيخ التركى الشهير
 فى آسيا الوسطى. ولم يكد لقمان يدخل حجرة الدراسة حتى رأى شخصين يعلمان بكتاش
 القرآن الكريم. وعندما سأله والده عن هذين الشخصين، أجاب أن الشخص الذى كان على
 يمينه هو جده «محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام»، وأما الذى كان على يساره فهو
 «عمود القدسية، حامل كأس الكوثر، أسد الله، سيد العالم، قائد المؤمنين على المرتضى». وأضاف
 بكتاش أن أحدهما كان يعلمه العلم الخارجى والآخر العلم الباطنى، وكان الإثنين
 يستخدمان القرآن الكريم، ويؤمن بكتاش أنه أخذ من على بن أبى طالب القوة التى تمكنه
 من صنع المعجزات، كما منح على بن أبى طالب. «علامة»، وهى بقعة خضراء مضيئة
 فى كف يده، وبقعة مشابهة فى جبهته. ويقال إن لقمان أراد بعض الماء للوضوء، بدأت
 الماء تنساب من يد بكتاش وعندئذ اندهش لقمان وصاح قائلاً: "Ya Hunkâr" ومعناها
 «أه أيها السيد». ولازال هذا اللقب يستخدم حتى الآن^(١).

أما اللقب الثانى الذى عرف به بكتاش، فهو الحاج. وفى ذلك يروى أن معلمه لقمان
 توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وبعد أن طاف حول الكعبة توجه إلى جبل
 عرفات، وهناك وقف لقمان ومعه أصحابه، ولاحظ أن اليوم الذى توجه فيه إلى عرفات هو
 اليوم السابق على تقديم الأضحية، وفى الحال جلب له بكتاش مينيّة حافلة بالطعام،
 وبذلك أعطى بكتاش لقب حاج^(٢).

ومن المعجزات التى تروى عن الحاج بكتاش أن أحمد ييسى أرسله إلى بلاد الروم،
 وهو الإسم الذى أعطاه المسلمون لآسيا الصغرى، بعد أن أعطى له إقليم سلوسا كارايوك
 Soluca kara Uyuk، وفى أثناء سفره حدثت معجزات، فنسب إليه أن أسدين قد
 هاجماه. ولكنهما سرعان ما تحولا إلى حجر. وعندما مر على نهر ملء بالسلك، خرج

(1) Birge (John Kingsley), The Bektashi Order of Dervishes. (London, 1965), p.

(2) Ibid., p. 36.

السكك من الماء وحياءه. وقد زار الحاج بكتاش أولاً مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ودمشق، وحلب، ثم بعد ذلك آميا الصغرى، حيث توجه إلى عين تاب وإبلتين وقيصرية. وقد خاف الدراويش أن يأخذ الحاج بكتاش مكانتهم، فأغلقوا الحدود لمنعه، فما كان منه إلا أن قفز إلى ذروة عرش الرحمن، حيث حمكه الملائكة. ثم غير شكله إلى حمامة وهبط إلى الأرض على صخرة في سلوسا كارايوك، وهناك أتى إليه للمريد يزيد البسطامي في شكل نسر، ثم تحولت الحمامة إلى رجل وأمسك بالنسر، ثم أرسله الحاج بكتاش لدعوة الدراويش لمقابلته، وبعد أن اجتمعوا به شاهدوا معجزات حدثت على يده^(١).

ومن أشهر المعجزات التي جاءت في التراث البكتاشي، أن السيد محمود حيران من أكشير AK Sehir سمع عن الحاج بكتاش، فتوجه لمقابلته، ولكي يربه مدى ما عليه من قوة امتطى ظهر أسد، واستخدم نعبانا صوطا يلهب به ظهر الأسد، ومار معه ثلاثمائة من مربيه. ولكن بكتاش نشر سجادته على صخرة كبيرة، وأمر الصخرة بالتحرك. وعندما التقى الرجلان ذكر بكتاش أنه من السهولة أن تركب حيوانا وتسوقه، ولكن أن تجعل صخرة لاحية فيها تتحرك، فذلك هي المعجزة. وتبادل الرجلان الحديث، وتركوا الصخرة واقفة حيث يمكن لأي شخص أين يراها حتى للوقت الحاضر^(٢).

(1) Ibid., pp. 36-37.

(2) Ibid., p. 39.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية والعربية

إبراهيم على طرخان: (دكتور)

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٦٥).

إبن الأثير: (على بن أحمد بن أبى الكرم، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م)

الكامل فى التاريخ، ٩ أجزاء (المطبعة التجارية بالقاهرة).

أحمد عبد الرحيم مصطفى: (دكتور)

فى أصول التاريخ العثماني (القاهرة ١٩٩٣).

أحمد كمال الدين حلمي: (دكتور)

السلاجقة فى التاريخ والحضارة. (الكويت، ١٩٧٥).

أحمد مختار العبادى: (دكتور)

دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٨).

أرنولد (توماس):

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل

الحرارى (القاهرة ١٩٧٠).

أومان (تشارلز):

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. مصطفى بدر (القاهرة ١٩٥٣).

إيقانوف (نيقولاى):

الفتح العثماني للإقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة د.

مسعود ضاهر (بيروت ١٩٨٨).

بارتولد (و):

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السيد سليمان (القاهرة ١٩٩٦).

بروكلمان (كارل):

تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي (بيروت ١٩٦٥).
ابن بطوطة: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧)
مذهب رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٣٤).

بوزورت (كليفرود. أ.):

الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة د.
سليمان إبراهيم المكري (القاهرة ١٩٩٥).

بيلد بينو (نيكورا):

«تنظيم الإمبراطورية العثمانية» (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)، في كتاب تاريخ
الدولة العثمانية، ج ١ إشراف روبر مانتران، ترجمة بشير السباعي (القاهرة ١٩٩٣).

جرامون (جان لوى باكرو):

«أوج الإمبراطورية العثمانية» (١٥١٢ - ١٥١٦)، في كتاب تاريخ الدولة العثمانية،
ج ١ إشراف روبر مانتران، ترجمة بشير السباعي (القاهرة ١٩٩٣).

جوزيف نعيم يوسف: (دكتور)

العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٦٧).

حسن أحمد محمود: (دكتور)

الإسلام والحضارة العربية في آسيا الصغرى بين الفتحين العربي والتركى (القاهرة
١٩٦٨م).

حسن ميرنيا:

تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني (القاهرة ١٩٧٩).

حسن، جشي: (دكتور)

الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨).

حسنين محمد ربيع: (دكتور)

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٨).

حمين مؤنس: (دكتور)

إين بطرطة ورحلاه (القاهرة ١٩٨٠).

حكيم أمين عبد السيد: (دكتور)

قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧).

إبن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٥٠٥م).

المبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الخامس (بيروت ١٩٦٨).

خليلك إيتالجيك:

«الدولة والرعايا»، ترجمة عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، السنة الحادية عشرة، عدد ٤١، ٤٢ سنة ١٩٩٩م.

«العثمانيون، النشأة والازدهار». ف كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ج١ إشراف رزير ماتبران، ترجمة بشير السباعي (القاهرة ١٩٩٣).

دائرة المعارف الإسلامية

داهموس (جوزيف):

سبع معارك فاصلة فى تاريخ العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٧).

ديل (شارل):

البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب د. أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر. (القاهرة ١٩٤٧)

ديورانت (ول):

قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم (القاهرة ١٩٧٢).

رايس (تأماراتالبوت):

السلاجة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الدسوقي، مراجعة عبد الحميد العلوجى (بغداد ١٩٦٨).

زيمان (ستيفن):

الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على (القاهرة ١٩٦١).

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة. د. السيد الباز العرينى، ٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٩).

زيلة عطا: (دكتور)

بلاد الترك فى العصور الوسطى (القاهرة بدون تاريخ).

إبن زنبيل: (أحمد الرمال، ت ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢):

آخرة المحاليك، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦٢).

سالم الرشيدى: (دكتور)

محمد الفناخ (القاهرة ١٩٥٦).

سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)

«العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٩١).

الحركة الصليبية، جزءان (القاهرة ١٩٧٨).

أوروبا العصور الوسطى، جزءان (القاهرة ١٩٧٨).

العصر المحاليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥).

السيد الباز العرينى: (دكتور)

الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول (القاهرة ١٩٦٣).

مبولر (بوتولد):

العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة د. سهيل زكار (دمشق ١٩٨٢).

عبد العزيز الشناوي: (دكتور)

الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، جزءان (القاهرة ١٩٦٥).

عبد القادر أحمد اليوسف: (دكتور)

الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦).

عبد النعيم محمد حسين: (دكتور)

دولة السلاجقة (القاهرة ١٩٥٧).

سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩).

عزيز سوريال عطية: (دكتور)

العلاقات بين الشرق والغرب. ترجمة فليب صايريوسف (القاهرة ١٩٧٢).

عمر كمال توفيق: (دكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٧).

فأتان (يقولا):

«صمود العثمانيين (١٤٥١ - ١٥١٢)»، في كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ج١ إشراف روبر مانتريان، ترجمة بشير السباعي (القاهرة ١٩٩٣).

الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي، مولده سنة ٥١٠هـ/١١١٦م)

تاريخ الفارقي، تحقيق د. بدرى عبد اللطيف عوض (بيروت ١٩٧٤).

فامبرى (أرمينوس):

تاريخ بخارى، ترجمة، د. أحمد محمود السادني، مراجعة د. يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٦٥).

فؤاد عبد المعطى العياد: (دكتور)

المغول فى التاريخ (القاهرة ١٩٧٥م)

فينشتاين (جيل):

«الإمبراطورية العثمانية فى عظمتها»، فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ج١ إشراف
روبير مانتيران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

القرمانى: (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى الشهير بالقرمانى، ت
١٠١٩هـ).

أخبار الدول واثار الأول فى التاريخ (بيروت، بدون تاريخ).

إبن القلانسى: (أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى، ت ٥٥٥هـ/
١١٦٠).

ذيل تاريخ دمشق، ٣٦٠ - ٥٥٥هـ، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣).

كولز (بول):

العثمانيون فى أوروبا. ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة ١٩٩٣م).

لين بول (ستانلى):

العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم (القاهرة ١٩٦٤).

أبو الحاسن: (جمال الدين يوسف بن تفرى بردى، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧١).

محمد أحمد محمد: (دكتور)

إسلام الإيلخانيين (القاهرة ١٩٨٩).

محمد حرب: (دكتور)

العثمانيون فى التاريخ والحضارة (القاهرة بدون تاريخ)

محمد عبد الله عتات:

مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢).

محمد فريد بك:

تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٨٩٦).

محمد فؤاد كوبريلي:

قيام الدولة العثمانية. ترجمة د. أحمد السيد سليمان (القاهرة ١٩٩٣).

محمد محمود إدريس: (دكتور)

تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول (القاهرة ١٩٨٢).

محمود محمد الحويري: (دكتور)

بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبين (القاهرة ١٩٩٢).

العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول (القاهرة ١٩٨٧).

رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٣).

ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي (القاهرة ١٩٨٦).

التويزي الإسكندراني: (محمد بن قاسم بن محمد التويزي الإسكندراني، ت بعد ٧٧٥هـ / ١٣٧٢م).

الإمام بالأعلام لما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية، تحقيق د. عزيز سوربال عطية (الهند ١٩٧٣ - ١٩٧٦).

هايد (ف):

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، أربعة أجزاء، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة (القاهرة ١٩٨٥).

إبراهيم علي طرخان: (دكتور)

مصر في عصر دولة المحاليلك الجراكسة (القاهرة ١٩٦٥).

ويدجرى (البان - ج):

التاريخ وكيف يفسرونه، جزآن (القاهرة ١٩٩٦).

يلماز أوزنوتا:

تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة د. محمود الأنصاري،
ج ١ (استانبول ١٩٨٨).

ثانيا: المصادر والمراجع الأوربية:

Babinger (Franz):

Mehamed the Conqueror and His Time. Trans. from the German by Manheim. Edited by William C. Hickman. (Princeton, 1978).

Barbaro (Nicolo):

Diary of the Siege of Constantinople 1453. Trans. by Jones (J.R.). (New York, 1969).

Barker (John W.):

Manuel II Palaeologus (1391-1425): A study in late Byzantine Statesmanship. (New Jersey, 1969).

Birge (John Kingsley)

The Bektashi Order of Dervishes (London, 1965).

Brice (W.C.):

"The Colonization of Anatolia", in Bulletin of the John Rylands library. Vol. 38 (1955-1965).

Cahen (Claude):

"The Turkish Invasion: The Selchukids", in Setton (ed.), A Hist of the Crusades. Vol. I (Philadelphia, 1955).

Castellan (Georges)

Hist of the Balkans. from Mohamed the Conqueror to Stalin.
Trans. by Nicholas Bradley. (New York, 1992).

Charanis (Peter):

"The Byzantine Empire in the eleventh Century", in Setton (ed.), A Hist of the Crusades. Vol. I.

The Strife among the Palaeologi and the Ottoman Turks.,
1370-1402", Byzantion, 16 (1942-1943).

Clissold (Stephen)

A Short Hist of Yugoslavia. (Cambridge, 1966).

Creasy (Sir Edward):

Turkey, revised and ed. by Archibald Cary Coolidge and W.
Harold Clavin (U.S.A., 1928).

Darby (H. C.), Seton -Watson (R.W.), Auty (Pyyllis Laffan (R.G.D.) and Clissold (Stephen). Ed. by Clissold:

A Short Hist of Yugoslavia. (Cambridge, 1966).

Derekson (David):

The Crescent and the Cross Fall of Byzantium :may, 1453.
(New York, 1964).

Diehl (Charles):

Byzantium: Greatness and Decline. Trans from french by Naomi Walford. (U.S.A., 1977).

Hist. of Byzantium. (New York, 19w45).

Hist. of the Byzantine Empire. Trans - by G.B. Ives. (U.S.A., 1925).

Eliot (Sir Charles):

Turkey in Empire. (London, 1965).

Fine (John V.A.):

The Bosnian Church, A new^t interpretation. A Study of the Bosnian Church and Society from the 13th to the 15th Centuries (New York, 1975).

Gibb (H.A.R.) and Bowen (H.):

Islamic Society and the West. Vol I., Islamic Society in the Eighteenth Century.

Grousset (R.):

The Empire of the Steppes. Trans. form the French gy Naomi Walford. (New Jersey, 1970).

L'Empire des Steppes. (Paris, 1948).

Guerdan (Pené):

Byzantium: its triumphs and tragedy. Trans. by D. L.B. Hartley. (New York, 1957).

Hacker (Joseph R.):

Ottoman Policy towards the Jews and Jewish Attitudes towards the Ottomans during the fifteenth Century. Ed. by Benjamin Braud & Bernard Lewis. (New York, 1982).

Halecki (O.):

The Crusades of Varna. A Discussion of Controversial Problems. (New York, 1943)

Halil Inalcik:

The Ottoman Empire: The classical Age 1300-1600 (London & New York, 1973).

Hearsey (John E.N.):

City of Constantine. 324-1453. (Philadelphia, 1966).

Kritovoulos (Michael):

Hist of Mohamed the conquerer. Trans. from the Greek by Charles T. Riggo. (New Jersey, (1945).

Langer (W.L.) and Blake (R.P.):

"The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background", in American Historical Review, 37 (1931-1932).

Lemerle (Paul):

A Hist of Byzantium. Trans by Antony Matthew (New York, 1964).

Levtchenko (M.V.):

Byzance des origines à 1453. (Paris, 1949).

Lodge (R.):

The close of the Middle Ages. (London, 1910).

Mantran (Robert):

"Foreign Merchants and the Minorities in Istanbul during the sixteenth and seventeenth centuries.", in Christians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard Lewis, Vol. I (New York, 1982).

Nicol (D.M.):

The End of the Byzantine Empire. (London, 1979).

Obolensky (Dimitri):

The Bogomils. A study in Balkan New - Manichaeism - (Cambridge, 1948).

Oliver (R.), Mathew (G.):

Hist of Africa. (Holland, 1967).

Osterhaven (M. Eugene):

Transylvania (U.S.A., 1968).

Ostrogorsky (G.):

History of the Byzantine State. (New Jersey, 1968).

Pears (Edwin):

The Destruction of the Greek Empire and the Story of the capture of Constantinople by the Turks. (New York, 1968).

Prestage (Edgar):

The Portuguese Pioneers. (London, 1933).

Ratchnevsky (Paul):

Genghis Khan, His life and legacy. Trans. and edited by
Thomas Bivison Haining. (U.S.A., 1992).

Runciman (Steven)

The Fall of Constantinople 1453. (Cambridge, 1965).

Roth (Cecil)

The Jewish Contribution to Civilization . (U.S.A., 1940).

Schevill (Ferdinand):

The Hist of balkan Peninsula. From the earliest times to the
present day. (New York York, 1933).

Schwoebel (Robert):

The Shadow of the Crescent. (New York, 1967).

Shaw (stanford J.):

Hist of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol. I
(Cambridge, 1977).

Spinka (Motthew):

A Hist of Christianity in the Balkans. A Study in the spread of
Byzantine Culture among the slavs (London, 1968).

Stavrianos (L.S.):

The Balkans since 1453. (New York, 1958).

Stripling (George William Frederick):

The Ottoman Empire and the Arabs. 1511-1571) U.S.A., 1977).

Vasiliev (A.A.):

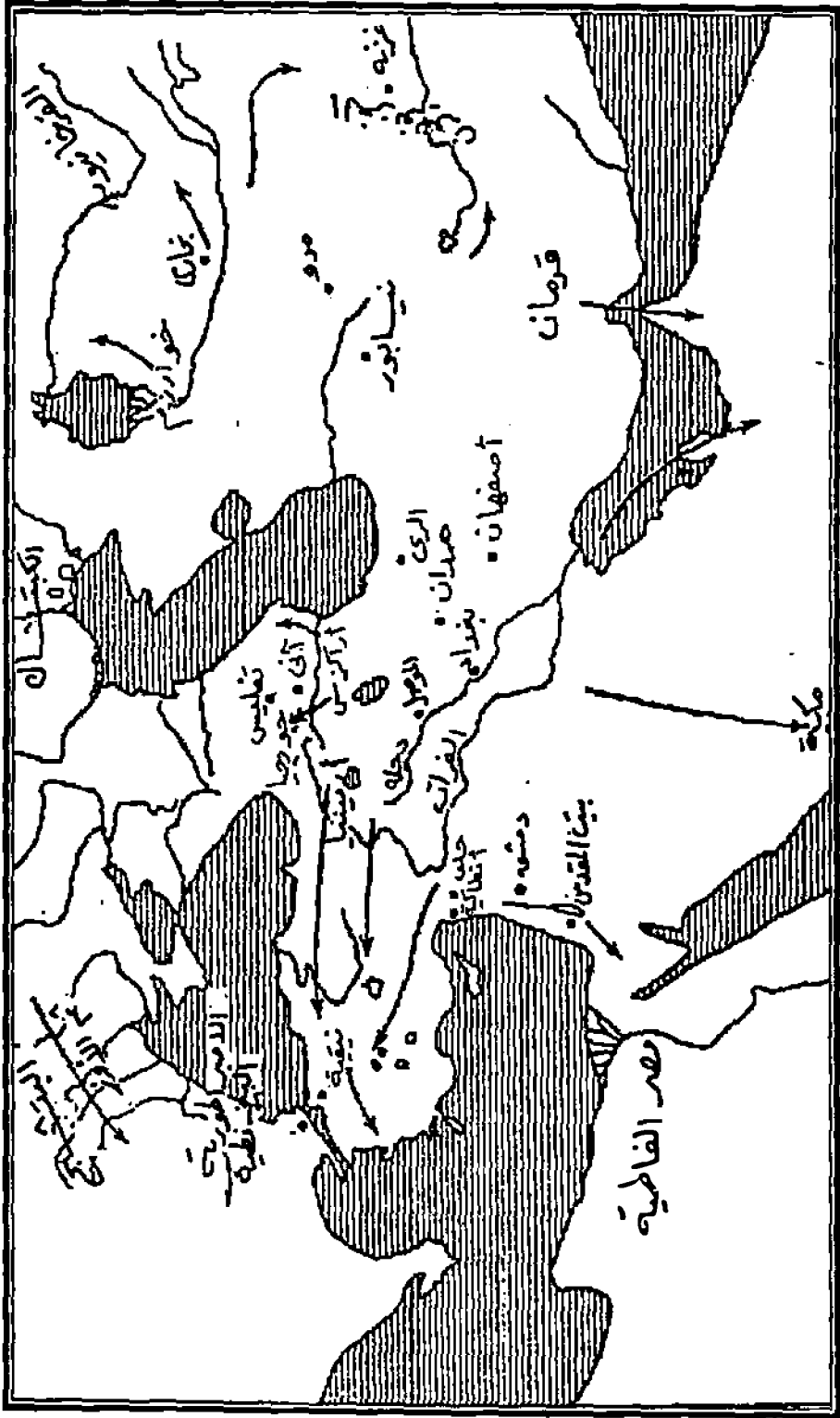
Hist of the Byzantine Empire 324-1453 Vol. II (U.S.A., 1964).

Vryonis (Speros):

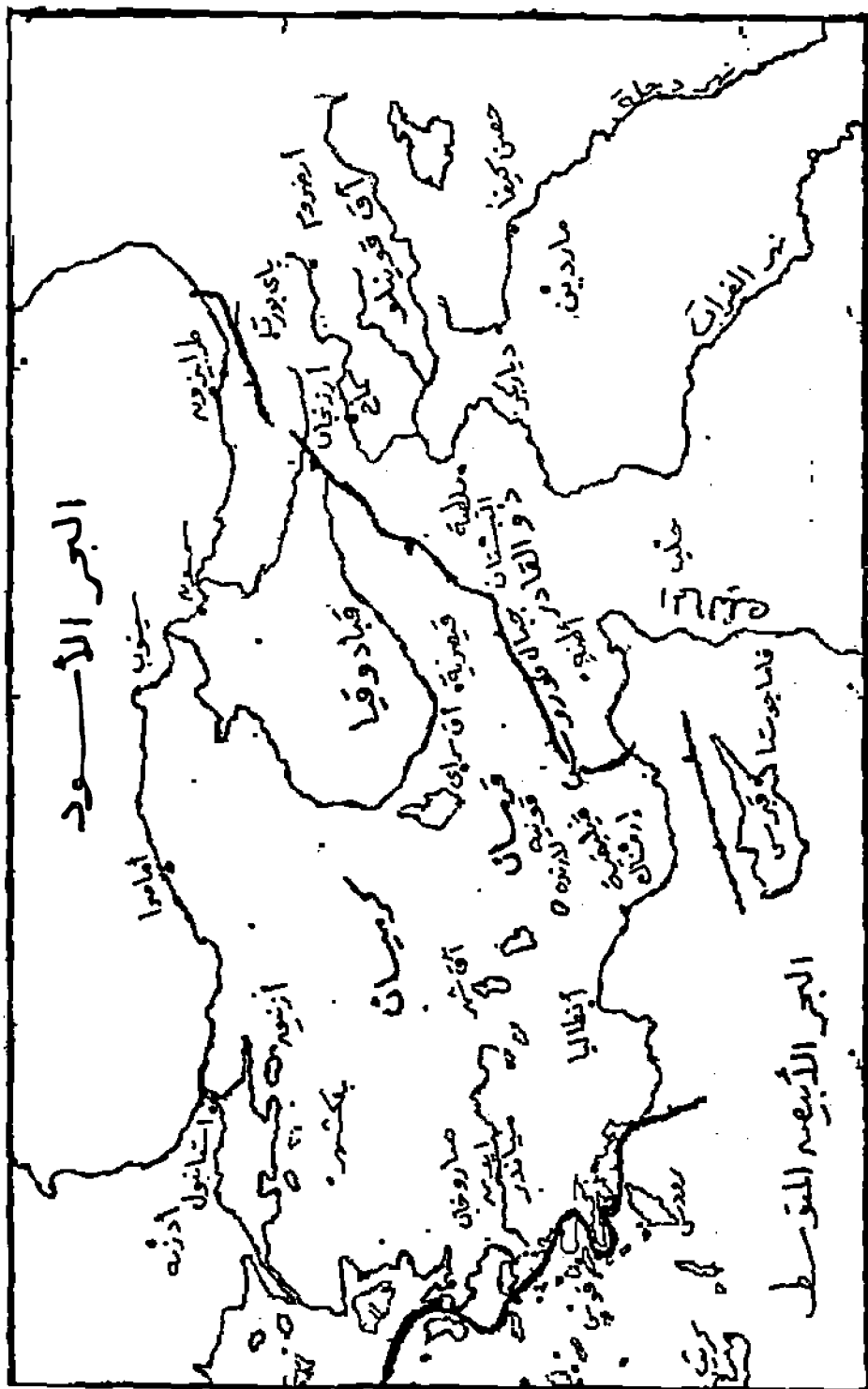
The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the fifteenth Century. (London, 1971).

"The Ottoman Conquest of Thessaloniki in 1430", in Continuity and Change in late Byzantine and Early Ottoman Society. Ed. by Bruer (Anthony) and Lowery (Heath). U.S.A., 1986).

إمبراطورية السلاجقة في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي







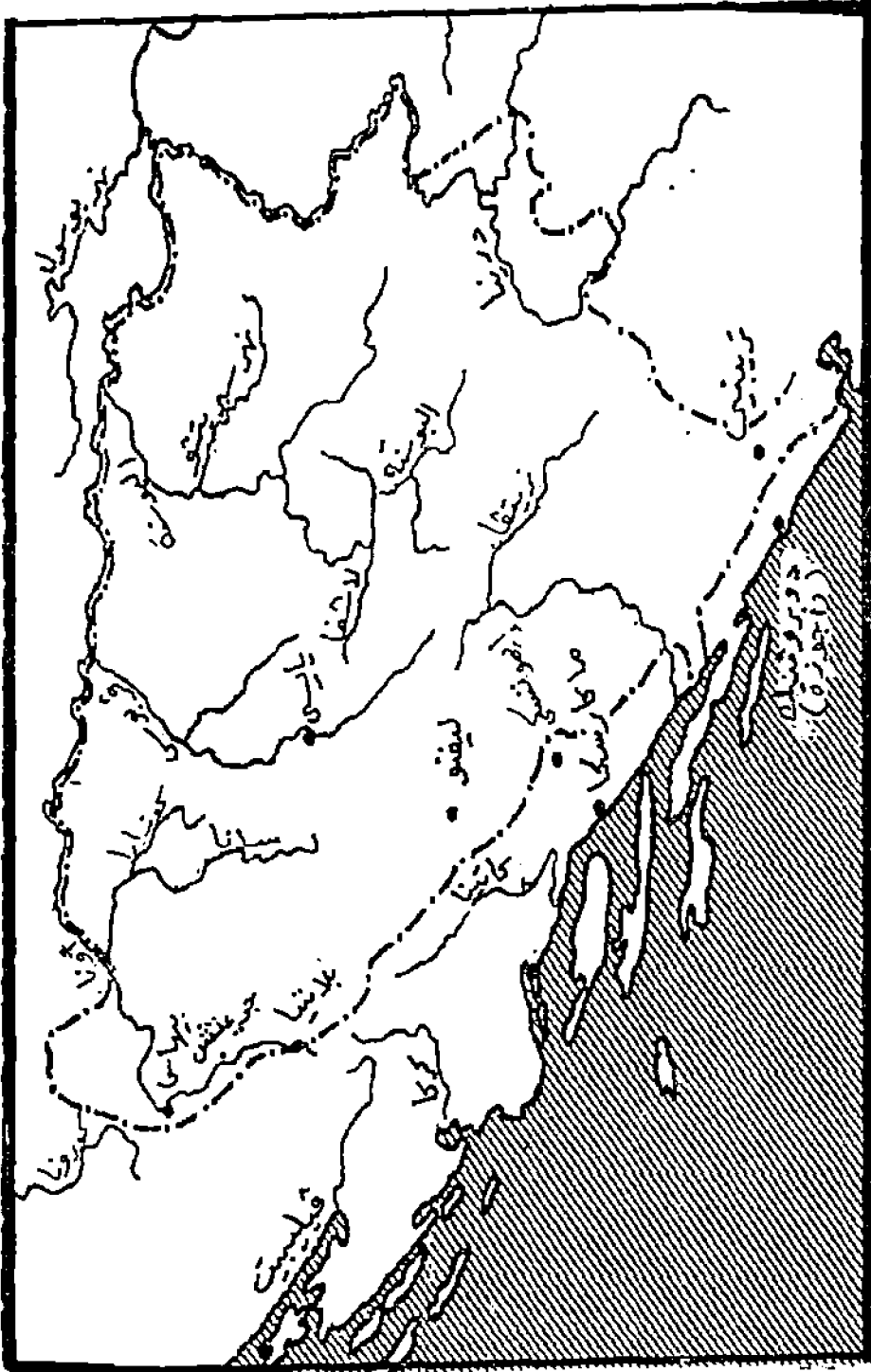
(٢٧٥)



(٢٧٥)

الأناضول في منتصف القرية الرابع عشر

البوسنة وهرزيجوفينا (الهرسل) في القرن الخامس عشر



(٥)

(٦)



البحر الأبيض المتوسط

ممتلكات المماليك البركة

قائمة ممتلكات قنبريا

فتوحات الدولة العثمانية حتى سنة ١٤٨٠ م

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣ - ١٠
الفصل الأول: ظهور الأتراك العثمانيين وقيام دولتهم:	١١ - ٣٩
الأتراك	١٢ - ١٧
الأتراك السلاجقة	١٧ - ٢٠
السلاجقة والبيزنطيون	٢٠ - ٢٨
ضعف نفوذ السلاجقة	٢٨ - ٣٤
أصل الأتراك العثمانيين	٣٤ - ٣٧
قيام الدولة العثمانية	٣٧ - ٣٩
الفصل الثاني: إتمام الدولة العثمانية	٤١ - ٦٤
أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢)	٤١ - ٤٨
مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩)	٤٨ - ٥٩
متاعب العثمانيين فى الأناضول	٥٩ - ٦١
معركة كوسوفا (قوصوفا)	٦١ - ٦٤
الفصل الثالث: الإمبراطورية العثمانية فى عهد بايزيد الأول	٦٦ - ٩٢
(١٣٨٩ - ١٤٠٢):	
تيمور لنگ	٧٢ - ٧٥
حملة نيقوبوليس الصليبية	٧٥ - ٨٤
نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبوليس	٨٤ - ٨٧
معركة أنقرة	٨٧ - ٩٢
الفصل الرابع: إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية:	٩٤ - ١٢٣
الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ - ١٤١٣)	٩٤ - ١٠١
السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١)	١٠٢ - ١٠٥

مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١)	١٠٥ - ١١٠
الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشترك	
صربيا وروالاشيا والمجر فيها	١١٠ - ١١٥
الحملة الصليبية على فارنا سنة ١٤٤٤ م	١١٥ - ١٢٣
الفصل الخامس: محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١):	١٢٥ - ١٨٨
فتح القسطنطينية	١٢٥ - ١٥٤
فتح صربيا والبوسنة وهرزوفينا (الهرمك)	١٥٤ - ١٦٥
حروب محمد الفاتح في المورة	١٦٥ - ١٦٦
حروب محمد الفاتح في ألبانيا	١٦٦ - ١٧٠
حروب محمد الفاتح في الاشيا (الأفلاق) ومولدافيا	١٧٠ - ١٧٣
حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان	١٧٣ - ١٧٩
حصار رودس والاستيلاء على أوتوتتو في جنوب إيطاليا	١٧٩ - ١٨٨
الفصل السادس: الإمبراطورية العثمانية في أوج قوتها:	١٩٠ - ٢٢٣
بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢)	١٩٠ - ١٩٤
نزاع بايزيد الثاني مع مصر المملوكية	١٩٤ - ١٩٦
غرب البحر المتوسط	١٩٦ - ١٩٧
الخطر الصفوي	١٩٧ - ٢٠١
السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠)	٢٠١ - ٢٠٤
الحرب ضد الصفويين	٢٠٤ - ٢٠٨
العثمانيون والمماليك	٢٠٨ - ٢٢٣
الفصل السابع: جوانب أخرى في التاريخ العثماني في العصر	٢٢٥ - ٢٥٧
الوسطى:	
اليهود في المجتمع العثماني في العصر الوسطى	٢٢٥ - ٢٣١
هلاقة العثمانيين برعاياهم المسيحيين	٢٣٢ - ٢٣٦
البرجوميلية	٢٣٦ - ٢٣٨
انتشار الإسلام في ألبانيا	٢٣٨ - ٢٤٠
انتشار الإسلام في صربيا	٢٤٠ - ٢٥١

٢٤٣ - ٢٤١	انتشار الإسلام في البوسنة
٢٤٤ - ٢٤٣	انتشار الإسلام في الأناضول
٢٤٧ - ٢٤٤	نظام الدوشرمة (ضريبة الفلمان)
٢٥١ - ٢٤٧	الإنكشارية
٢٥٤ - ٢٥١	الباهية
٢٥٧ - ٢٥٤	البكتاشية

الخرائط